

اقرا

تصہدراولت کھل شہر
[۳۷۳] یولیو -- ۱۹۸۱

رئیس التحریر **أنیس منصور**

د. أحمد عبد الحميد يوسف

مَضَرُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

الطبعة الثانية



دارالمعارف

الناشر : دار المعارف - ١٩٩٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا
أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ »

(هود ٤٩)

إِلَى الْعَقَادِ رَحِمَهُ اللَّهُ

حول كين مصر رواية لا تنتهى منها يد الكتاب والشرح
فيها من البردى والمزمور والتبورا والفرقان والأصحاح
ومنا وقصبيز إلى إسكندر فالقيصريين فدى الجلال صلاح
شوقى

مقصد الأنبياء

قد تبدو للمؤمن بالغيب من الثقة المورعين من أحداث التاريخ أسرار
يردها إلى حكمة الله عز وجل وأمر منه كتب منذ الأزل في اللوح المحفوظ .
لأمر ما قدر الله للمصطفين من أنبيائه ورسله مقادير يجتمعون عليها
ويشركون فيها ، وموارد إليها يردون ومنها يأخذون . ولأمر ما شاء رب العرش
لأنبيائه أن يخرجوا من تلك البقعة الوسطى من شرق الأرض فيشروا فيها
بما نزل عليهم من كتب الدين ورسالات السماء ، ولأمر ما شاء رب العرش
أن يقبل أنبياءه على مصر ويردوها فيقيموا فيها ما شاء لهم أن يقيموا أو يكون
لهم بها سبب يعظم أو يهون .

فإذا سلكنا سبيل المؤمنين المستسلمين ونظرنا في هذا نظر الثقة الممشين
قلنا إن الله حكمة هو بالغها فيما قدر لأنبيائه ومرسله . ويمثل هذا تحدث
إنجيل متى عن رحلة المسيح :

« إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلا : « قم واخذ الصبي وأمه
واهرب إلى مصر . . . لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر
دعوت ابني » (٢ : ١٣ - ١٥) . فهو قضاء سابق أن يدعى يسوع من
مصر ، فليكن إذن رحيله إليها قضاء لأمر من الله سابق سوف يكون .

ولئن بدت الأمور كذلك للمتقين المستمسكين بالإيمان ، دون غيره
فقد يجد المؤرخون أنفسهم - مع إيمانهم - من وقائع التاريخ حيل
أحداث متشابهات وظواهر متكررات تفرض على عقولهم ومناهجهم التساؤل
والاستقصاء ، وتخرج بهم من معلول يستظفرونه إلى علة يطمئنون إليها
وإليها يركنون .

على أن سنة القرآن فيما روى من القصص واستعرض من الأحداث أنه إنما يتتبع منها من الشواهد ما يدعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، مخلاً إلى الإيجاز معبراً في القصص عما يريد من التلخيص الذي يتعمق إلى الأغوار . محققاً بذلك العظة التي أراغها وقصد إليها من السيرة وروايتها . فلم يكن كتاب الله إذن سجلاً للأحداث ولا كتاباً للتاريخ بمعناه المشهور . ولا هو صحيفة من صحائف الأمم ولا شعب من الشعوب ، ولذلك فلسنا نأنس فيه الأسماء الكثيرة ولا تفرع الأنساب والسلالات ، ولا نجد فيه استقصاء الأحداث معدودات مفصلات ، وهو مع ذلك على إيجازه وبيانه خليق أن يحفز على البحث والاستقصاء : خليق بالنظر فيما أورد من أخبار الأيام والتحقق من أحداث التاريخ .

أخرج جلال الدين السيوطي في كتابه « حسن الخاضرة في أخبار مصر والقاهرة » عن ابن زولاق أن مصر ذكرت في القرآن في ثمانية وعشرين موضعاً ، وقال بل أكثر من ثلاثين وقع فيها ذكر مصر من القرآن صريحاً أو كناية ، ونقل عن الكندي تعليقه على طائفة من آياته فيها قوله : « لا يعلم بلد في أقطار الأرض أثنى الله عليه في القرآن يمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف ولا شهد له بالكرم غير مصر » .

أجل ، فلقد كانت مصر فصلاً في تاريخ كل دين .
على أرضها كلم الله موسى وبعثه لهداية العالمين .
وأقبل عليها يسوع في المهدي وكانت به أسبق المؤمنين .
ثم صارت من بعد حصن الإسلام ومعقله الحصين .

• • •

ومن قبل ذلك أقبل عليها أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم ، فأقام بين أهلها يقول لهم ويسمع منهم ثم يخرج بجارية مصرية تكون أمّاً لبكر بنيه . لقد كانت هاجر مصرية تحمل اسماً مصرياً ورد في الآثار المصرية

بما لا يدل على غير تصحيف يسير . إذ نقرأه في المصرية هاقر وهاقرة^(١) .
وتلد هاجر المصرية إسماعيل الذي باركه ربه فكان صديقاً نبياً .
ومن إسماعيل تخرج أمة عظيمة هي أمة العرب المستعربين ومنها كانت
قريش زعيمة العاربة والمستعربين أجمعين .

وقد شاء الله أن يشرف الأصل بالفرع فتشرف هاجر بمولد إسماعيل ،
بل يشاء تخليداً لتلك الفتاة المصرية فيغرض على عباده السعي - كما سعت -
بين الصفا والمروة حاجين أو معتمرين . إذ تأذن ربك للآلاف من خلقه أن
يظفروا بين الجبلين إذ يتدافعون ما دارت الشمس كل عام مسبحين مهللين ،
ومالين مكبرين ، وأن يظفروا على تدافعهم حتى يرث الأرض ومن عليها وإليه
يرجعون ؛ وأن يكون فرضه هذا من أركان دينه الذي أنزله وارتضاه كافة
للعالمين .

« إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر
فلا جناح عليه أن يطوف بهما » .

(البقرة ١٥٨)

وكأنما كان خليل الرحمن يدعو لذريته في أرض الحجاز بمثل الذي
رأى من الخير في مصر حين هبط إليها زائراً ، ثم متخذاً من بناتها زوجة
تكون أمّاً لولده إسماعيل بكر بنيه ، وأمّاً للعرب ونبعة لسيد الأنبياء والمرسلين ،
وكأنما تمثل له حين دعا في الحجاز لهاجر ما كانت اعتادت في بلادها التي
هجرتها وأقبلت منها :

« ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك
المحرم ، ربنا ليقموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم
من الثمرات لعلهم يشكرون »

(إبراهيم ٣٧)

H. Ranke, Die Ägyptischen Personennamen, (Glückstadt (١)

1935 & 1952) Band I, S. 231.

بمثل الذي رأى في مصر تفكر ، حين دعا ، إبراهيم .

وإذ كان وما زال ذا زرع وخير عميم .

تهوى إليه مع ذلك أفئدة من الناس بالتجارة والسياحة غادين رائحين

ورزقيهم من الثمرات فكافوا - بأسلوبهم ومستهم - شاكرين .

ومن بعد إبراهيم جاء يوسف إذ حمل إليها صبياً فعاش فيها حياته حتى

توفاه الله في أرضها حيث حنط ودفن إلى حين (١) .

وقد كان هبوط يوسف مصر مكانة ونعمة من الله بمن بهما عليه ،

ولو جاء إليها في مهانة العبودية وذل الإسار ، لأن الله إنما حمّله إليها

« مبعوثاً » يتعلم العلم في أرضه التي أقام فيها العلم منذ غابر الأقطاب ولدهور

قال عز من قائل :

« وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا

أو نتخذة ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل

الأحاديث والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

(يوسف ٢١)

وفشاً فيها موسى حيث ربي وليداً ولبث فيها من عمره سنين « ولا بلغ

أشدّه واستوى آتيانه حكماً وعِلماً وكذلك نجزي المحسنين » ... « فلما قضى

موسي الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا

إني آنست نارا على آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون .

فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة

أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين »

(القصص ١٤ ، ... ، ٣٠)

وأما يسوع فقد أتت به مريم تحمله حيث أقامت كما حدث الرواة

ما بين عين شمس وبابلين وقال تعالى :

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين »
(المؤمنون ٥٠)

وكان لرسول الله محمد بن عبد الله - كما كان لأبيه إبراهيم - زوجة مصرية أو قبطية هي مارية التي أنجبت له ولده إبراهيم ، كما كان له صلى الله عليه وسلم فيها من أحاديثه الشريفة ما وصى بها الناس بأهلها وذكر أنهم يكونون على الأعداء نعم الأعوان .
صدق رسول الرحمن .

كذلك كانت مصر التي كان لها نصيب من الذكر الحكيم جليل ، وحسبها من شرف أنها أثنى عليها رب العرش في الذكر المبين ، وأنها كانت قبلة الأنبياء والمرسلين .

ومن قبل الأنبياء ومن بعدهم كانت قبلة من جاورها من أمم الأرض وشعوبها ، ومن وفد عليها من التجار وطلاب المعرفة والحكماء . أولئك يطلبون الرزق بالبيع والشراء ، وهؤلاء يقصدون الحكمة ويتلمسون السناء .

فكان لها دائماً فضل المتفضل على الطالبين والقاصدين ، فلا جرم تكون مدرسة تلقى فيها المعلمون من فلاسفة الإنسانية وأنبياء الرحمن المرسلين إذ بعثوا إليها متعلمين قبل أن يبعثوا معلمين ، ولا جرم يكون لها النصيب الأوفى من عناية الكتاب والمؤرخين .

وسبحان ربك الأكرم الذي أنبت في مصر القترطاس والقلم وجعلها المدرسة التي فيها علم الإنسان بهما ما لم يعلم . إذ تأذن لأهلها فجعلهم أول من يكتبون ، وعنهم أخذ الناس القلم وما يسطرون .

٢

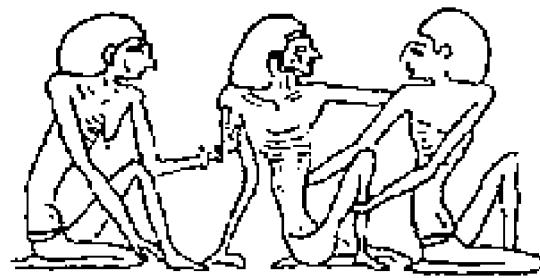
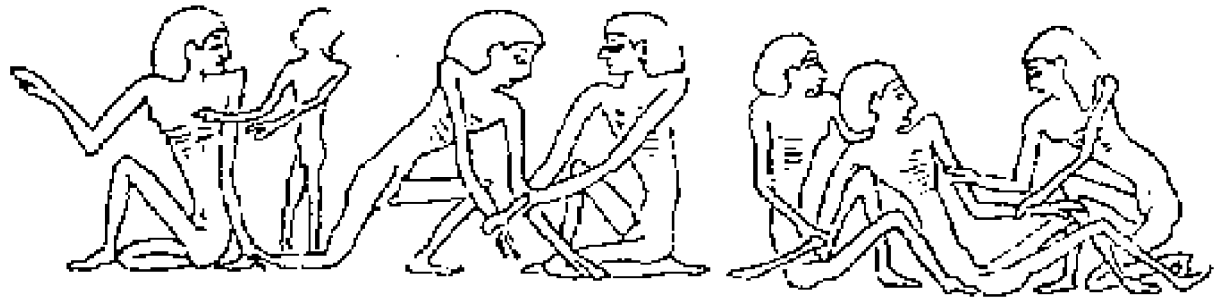
إبراهيم

وقد كان إبراهيم عليه السلام أقبل من حيث يقيم في فلسطين على مصر يطلب فيها الشيع والرى من بلاد ضربها القحط والجفاف . وقد تحدث التوراة في ذلك قالت : « وحدث جوع في الأرض فأنحدر إبراهيم إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديداً (تكوين ١٢ : ١٠) . وكان مجيئه إليها على الأرجح والمشهور أرام الأسرة الثانية عشرة من ملوك الدولة الوسطى في القرن العشرين من قبل مولد المسيح . حيث هبط على طريق ممهد من علائق قديمة بآسيا منذ أقدم العصور ، إذ كانت قوافل التجارة ترد على مصر وتصدر عنها بما تحمل من العروض التي تحتاج إليها مصر أو تطلبها سوريا وفلسطين . ولقد كانت حاجة مصر إلى الخيد من الأخشاب خاصة دافعاً لأهلها على تلمسه من مظانه في فينيقيا (لبنان) منذ طلائع تاريخهم ، حتى لقد تسمت بعض أنواع سفنهم بحكم انتظام الرحلات إلى فينيقيا باسم ميناء جبيل هناك فسميت الجبيلية ، ومن أبناء سنور ورأس الأسرة الرابعة أنه أرسل قافلة من أربعين سفينة لحلب خشب الأرز منها (١) . كذلك كان العثور منذ فجر التاريخ على الحلى من اللازورد الكريم في مصر . حيث لا يتوفر ، دليلاً على اتصالها بغيرها من الأقطار منذ ذلك الأمد البعيد (٢) .

(١) J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt (Chicago 1962), Vol. I, § 146.

(٢) H. Kees, Ancient Egypt, A Cultural Topography (1961), p. 126.

ولذلك فقد حرص المصريون على تأمين مصادر ما يطلبون من المواد والطرق إليها ، وسلكوا لذلك طريق الحرب وسبيل السلام على سواء .



(شكل ١)

وقد كان من وراء تخوم مصر مفاوز مرهقة وأقاليم مملقة قد علموا من أمر سكانها ما صوروه في آثارهم أحسن تصوير . فعلى الطريق الصاعد بين هرم ونيس عاهل الأسرة الخامسة وبين معبدته في سقارة ، صورة لطائفة من هؤلاء البدونزلت بهم مجاعة أذابت الشحم وأكلت اللحم ودقت العظم (شكل ١) وقد كانوا يحكم ما تنزل بهم من نوازل القحط ، يندفعون ما سححت فرصة إلى الروابي الحضر قبا وراء الأفاق من بواديهم يتلمسون في مصر الرزق محاسنين أو محاشنين ، فمنهم من كان يتسلل فيدخل في طاعة المصريين طاعماً في خدمتهم من عمل يده ، ومنهم من إذا اشتدت به الحاجة لم يبال إذا انقض في قومه على التخوم أن تأخذه نصال النابلة من حرس الحدود في صياصيتهم . وقد كان تجاور الأعداء على التخوم من الجفاف والري ومن الفقر المتقع واليسر الممتع خطراً مقبهاً على حدود مصر فرض على ملوكها التحفز الدائم لحمايتها من غارات المغيرين وعدوان المعتدين ، وكانت طوائف منهم تتعرض

لما ترسل مصر إلى طور سيناء من بعثات التعدين : بل لقد أوشكت غارات البدو وحملات تأديبهم أن تكون من الأعمال الدورية على مر العصور منذ مطلع التاريخ المصري .

وقد تختلف الحملات من السرايا الصغيرة التي تخرج لإقرار الأمن والإرهاب إلى الكتائب الكبيرة التي تشتبك في المعارك وتقاتل في الحروب ، حيث توغل في تقدمها إلى ما يلي سيناء من غربي آسيا . ثم لم تلبث السياسة المصرية كما قدمنا أن حرصت على بسط نفوذها على تلك البقاع وضمها إلى مصر .

ومن أنباء تلك الحروب ما تواتر عن عاهل الأسرة السادسة بيبي الأول من أنه أنفذ حملات خمساً بقيادة وزيره أونى لتأديب الآسيويين فتعقبهم حتى فلسطين ؛ فدمر حصونهم ، وذك قلاعهم وحرق دورهم واقتلع ما لهم من زروع وكروم ، ثم عاد بالألوف منهم أسارى ، وكانت خامس هذه الحملات بحرية نخرج فيها أونى بالأسطول المصري في البحر المتوسط فتزل بفلسطين حيث قضى على الحوارج في موقعة سميت « شرت تب جحس » بمعنى أنف رأس الغزال . ومن أنباء الأسرة الثانية/عشرة أن « سنوسرت » الثالث شخص إلى فلسطين في جيشه فقاتل العصاة حيث أخضعهم في منطقة ذكرتها المصادر باسم « سكهم » ورجعها المؤرخون بأنها شكيم الفلسطينية التي ذكرت في التوراة ، ثم عاد إلى مصر بعد أن أعاد النفوذ المصري إلى هناك .

على أن القبضة ما إن تراخى في عصور التفرق والضعف السياسي حتى تنشط القبائل من حولهم إلى الضغط والغارة ؛ ثم إلى الزحف على الدلتا في سبيل عيش لين ومقام كريم . وذلك حين يستنم إلى الأمر وتتحطم مواقع الحراسة وتنهار المقاومة . وقع ذلك على مدى عصور التاريخ مرات ومرات . فكان أواخر الأسرة السادسة حين طغقت عناصر من الآسيويين تتسرب إلى الدلتا حتى غمروها وتغلغلو فيها ، ثم عاد فتوقع في أعقاب الدولة

الوسطى في صورة غارة هائلة حملت اسم « الحكسوس » الذين دخلوا مصر بالحرب والقتل والتدمير ، ثم شهدته مصر بعد ذلك من قبل الليبيين في الغرب والنوبيين في الجنوب وشعوب البحر المتوسط في الشمال . لذلك كله فقد حرص ملوك مصر على التدبير لأمن تخومها وسلامة حدودها .

وكان ملوك الأسرة الثانية عشرة - التي عاصرها إبراهيم عليه السلام - من أحرص الفراعين وأنشطهم في حماية الحدود وحراسة التخوم ، فكان لهم في الجنوب ما بين سمّة عند الشلال الثاني وبين الفنتين عند أسوان ثلاث عشرة قلعة ، يبدو من أسمائها ما أريد لها من وظيفة الأمن والدفاع ، مثل « راحة القبائل » و « مخضعة الصحارى » . وكان « سنوسرت » الثالث من أنشط هؤلاء الفراعين فيما أرسى لتلك الحماية وبذل لها من جهود الحرب والإنشاء ؛ إذ ينطق عن سياسته في ذلك ما أقام عند سمّة من قلعة وشاهد يبين حدود مصر الجنوبية وما وصى به أخلافه من بنيه بالحفاظ عليها وحمايتها حيث يقول :

« أيما ولد لي يرعى تلك الحدود التي أقامها جلائي فلانه (بحق) ولدى الذى ولد لجلائي . . . أما من سوف يتخلى عنها ويتقاعس عن القتال في سبيلها فليس لي ولد ولا هو ولد لي » (١) .

ومع ذلك فما كان لتلك الحدود أن تكون مانعاً ولا حائلاً في سبيل التجارة وسفارات السلام ، إذ كان الملك مع حرصه على تأكيد سيادة مصر على أراضيها وضمان سلامتها حريصاً على رفاهية شعبه وتنشيط تجارته وتوفير احتياجاته ، فأصدر مرسوماً أعلنه على بعض شواهد الحدود تلك يبين فيه مع الحدود نظام المرور ويعين أسواق التجارة جاء فيه :

« اخذ الجنوبي الذى أقيم عام ثمانية في عهد جلالة ملك الجنوب والشمال خع كاورع (سنوسرت الثالث) الموهوب الحياة أبداً وأزلاً لمنع أى زنجي أن يعبره بجرأاً أو برأً بسفينة أو في جماعات من الزنوج ، وذلك

فيما عدا زنجياً يأتي للتجارة في « يكن » أو سفارة ، فيؤدي له كل شيء طيب ، وذلك بدون السماح لسفينة للزنج بتجاوز « حح » هابطة التيار إلى الأبد » (١) .

وكذلك حظيت مصر على جبهتها الشرقية بما عرف منذ الدولة الوسطى بحائط الأمير ، حيث قامت القلاع والحصون ومواقع الحراسة التي يقوم عليها الجنود المنوبون الذين لا يمكنون لدخيل من تجاوزها أو عبورها إلا أن يؤذن له ويمنح جوازاً بذلك ، وذلك في أقدم ما عرف من جوازات السفر في التاريخ . وفي قصة « سائوحي » التي انحدرت إلينا من ذلك العصر أنه خرج من مصر هارباً من فتنة ظن أنها واقعة بها لا محالة ، وأنه إن أقام غير ناج منها ، فولى وجهه - في طريقه إلى سوريا - شطر الشرق عند البحيرات المرة ، فلما انتهى عندها هناك إلى « حائط الأمير » الذي شيد لرد البدو ، كان عليه أن ينحني بين الشجيرات من حول القلاع أن تناله عيون الرقباء من صياصبيهم . كذلك روى أنه لما عفا الملك عنه وآمن له أن يرجع إلى الوطن أقبل على مصر شيخاً طاعناً في السن ، حيث أقام عند تخومها الشرقية على طريق حور منتظراً - ولم يدخل - حتى أرسل قائد الحدود إلى الملك بمقدمه وعاد الرسول بالإذن للأمير العائد بالدخول .

ومهما يكن من شيء ، فلقد كشفت الأحافير على كل حال في مصر والشام وتحدثت الأخبار يومئذ كذلك بما يشهد لمصر بما كان لها في تلك الزبوع من النفوذ السياسي والمنزل التجاري جميعاً . فقد عثر من عهد الأسرة الثانية عشرة تحت معبد ها في الطود بصعيد مصر - فضلاً عن تماثم من لازورد . وأنعام أسطوانية بابلية - على ودائع من حلي الذهب والفضة ومبائلك منهما في أربعة من صناديق البرونز عليها اسم امنمحات الثاني ، وكلها بحكم طرزها الإيجية والبابلية إنما تنطق عما كان لمصر من علائق قد

تكون امتداداً لتفوذها على تلك البقاع^(١). كذلك عثر على طائفة من آثار تحمل أسماء ملوك هذه الدولة الوسطى وأفراد أسرهم في جبيل وبيروت وأوجاريت (رأس شمرا الآن) على الساحل اللبناني، وفي قطنة شمالي سوريا. كما عثر في مجدو الفلسطينية على قاعدة لتمثال جحوت حنب بن كاي وست خبركا حاكم إقديم الأرنبة والكاكن الأكبر لمعبودها جحوت في الأشمونين. ولا شك أن وجود تمثال لمثل ذلك الرجل في سوريا وفلسطين وهذه منزلته إنما يدل كما قدمنا على علائق متينة بين مصر وآسيا. وغير بعيد أن يكون وأقران له قائمين بأعمال دبلوماسية هناك أو مندوبين في مواقع لمصر فيها مصالح تجارية كبرى^(٢)، ومع ذلك فلدينا من أخبار ذلك العصر - عصر الدولة الوسطى - شواهد تحدث عن موظف مصري كان مقيماً في مجدو وكان يجلب المعجول منها ويصدرها إلى مصر^(٣).

ولم تكن الوفود من مصر وإليها لتقطع عنها طوال تاريخها القديم، حتى عمت أخبارها وتشت لغتها في أنحاء البلاد من غرب آسيا. وفي قصة ساندوحي وما كان من قراره من مصر أنه لجأ إلى بعض مدائن سوريا حيث كتب إليه أميرها يدعو إلى الإقامة عناء حيث الأمن والدعة وحيث يسمع لسان مصر.

وكان صوت مصر وصيتها يومئذ - بحكم ما قدمنا - قوياً في الأسماع مهيباً في النفوس، حيث تولي الحكم فيها ملوك حرصوا على توفير الكفاية والعدل في البلاد، وقد سبق عصر هؤلاء الملوك عصر نادى الناس فيه بالعدل والحق والمساواة، وعبروا عما في أعماقهم من مشاعر انشوق إلى العدل، فبدأ

(١) مصر ص ٢٨٤ - ٢٨٥ تأليف اتين دريوتون وجاك فاندديه

وتعريب عباس بيومي

(٢) Prichard, Ancient Near Eastern Texts Relating to the (٢)

Old Testament (3rd edition, Princeton 1969), p. 228.

(٣) Montet, L'Égypte et la Bible, (Neuchatel 1959), p. 19. (٣)

جاءوا إلى العرش أخذوا أنفسهم بتحقيق الرفاهية وإرساء العدل للأرباب والناس .
ومن المحقق أن مصر كانت تصدر مع ما كانت تصدر من عروض
التجارة إلى تلك الربوع ما اهتمت إليه من العلم والفكر والأخلاق ، وأنها
مهدت هناك بتعاليمها لتعاليم من ظهر من الأنبياء والمرسلين وأقامت أساساً
من الفكر والضمير الحى الذى أرهص لما بشروا به وهياً لاستقبال ما نزل
عليهم من العقائد والرسالات .

وكانت الأسرة الثانية عشرة يومئذ قد بلغت من القوة واليقظة ومن الثقة
والنظام أن سمحت لمن شاء ممن جاورها من الشعوب أن يقبل عليها موغلاً
إلى حيث يستطيع من أقاليم الصعيد ، وكان منظر التوافل من البدو مما راق
لشريف من بنى حسن وراق لقنانه الذى أعد له قبره فصور قافلة منها فيه .
إذ نشهد فى قبر خنوم حتب منظرأ (فى شكل ٢) لقافلة أو قبيلة من
سبعة وثلاثين نفساً من رجل وامرأة و غلام ، أقبلوا بقيادة زعيمهم أو شيخهم
إبشا (أو إبشاي كذكره فى التوراة) يبيعون الكحل ويحملون القسي والسهام
ويروجون لذلك بما يعزفون من نغم على الطنبور ؛ وذلك بما عليهم من مآزر
مبرقشة ولحى كثيفة تملأ العوارض وشعر على الرؤوس طويل .

ولم يكن أبشاي رأس تلك القبيلة السامية أو حاكم البلد الأجنبى كما
وصفته النصوص المصرية ليدخل مصر فيجوس خلال الديار بغير إذن
الملك ولا إذن السلطات المصرية كما يقال ، فلقد رصد القراعنة على التخوم
من شرقى مصر — كما قدمنا — قلاعاً عليها الرماة من العسكر يرقبون السفر
داخليين خارجين ؛ ولم يكن لغريب أن يدخل إلا أن يقف عند ثارو حيث
القنطرة الآن فلا يواصل المسير حتى تعرف هويته وتكشف نيته ويتضح
مبتغاه . وقد روينا عن سانهوى أنه فى فراره من مصر قد حرص على التخفى
بين الشجيرات حتى لا يراه الرقباء من فوق القلاع ، وأنه فى أوبته إلى الوطن
شيخاً طاعناً فى السن قد توقف عند ثارو وهو الأمير المصرى المعروف حتى
جاءه إذن الملك بالدخول .

وفي هذه الفترة من حول القرن العشرين من قبل مولد المسيح على عهد هذه الأسرة المالكة المصرية - على المشهور - أقبل إبراهيم أبو الأنبياء عليهم السلام . وأكبر الظن أن إبراهيم قد هبط مصر مع إحدى قوافل البدو تلك



(شكل ٢)

التي كانت تقبل بائعة لها وبائعة منها كما رأينا في قافلة أبيشاي . ولقد كان حلول إبراهيم بمصر كما روى الأصحاح الثاني عشر من سفر التكوين فراراً من قحط وجوع لم يكن إلى احتماله بفلسطين من سبيل : « وحدث جوع

في الأرض فأتى إبراهيم إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديداً . ومن الملاحظ أنه إنما أقبل على مصر وقد تسامع الناس في بلاده بما كان في مصر يومئذ من الرخاء ودرغد العيش ولين المقام ، وما كان يسودها من الأمن والدعة والسلام . ومهما يكن من تقدير المؤرخين والكتاب في تاريخ هبوط مصر واختلافهم فيه ، فإن الأحوال المواتية التي كانت خليفة أن تجذبه إليها وتغريه بالإقبال عليها والإقامة فيها إنما تهيأت واستقرت على عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة ولم تنهياً قبلها ولا استمرت طويلاً بعدها كما نؤكد أن نفصل بعد قليل ، وظاهر من رواية التوراة والمشنا^(١) وما أيدهما من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة أن إبراهيم إنما دخل مصر جبهة ولم يدخلها تسلاً ، وأنه لم يدخل في عهد من عهود الفوضى والاضطراب التي سبقت الأسرة الثانية عشرة أو لحقت بها أيام المكسوس . بل أقبل - وهو يعلم - على دولة مستقرة منظمة سوف يسأل عند الحدود فيها عن هويته وهوية من معه من رجال ونساء ؛ فكان منه ما كان من حديثه إلى امرأته سارة فيما اتصلت روايته في الأصحاح الثاني عشر من سفر التكوين :

« وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته : إني علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك . قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك » (١٠ - ١٣) .

ويستخلص كذلك من أحاديث المشنا فيما كان من دخول إبراهيم مصر مع سارة أن التخوم المصرية قد كان عليها من عمال المكوس من يسأل ويستقصي السفّر فيما يحملون في أمتعتهم من عروض . إذ روت أن إبراهيم

(١) المشنا القديمة أهم المراجع الإسرائيلية بعد التوراة ، فالمقرا هو ما يحفظ بالقراءة في الكتب ، وهو نصوص التوراة المعتمدة والمشنا هو ما يحفظ بالذكر والاستظهار ومنه التلمود على نشأته الأولى .

خاف على فرعون وقومه الفتنة من جمال سارة فحملها في ثيابوت وهم يعبرون تخوم الديار . وسأله عمال المكوس عما في الثيابوت فأخبأهم أنه شعير ، قالوا بل نأخذ المكوس على قمح قال خذوا عاتشاءون فعادوا يطلبون الضريبة على بهار فأجابهم إلى ما طلبوه ، فارتابوا فيما يخفيه وأمره أن يؤدي الضريبة على سق الثيابوت ذهباً فقبل فأعطاهم سؤفهم ، فحيرهم قبوله كل ما يسومونه أن يبدله وخامرهم شلث عظيم ففتحوا الثيابوت عنوة فإذا بالنور يقبض من وجه سارة حتى يعم الديار ويعشى عين فرعون .

على أن إبراهيم لم تكن به من حاجة إلى الخوف على حياته من أهل مصر ولا من ملكها على امرأته أن تغصب منه ويقتل من أجلها . ولعل الذي راود صدره من خوف لم يجاوز الوهم كما ساور يعقوب الوهم من حسد بنيه الأحد عشر إن دخلوا من باب واحد ولم يدخلوا من أبواب متفرقة ^(١) ، ولعل إبراهيم عليه السلام إنما صدر فيما صدر عن استعمار مما عهد من غصب النساء والاحتياال على اقتناصهن من أزواجهن في بلاده التي أقبل منها ، بل ومن بوائق أسوأ سوءاً وأعظم نكراً بلا بعضها في سدوم ابن أخيه لوط من قومه ، فحققت عليهم كلمة العذاب ، وأخبر الله بها إبراهيم .

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط » . . .

الآية (هود ٦٩ - ٧٠ ، ٧٧ - ٨٢)

(١) « وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء . إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكفل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمرهم أبومهم ما كان يغنى عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . (يوسف ٦٧ - ٦٨)

بوائق بلغ من شيوعها أن تواترت إلى كاتب التوراة لاحقاً بالأنبياء والمرسلين وهونت عليه نسبة الزنا والغصب إليهم . فذكر أن لوطاً سكر وزنى بابنتيه فحملتا منه (تكوين ١٩ : ٣٠ - ٣٨) وأن داود رأى من سطح بيته امرأة أوريا تستحم « فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه واضطجع معها » ثم كتب داود مكتوباً إلى يوباب وأرسله بيد أوريا وكتب في المكتوب يقول اجعلوا أوريا في الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت » .

(صموئيل الثاني ١١ : ٢ - ١٦)

على أن ملك مصر - على كل حال - ما إن عرف مكان سارة من إبراهيم حتى تذاحم - بحكم ما كان يسود مجتمعه من مكارم الأخلاق - بما أوشك أن يقع فيه من اتخاذ زوجة غيره زوجة له ، واستنكر ما ألقى إليه إبراهيم أو نقل عنه من خبر مكذوب وما كان من زعمه أنها أخته ، فتقول التوراة .

« فحدث لما دخل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة حسنة جداً ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبراهيم خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال » .

(تكوين ١٢ : ١٤ - ١٧)

ونريد قبل المضي في هذا الحديث أن نستطرد قليلاً فيما ذكرت التوراة من جمال نالها إبراهيم في مصر مصححين . ذلك أن كاتب التوراة - في معرض التعبير عما لقي إبراهيم من كرم فرعون إنما كان يعدد على أسلوبه وبيشته ما عسى أن يتلقى - في مفهومه - من ملك مصر ، فذكر الغنم والبقر والحمير والعبيد والإماء والأتن ، ثم أضاف إليها الجمال ، وإن ظلت الإبل غريبة لا يعرفها المصريون يومئذ على التحقيق ، بل لقد كانت غريبة على من أقبل على مصر يومئذ من قبائل البدو الساميين ، فلقد أقيمت قبيلة

بیشای او و فتنه تسوق الخمر لا اجمال کما لم ترد فيها تمش على صخور
سبب من ذلك العهد صور لمجمل .

ونعود إلى رواية التوراة التي تتصل فتقول :

فضرب نرب فرعون وبنته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة ابرام ،
فدعا فرعون ابرام وقال ما هذا الذي صنعت بي . لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ،
لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لتكون زوجتي ، والآن هو ذا امرأتك .
خذها واذهب فوصي عليه فرعون رجلاً فثبعوه وامرأته وكل ما كان له .

(تكوين ١٢ : ١٢ - ٢٠)

وقد وافق حديث الرسول عن أبي هريرة رضي الله عنه خبر الخليل في
التوراة قال عليه الصلاة والسلام :

« لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات اثنتين في
ذات الله في قوله إني سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة في شأن سارة ،
فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها : إن هذا
الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبني عليك : فإن سألك فأجيبه إنك أختي ،
فإنك أختي في الإسلام : فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك .
فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه ، فقال له : لقد قدم أرضك
مرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك فأرسل إليها فأتى بها : فقام إبراهيم عليه
السلام إلى الصلاة . فلما دخلت عليه لم يتألك أن بسط يده إليها فقبضت
يده قبضة شديدة : فقال لها ادعى الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت
فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى : فقال لها مش ذلك ففعلت فعاد فقبضت
أشد من القبضتين الأوليين ، فقال ادعى الله أن يطلق يدي فلك عهد الله
ألا أضرك ففعلت وأطلقت يده ، ودعا الذي جاء بها فقال له إنك إنما أتيتني
بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضي وأعطتها هاجر . . . فأقبلت
تمشي فلما رآها إبراهيم عليه السلام . . . قال مهيم قالت خيراً كلف الله يد
الفاجر وأخدم خادماً . قال أبو هريرة فلك أمكم يا بني ماء السماء . »

« لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام إلا ثلاث كذبات » ، ومع ذلك فقد حرص مفسرو الإسلام على نفي الكذب عن أنبياء الله وتنزيههم عن الوقوع فيه . وقالوا إن الكذب حرام إلا إذا عرض . ومن أمثلة العرب قولهم إن في المعارض لندوحة عن الكذب ، ولذلك فقد ذكر المفسرون أن الذي قاله إبراهيم فيما ورد بسورة الصافات « إني سقيم » إنما هو معراض من الكلام أى سأسقم ، أو أنه من الموت في عنقه سقيم ، أو أراد إني سقيم النفس لكفركم ^(١) ، وأما الثانية فقد وقعت فيما كان منه بأصنامهم « وتالله لأكيذن » أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعالمهم إليه يرجعون .

« قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين » قالوا سمعنا فبي يذكركم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعنهم يشهدون ، قالوا أنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » ^(٢) .

وقد ذكر النسفي في تفسيره أن إبراهيم إنما نسب الفعل إلى كبيرهم وقصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى تبكيتاً لهم وإلزاماً للحجة عليهم . وقان أبو السعود مشيراً إلى الذي لم يكسره : « سلك عليه السلام مسلكاً تعريضياً يؤديه إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجة على اللطف وجه وأحسنه بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوق من الكذب ، حيث أبرزه في ذلك المعرض فعلاً يجعل الفأس في عنقه . وقد قصد إسناده إياه بطريق النسب حيث كانت تلك الأصنام غاظته عليه السلام حين أبصرها مصطفة مرتبة للعبادة من دون الله سبحانه ، وكأن غيظ

(١) تفسير النسفي لآية ٧٩ .

(٢) الأنبياء ٥٧ - ٦٣ .

كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه باعتبار أنه الحاصل عليه . وهو على كل حال إنما قصد بمقالاته تلك إلى تبكيثهم بما يعبدون من صنم لا يسمع ولا يقول . وأما التيضوي فقد ذكر أنه إنما أسند الفعل إليه تجوزاً لأن غيظه لما رأى من زيادة تعظيمهم له تسبب لمباشرته إياد وتقريراً لنفسه مع الاستهزاء والتبكيث على أسلوب تعريضى كما لو قال لك من لا يحسن الخط فيما كتبه بخط رشيق أنت كتبت هذا فقلت بلى كتبه أنت .

• • •

وبعد ، فما بال إبراهيم في الثالثة يزعم للمصريين أن سارة أخته؟! أترأه اضطر هذه المرة إلى الكذب والمين فلا متدح ولا محيص إلى التعريض؟! لعل دراسة الحضارة المصرية ولغتها أن تقدم إلينا في قصة إبراهيم سبيلا إلى إعفائه مما قيل إنه وقع فيه ، وأن تسهم مع المفسرين فيما أرادوا لإبراهيم من تنزيه عن الكذب الذي قيل إنه اضطر إليه فال عنه إلى التعريض .

فغير بعيد أن كان إبراهيم عليه السلام يعرف اللغة المصرية القديمة ويعبر بلسانها ، أو أنه على الأقل ، بن لا أكاد أشك ، أنه قد كان يعرف منها بحكم انتشارها في بلاده كما قدمنا طائفة من عبارات وألفاظ تعينه على شئونه في مصر حين أقبل عليها . لذلك فلم يكذب إبراهيم ولم يخرج على مألوف المصريين فيما كانوا به يتحدثون . فلقد كانوا يطلقون على الزوجة في لغتهم - فضلا عن لفظ المرأة حمة و « سة حمة » (أو هيمة وسهيمة) - لفظ الأخت « سونة »^(١) ، وكان ذلك نوعاً من التعبير عن المحبة والإعزاز . وما ندري لعل إبراهيم حين أقبل على مصر فالتقى الناس من آل فرعون وملكه قد أثر التورانية والتعريض فوصف زوجته سارة على مألوفهم بأنها « سونة » بمعنى الزوجة أو الأخت ، حيث وقع أو أوقع في روع المصريين بملكته

(١) تشبه اللفظ العربي « صنو » .

الأجنبية : وما عسى أن رأوا من معامنته لسارة أنه إنما قصد إلى المعنى الأصل للفظ الأخت لا إلى المعنى المجازي له : ولعله قال لسارة فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك فإن سألك فأجيبه
 أنك لى "سونة" أو "سونى" » .

عدل المصريين وتقديس الحرمات

وظاهر من سياق الرواية أن إبراهيم لم يكن مضطراً — لو عرف المصريين بحق — إلى الخوف على امرأته ونفسه من بطش الملك . فلقد كان الملك ، كما فعل من بعد ، خبيراً أن يحترم حرمة الزوجة لو كان أخبر بذلك من قبل ، فلقد كان المصريون يقدرون الحرمات ويقدسونها ويرعونها أشد الرعاية ويبجلونها أعظم تبجيل .

فلم يكذ فرعون يتبين مكان سارة من إبراهيم حتى ردها إليه معتذراً عما أوْشك أن يفرط عن غير علم منه محتجاً على ما أبلغ إليه من خبر مكذوب أو مدخول ، متفضلاً بما أهدى إليها من جارية هى هاجر أو هاجر إن شئنا أن نطلق باسمها المصرى بغير تصحيف ولا تحريف . وقد كان فراعين مصر من ذلك العصر يحبون فى ظل مبادئ من الحق والعدل فرضها المجتمع المصرى يومئذ للناس أجمعين ، وحرصوا هم على أن يتمتع بها الصغير مقاماً والكبير منصباً ، فلا فضل لشريف على غيره لشرفه ولا لعتى على فقير لغناه ، بل لا فضل لحاكم على محكوم بحق ادعاه ، وتعلمهم بما اتخذوا لأنفسهم من الأسماء والألقاب إنما كانوا يعلنون للناس ويلزمون أنفسهم بما دلت عليه ألقابهم تلك من المعانى والمثل العليا ، فقد اتخذ أمنمحات الأول رأس الأسرة لقب « المولد المتكرر » أو النهضة كأنما كان يدل على ما فى ضميره من حرص على أنه بعنده إنما يبدأ عهداً جديداً يعيد به إلى مصر مجدها القديم . وحرص أخلافه على أن تشمل ألقابهم التى يتخذون معنى العدل والحق

والمساواة والقانون وهي المعاني التي يشتمل عليها كلها لنظـر « ماعت » المصري
فأخذ أمنمحات الثاني لقباً يعنى السعيد بالعدل وعادل الصوت : وتسمى
سنوسرت الثاني « مظهر العدل » ، وأمنمحات الثالث « العدل لرع » ، وأمنمحات
الرابع « عادل الصوت رع » . وفيما بلغنا من آثارهم الأدبية شواهد
ممتعة ومثل رائعة بما استطاع هؤلاء القوم إرساءه من قواعد الحق والعدل
والمساواة : وما أقاموا من معاني الخير والبر والإحسان . فقد ذاعت أيام تلك
الدولة قصة نعرفها اليوم بعنوان : « قصة القروى الفصيح » وهو الذى تعرض
لظلم حاكم الإقليم بغضبه حميراً له . ولكن بطل القصة أبى ورفض الاستسلام
فطلق يشكو ويحار بالدعاء حتى بلغت شكواه مسامع الملك أمنمحات
الثانى فأنصفه وأكرمه . وقد استهدفت القصة فيما استهدفت الإعلاء من
كلمة الحق والعدل ، وما ينبغى أن يكون عليه من السيادة والقوة التى تشمل
صاحب السلطان الذى يتسلط على الناس ، كما تشمل العاقل من السلطان
الذى لا يتسلط على أحد من الناس ، بحيث يكون الناس جميعاً سواسية
أمام القانون . وقد قدمت هذه القصة فى ختامها دليلاً على رعاية العدل
والانتصاف من الظالم للمظلوم : ودلت على مجتمع يستطيع فيه القروى
المسكين الدفاع عن حقه والمثابرة عليه والإحاح فى طلب الانتصاف من
ظالمه ، مبيته عن شجاعة فى الطب وجرأة فى مخاطبة الحاكم بل
تعنيفه بدون خوف أو وجل من أذاه ، وذلك فضلاً عما اشتملت عليه
من نقد لاذع ونبس لما فى المجتمع من العلل والعيوب ، فلقد خرج
القروى عن أمر المطالبة بحميره إلى الحديث عن جشع كبار الموظفين
وانحراف القضاة وفساد الذمم ، وتستر الخواكم عليهم واشتراكه معهم فيما
ينهبون ، فكان القصة تعلم للناس حقوقهم فى العدل والمساواة وفى
حرية الكلمة والتعبير ، وواجب الشجاعة فى إبلاغها . وفضلاً عن ذلك فقد
شاء الكاتب على لسان القروى أن ييسط للناس مكارم الأخلاق وفضل
الحياة الصالحة النقية وما شاع فى عصره من زهد فى الدنيا وزخرفها فإن

الآخرة خير وأبقى ، وماذا عسى أن يجنى الحاكم أو غيره من المال على سوء
الخلق وفساد الضمير وأكل السحت وقول الزور ، ومن ورائه حساب ينتظره
يوم تجزى كل نفس ما عملت ، وحسبه إبريق من جعة ورغفان ثلاثة ،
وذلك لأن العدل باقى خالد وهو يتزل مع من يقيمه كما قال ، وكما قيل من
قبل للملك مريكارع « بأن فضيلة من يؤثر العدل والحق أحب (عند
الرب) من الثور الذى يقدم قرباناً ، وهو المثل الذى انتقل إلى التوراة فى
أمثال سليمان (٢١ : ٣) فى قوله : « فعل العدل والحق أفضل عند الرب
من الذبيحة » ، كذلك فلم يعتمد ملوك هذه الأسرة إلى إثارة أنفسهم بالأضحية
الفخمة والأهرام الضخمة ، بل آثروا إنشاءها من اللبن وتوجيه جهودهم
إلى رفاهية الشعب وسعادة الرعية ، وأن كانوا قد نشأوا من ضية ووجهوا بحكم
تلك النشأة بعض عنايتهم إليها ، فلقد نقلوا عاصمة ملكهم إلى مدخل
الفيوم فى مكان يقال اليوم اللشت غير بعيد من واسط الأرض منف .
هناك أقاموا فى تلك البقعة الشاسعة الحصينة من أرض مصر من مشروعات
الرى الهائلة ما غمر خيره البلاد والعباد ، حيث أنشأوا عند مدخل ذلك
المنخفض سدًا هائلًا خلقوا به خزانًا ضخماً يدخرون فيه مياه الفيض
الذى تتحدز على مصر أمواها : فما تلبث أن تنصب وتزول فى البحر هباء ،
وكانوا أن أضافوا إلى حقول مصر زهاء سبعة وعشرين ألف فدان من أرض
تررع عند الفيوم ، كانت من غير شك مصدرًا من مصادر الرفاهية فى
بلد تعتمد رفاهيته على الزراعة والرى . ولقد كان ادخار ماء النيل والحكمة
فى الاستفادة منه إنما يقتضى علمًا واعيًا بمواقيت فيضه ومناسيب دفته : وكان
فراعين هذه الأسرة حكماء ، اتبعوا فى ذلك سبيل الحكمة والتدبير ،
فكان لهم فى أقصى الجنوب عند الشلال الثانى رجال يرقبون المناسيب على
الصخور ، فإذا ما أبلغ ولى الأمر بما يرون من « نيل منخفض » أو « مبكر
أو متأخر » اتخذ ما يضمن الإنتاج الأكبر وتجنيب البلاد ما عسى أن
تعرض له من أخطار . وكذلك فقد استغل ملوك هذه الأسرة مناجم سيناء

استغلالاً طيباً ، ثم أولوا بعد ذلك التجارة الخارجية جهد استطاعتهم من
الوشائج المثينة والأمن والسلام : حيث تمتعت مصر — كما قدمنا — بنفوذ
سياسي ومركز تجاري وسلطان ثقافي متين في غرب آسيا بنوع خاص ،
فلا جرم يشخر أمنمحات الأول بألا جائع في عهده ، ولا جرم تكون مصر
قبة لطلاب الرزق والعلم حيث تقدم لهم ما يشاءون من غذاء البدن والروح
جميعاً .

ولم يصل هذا الشعب إلى ما وصل إليه من ذلك ، إلا بعد كفاح اجتماعي
وصراع طويل امتد من تاريخ مصر أجيالاً منذ الدولة القديمة أواخر الأسرة
الرابعة في القرن السابع والعشرين من قبل مولد المسيح ، حتى مطلع الدولة
الوسطى في القرن العشرين . صراع ركب السياسة وركبته السياسة فأدبل
فيه من حكومة إلى حكومة ومن دين إلى دين ، ثم عجز عجاجه واصلحهم
عبابه بستموط الدولة القديمة في أعقاب الأسرة السادسة بالعنف والهدم وسفك
الدماء ، وذلك في أول ثورة اجتماعية عرفها التاريخ .

كان الملك في عيون المصريين الأقدمين منذ مطلع الصباح من تاريخهم
إنما يحكم البلاد باسم إلههم حور ، ولقد بدأ سلطان الملكية وسطوتها
منذ مشرق الدولة القديمة فيما أنشأ الملوك لأنفسهم من أبنية كالجبال اتخذوها
قبوراً وأضرحة تستقر فيها جثثهم بعد الموت ، وفيما جندوا وحبسوا لتلك
المنشآت الباذخة من الأموال والعمال والكهان ، ولنا فيما نشهد من أهرام
زوسر وسنفر وخنوف وخنرع دليل ناطق وبرهان مبين . ثم كان أن طفق
سلطان الملوك انعازم ينحسر عن النفوس وبأسهم يتقلص في العيون ، واهترت
هيبة الملكية أواخر الأسرة الرابعة منذ طفق كهان الشمس يبشرون بدينهم
ويدعون لدولتهم التي يقبض زمامها — فيما روي — ملوك زعموا أنهم يولدون
لإله الشمس من امرأة من الشعب يقال لها رد جدت .

ثم كان خليقاً بملوك الأسرة الخامسة أن يسيروا في الناس سيرة تتفق
وما كسبوا من تأييدهم في الوصول إلى الملك ، فبذلوا الأموال والمناصب عن

سقاء لأهل الطبقة العليا — فضلاً عن كهان الشمس — حرصاً على استبقاء ولائهم وتأبيدهم ، بل زادوا ففتحوا لهم سبيل المصاهرة بزواجهم وبتزويجهم منهم ، ففتحوا للناس بذلك سبيل الإحساس بكيانهم وسبيل الإيمان بالمساواة ، ولم يكن قليلاً ولا هيناً يومئذ أن يعتذر ملك لرجل من رجاله ، فلا يتخرج نفراً يركارع ، وقد أصابت عصاه ساق « رع ور » ، من أن يعتذر له ويعلن أن « رع ور » أحب الناس إليه وآثرهم عنده ، بل لم يكتف بذلك فأذن للرجل بتسجيل تلك الواقعة وذلك الاعتذار في قبره لتقرأها الأجيال من بعدهما ، ولتقرأها ثم نوردها في هذا الكتاب ، كما ترد في كتب أخرى بعد نيف وأربعين قرناً من الزمان .

ولئن ظل الملوك من أخلاف الأسرة الرابعة ينشئون الأهرام أضرحه لهم ، فلقد بدا واضحاً صغر حجمها وضعف بنائها وتواضع مظهرها بالنسبة إلى أهرام أسلافهم ، ولا شك أن ذلك إنما يترجم عن قلة في الموارد وانحسار في النفوذ وانصراف الناس إن لم يكن كفرهم بحق الملك في استنزاف أموال البلاد من أجل ضريح له وحده دون سواه ، حيث طفقت أفكار الناس تتحول عن المادية وسيلة إلى السعادة في الدار الآخرة. وزاداً لها ، إلى أفكار أخرى تؤمن بالتقوى وصالح الأعمال . ولم يعد مصير الإله أوزيريس — رب الموتى — حقاً للملك وحده ، بل شاركه في ذلك الأشراف أولاً ، ثم لم يلبث العامة أن دخلوا معهم وشاركوهم في ذلك المصير .

ولم يكن « بيبى » الثانى آخر ملوك الأسرة السادسة بالرجل القوى الحازم الذى « يقبض » زمام الأمور ، ولا كان بالملك الذى يحفظ بسلوكه للعرش هيئته ، ثم كان لشيخوخته الطويلة — إذ بلغ المائة — الأثر الحاسم في انقضاص صرح الدولة وانحسار نفوذها ، حيث اضطرب الأمن واضطربت في البلاد ثورة فكرية اجتماعية لم تعرفها منذ اتحادها على يد نعرمر ، فترعرعت عقائد واهتزت مثل وقيم قنسها المصريون من قبل ، فانهارت في عيونهم قيمة القصور المنيفة والمقابر الضخام ، فكان أن انطلقت الألسنة المعقولة ونطقت

الأفواه المكسوة ، وذلك فيما صور لنا حكيم ذلك الزمان ايهور ، الذي اقتحم على الملك مكبته التي أخذ إليها واستنام لها ، فطفق يصف في أسنوب رائع حزين حال البلاد وما تردت فيه من اضطراب وإفلاس ، وما حل بالناس من محن وخطوب ، فذل العزيز وعز الدليل . ولقد تمثلت الثورة فيما وصف ايهور بعدوان الناس على الناس وأملاك الناس ، بل بعدوان من يفترض فيهم صون الأمن على الأمن ، وبسوء استخدام المسلحين لأسلحتهم وإضراب العاملين عن العمل ، وبالعباء للأغنياء والشهانة فيهم بما أصابهم من إدبار الزمان واختلال موازين الثراء ، حيث أترى انفقير وأملق الغنى ، وبتدمير المنشآت وتدهور الاقتصاد والصحة العامة ، وعجز الناس عن دفن موتاهم فإذا بهم يلتقون بهم في النيل حتى صار مدفناً كما قال . بل لقد بلغ النبؤس والشقاء بهم مبلغاً حملهم على التخلص من الحياة بالانتحار ، فإذا البلاد من ذلك كله في حالة من الركود والانحلال أطمعت فيها البدو فتزحوا إليها لا يحدون من يردهم ويدافع عن مصر ، فانتشروا في الدلتا زرافات وأفواجاً . . .

ولذلك فلم يكن إبراهيم عليه السلام ليأتى إلى مصر في ذلك الزمان ، فإن هذه الأحوال التي نستطيع اتخاذها - فضلاً عن حساب السنين من قرائن التحديد لعصره - لمانعة رجلا مثله أن يهجر جوعاً إلى جوع وإملاقاً إلى إملاق ، بل يهجر آمناً وإملاقاً إلى اضطراب وإملاق .

تطور الفكر المصرى الذى شهده إبراهيم

ومهما يكن من شىء ، فلقد نتج عن تلك المحن التي نزلت بالبلاد كثير من التأملات والأفكار ، فمن الناس من اهتم يقينه بالدين على عمق يقين الناس بالدين ، فأنكر الإله واستخف بالآخرة والحساب ، فمنهم من قال فيما روى ايهور : « لو أنى عرفت أين الإله لقدمت إليه القربان » ، أو كما زف الجونك الذى حض الناس على المملذات واقتناص المسرات ، « فإن

أحداً ممن قضى نحبه لم يعد ليحدثنا بما وقع له .

على أن منهم من لم يرض عما آل إليه حال البلاد ولا هو سكت عما نزل بها من الكوارث والمحن ، فانطلقت الأفواه والأقلام بما أتيج ذا من التعبير عن الشوق إلى العدل وعودة البلاد إلى النظام والأمن ، وذاعت في الناس فضلاً عن ذلك الكهانات التي تبشر بالمخاض المنتظر الذي يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، وتسامع الناس بظهور « ابن الإنسان » الذي يقبل البلاد من عثرتها وينقذها من محنتها . فكأن الناس ، بما أشاعوا من ذلك قد وضعوا أسس الحكم وقرروا الشرائط التي تسوخ للحاكم حكمه والدستور الذي يقيم عليه الملك ملكه . ثم ما لبثت تلك الأفكار أن تبلورت نصوصاً مكتوبة فيما صدر من نصائح جرت على لسان « ختي » أحد ملوك أهناسيا من ذلك العصر إلى ابنه « مريكارغ » ، حيث بسط أصول الحكم الصالح وأعباء الحاكم الرشيد ، وشرح حق الرعية عليه وواجبه نحوها .

وقد كانت الأئمة يومئذ قد تحولت إلى معان جديدة وبنادى جليلة فغلبت فيها على المادة الروح ، إذ رأت السعادة في صالح الأعمال وفيما يكتسب المرء من الفضائل ، فأشادت الأقلام بالنظام والعدالة وبشرت بأن الخلود لا تسوغه رجاجة أو ثراء وإنما سبيله اجتناب الآثام وفعل الخيرات . وهي بهذا قد أرهقت بما علم الأنبياء . وأعدت الناس لما يبعثون به كافة للناس من رسالة ودين ، بل نطقت بما ثبته الأنبياء بعد عصرها بلفظه ومعناه .

ولا شك أن إبراهيم قد أفاد مما رأى وسمع ، حيث طفق يتأمل ويسائل نفسه فيما شهد من سيرة الناس وليتبين الهدى فيما يعبدون من نجم وقمر وشمس .

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من المؤمنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن

لم يهتدي ربي لأكون من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال
 هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون . إني
 وجئت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين «
 (الأنعام ٧٥ - ٧٩)

۳

یوسف

« لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين » .

كان دخول يوسف مصر على المشهور أيام احتلال الهكسوس مصر . وقد كانوا قومًا آسيويين ساميين أو تغلب فيهم العناصر السامية من سوريا وفلسطين . دخلوا مصر أواخر الأسرة الرابعة عشرة غزاة فاتحين يغريهم ضعف البلاد السياسي وتغريهم ثروتها وخصب أرضها ، وتدفعهم من مواطنهم في ذلك العصر ظروف طبيعية صعبة ساد فيها الجفاف وصوح الزرع وقلت الموارد ، وحل القحط الذي بلغ ذروته ثم امتد حتى شمل مصر في أعقاب مجيء يوسف بسنين .

ولقد ترك فتح الهكسوس مصر أثرًا لا يمحى في نفوس المصريين . تحدث عنه المؤرخ المصري « مانيتون » فيما روى عنه مؤرخ اليهود يوسف ، فيقول : « وكان هناك ملك لنا يدعى « تياوس » وقع في عهده - لا أدري كيف - أن غضب الله علينا فجاء على حين غفلة قوم من أصل وضيع من ربوع الشرق ، كان فيهم من الجرأة أن حملوا على بلادنا وبسهولة أخضعوها بالقوة ، وإن كان ذلك بغير الالتحام في معركة معهم ، فلما أخذوا حكامنا تحت سلطانهم عمدوا بعد ذلك فأحرقوا مدننا ونقضوا معابد الآلهة واستغلوا الناس استغلالًا وحشيًا ، إذ قتلوا بعضهم وساقوا أبناءهم وأزواجهم أسرى » .

وتحدثت « حاتشبسوت » من بعد انحسار دولتهم وانقضاء زمانهم بنيف وسبعين عامًا تشير إلى ما أوقعوا بمصر بقولها :

« لقد أصلحت الخراب وأتممت ما كان ناقصًا قبل مجيء الآسيويين إلى هوارة في الأرض الشمالية ، وكان بينهم يومئذ من البرابرة من وجهوا

جندهم إلى تخريب العمائر جهلاً منهم بوجوده .

ثم لم تلبث حياة الاستقرار أن جذبت الهكسوس فأخذوا إلى ما وجدوا من المدنية والحضارة المترفة التي أتاحها الحياة المصرية إذ ذاك . فأتخذ ملوكهم ألقاب الملوك المصريين والمتهم وأطرافاً من حضارتهم ؛ وتسموا ببعض أسمائهم ، واتبعوا فيما بعد نوعاً من التعايش السلمى مع عواهل مصر وأمرائها الوطنيين في أقصى الصعيد . ولقد صورت لنا ذلك وثيقة بردية تحدثت يومئذ عن ملك طيبة (كاموسى) أنه لما عزم على إجلاء الهكسوس واستئناف القتال معهم قال : « وددت لو أعلم فائدة قوتى ، وفي هواره أمير وفي الذوبة آخر . يننى لأجلس هنا بين آسيوى ونوبى ، حيث يقبض كل منهما جزءاً من مصر ويشركنى الأرض ، إننى لن أتركه . . . انظروا إنه يحتل خمونو (الأشمونين) » : فقال بعض جلسائه من الأشراف : « أجل ، لكن كان الهكسوس قد أدركوا القوصية وأخرجوا لنا جميعاً ألسنتهم فما زلنا نملك نصيبنا من مصر هاتين ، فالفاتنين قوية والأرض الوسطى معنا حتى القوصية ، وأحسن حقوقها تحرث من أجلاً وثيراننا ترعى في الشمال والحبوب ترسل إلى خنازيرنا ولن تؤخذ منا ثيراننا » .

ومهما يكن من شيء . فقد اتخذ الهكسوس عاصمة ملكهم في شرق الدلتا في مدينة حوت وعرت (هواره) حيث فتحو أبواب مصر الشرقية لهجرة العناصر السامية والكنعانية من بنى جلدتهم فدخلوها أفواجاً لا يصدون عنها ، وكان منهم من غير شك الرعاة الذين أقبلوا على مصر يطلبون الحياة السهلة والإقامة الناعمة والمرعى الغزير ، ولعل ذلك ما حدا بالمؤرخ المصرى « مانيتون » إلى تفسير اسم الهكسوس بملوك الرعاة .

وفي هذا الزمان الذى أضل مصر ، أقبل يوسف عليها . وكان ملوك الهكسوس من غير شك قد أدخلوا بعض المصريين من أهل الدلتا المحتلة في خدمتهم واتحلوا بعض عادات المصريين وبعض أسمائهم ، وربما دل على ذلك اسم العزيز الذى اشترى يوسف وأدخله في خدمته « فوطيفار » .

وهو اسم مصرى مصحوف عن « پادى پارع » بمعنى عطية رع .

• • •

« لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكل وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » .
(يوسف ٧ - ٩)

بدأت قصة يوسف بالحقد الذى ثار فى نفوس إخوته لما رأوا من حب أبيه إياه وإيثاره عليهم ، فاجتمعوا على النيل منه وتآمروا على المباعدة بينه وبين أبيه ، أو فليكن قتله حلاً لحب يفقدونه فى أبيهم وضغن استقر فى نفوسهم لا يكاد يريم . ومع ذلك فقد كانت للقتل بشاعة ترهق نفوس الإخوة وتردها عن اقترافه والتورط فيه واحتماله ، فليئصرافوا عن قتل أخيهم وليؤثروا المباعدة بينه وبين أبيه بإلقائه فى البئر حيث يتقى ما قدر عليه من مصير لا يستأنى منه الموت .

« قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الحب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين »

(يوسف ١٠)

وقد قدر ليوسف أن يدخل مصر عن هذا الطريق . إذ استأذن إخوته أباهم يعقوب فى اصطحابه إلى حيث يرتعون ويلعبون زاعمين .
« قالوا يا أبانا مالك لا تأمننا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » (١٢) .

وظاهر أنهم كانوا تقدموا إلى أبيهم من قبل فى اصطحابه والخروج به فأظهر الخوف عليه والشك فيهم ، وقد كان يعلم أن فى نفوسهم وقلوبهم ذنباً ضارياً يترصد به ريب المنون .

« قال إني ليحزنى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » (١٣) .

« فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه
لتنبأهم بأمهم هذا وهم لا يشعرون . . . (١٥)

« وجاءت سيارة فآرسنوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام
وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة
وكانوا فيه من الزاهدين (٢٠)

ولقد حمل يوسف إلى مصر حيث كانت تجارة الرقيق من البنين
والبنات الآسيويين تلقى يؤمئذ من الرواج ما يدل عليه مما كشفت عنه
بردية في متحف بروكلين بنور يورك الآن (١). فقد جاء فيها ذكر
ما يربو على أربعين آسيوياً من ليف وثمانين كانوا يعملون خدماً في
بيت واحد في عصر الأسرة الثالثة عشرة قبيل مجيء الهكسوس . ولم يكن
من سبيل بحكم ما هو معروف من تاريخ تلك الفترة وأحوال مصر المتواضعة
أن يكون هؤلاء مع إخوان لهم في بيوت أخرى ، من أسرى الحروب في زمان لم
تقع فيه حروب .

بيع يوسف إذن في مصر لعزير مصر « فوطيفارع » ، حيث أنزله
منزلاً طيباً بيته وأوصى به امرأته .

« وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا
أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل
الأحاديث والله غائب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ
أشدّه آتيناها حكماً وعِلْماً ، وكذلك نجزي المحسنين »

(٢١ - ٢٢)

على أن الأيام لم تشأ أن تصفو ليوسف على طول المدى ، فقد أقام في
بيت العزيز مكرماً متمتعاً بثقة سيده الذي عهد إليه بشئون بيته وماله ،

Pritchard, op., cit, p. 553;

(١)

William C. Hayes, A Papyrus of the Late Middle Kingdom
in the Brooklyn Museum (Brooklyn Museum 1955).

ولكنه كان في أثناء ذلك ينمو ويتفجر جسده بالقوة الناصجة والشباب الزاخر ، فيروق امرأة العزيز .

« وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألقيا سيدها لدى الباب »

(٢٣ - ٢٥)

هنالك ادعت عليه السوء ورمته بالعدوان واتهمته عند زوجها بالخيانة والغدر واستعدته عليه وطالبت بتعذيبه وسجنه .

« قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » (٢٥) .

فما كان من الزوج حين دفع يوسف عن نفسه التهمة عليها حين « قال هي راودتني عن نفسي » إلا أن يحقق قولهما .

« وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو الكاذب . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر » ، وتحقق من كذب امرأته وخيانتها ولاح نصب عينيه شبح الفضيحة والذل : « قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

(يوسف ٢٨ - ٢٩)

غير أن أنباء الفضيحة سرعان ما ترمى إلى الناس ، وطلق النساء خاصة يتحدثن بسقطة امرأة العزيز ويتناقلنها بينهن .

« وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنهاها في ضلال مبين » (٣٠) .

وأي ضلال أشد ومصيبة أنكى من أن تراود سيده من نساء الحكام

عبداً لها وفتى من خدمها يصغرهما سنّاً ومترلة ومكانة إن كان له أو مثله في المجتمع مكانة . ولكنها مع ذلك قد كانت تتلمس لنفسها العذر فيه ، وترى ألا قريب لها ولا لامرأة تراه بغير ما فعلت .

« فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكريناً ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً ، إن هذا إلا مَلَائِكُ كَرِيمٌ . قالت فذلكم الذى لمُنّينى فيه ، ولقد راودتُهُ عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره لیسجننّ ولیکوننّ من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلیّ مما بدعوننی إلیه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم . » (يوسف ٣١ - ٣٤)

فقد تحولت الأمور إذن إلى صراع بين المرأة والفتى ودخلت كما يقال في دور من العناد والمغالبة غريب . هى بشها لكها الذى انكشف عن تبجح ساخر وكبر خائر ، وهو بإصراره الذى لا سبيل له إلا إلى المضي فيما بدأ وأعلن للناس . ولكنه مع ذلك لم ينج منهم ومن كيدهن وتحالفت عليه قوى البغى فكان لمن من السلطان على أزواجهن ما حجب الحق الأبلج وأساء إلى الخلق المتين .

« ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتى حين . »

• • •

صورة دقيقة لمجتمع فاسد آثم ، تصور ما كان عليه مجتمع الدخلاء من حكام المكسوس في مصر من فساد وانحلال ، ولو لم يكن لدينا عن مصر في ذلك الزمان سوى تلك القصة لاتخذناها وحدها دليلاً على مجتمع يسوده الأجانب والغرباء ، ولنفيهاها عن المصريين ونسبناها إلى ذلك المجتمع الأجنبي مطمئين ، لأنها إنما تخالف عن طبيعة الأشياء في مصر وتخرج عن سليقة المصرى بما زكب فيه من الأنفة والحمية والكرامة والكبرياء ،

ولو قد نظرنا - كما قدمنا - إلى بعض قصص التوراة لوجدنا قصتنا هذه أشبه بقصصها وأدنى إلى مجتمعيها ، على حين تنبو عن مجتمع المصريين الأصيل وتخالف تقاليدهم وأذواقهم خلافاً كل خلاف . فما كان لمصرى أن يحتمل أو يسكت كما أراد يعقوب وقد تعرضت ابنته دينة لاغتصاب شكيم ابن حمور . (تكوين ٣٤ : ١ - ٣٠) أو يصبر عن مثل ما روى عن بكر بنى إسرائيل راعويين إذ : « ذهب واضطجع مع بلهة سرية أبيه وسمع إسرائيل » (تكوين ٣٥ : ٢١) . ولا كان المجتمع المصرى ليطبق ما فعل داود مع أوريا وزوجه كما قدمنا ، ولا ما اقترف ابنه أمنون بن داود وقد احتال حتى اغتصب أخته ثامار بنت أبيه داود اغتصاباً (صموئيل الثانى ١٣ : ١ - ٢١) فلقد كان المجتمع المصرى القديم مجتمع التقوى ومكارم الأخلاق ، وكان حكمه على مثل تلك الجرائم عنيفاً قاسياً ، فلم يكن المصرى ليقبل فى الحياة والحنا هوادة ولا ليناً ، وكان « اسم الزوجة حين تتهم بالإفك عند زوجها » مضرب المثل فى البشاعة والمقت كما ورد فى قصيدة المصرى الذى كره الحياة وحدث نفسه بالانتحار وانحدرت إلينا بالحظ الهيرطى من عصر الدولة الوسطى على بردية يحفظها اليوم متحف برلين ^(١) .

قصص المصريين وآدابهم مرآة لحلقهم القويم

ومما يروى من قصص المصريين ما يصور مثلهم العليا التى كانوا بها يستمسكون ، ويصور ما تغفل منها فى حياتهم وأحاديثهم ولو جرت للتسلية وإزجاء الفراغ . روى عن نخوفو صاحب الهرم الأكبر فى بردية وستكار ^(٢) أنه جلس يوماً وحوله الأمراء من بنيه يتحدثون إليه ويسمرون

A. Erman, Gespräch eines Lebensmüden mit Seiner (١) Seele (1896).

A. Erman, Die Märchen des Papyrus Westcar (1890) (٢)

1, 20-4, 10; G. Lefebvre, Romans et Contes Egyptiens de l'Epoque Pharaonique (Paris 1949), p. 70 - 77.

معه ، فحدثه « خضرع » من عهد سلف له من الملوك عن كاهن من حاشيته المقربين يدعى أوبا أونر ، كانت زوجته تعلقت بفتى من أهل المدينة كان ينسل إلى قصر ذلك الكاهن لينفق معها - في غياب زوجها - سحابة النهار في كوخ منعزل في حديقة انقصر عند البحيرة فيها . حيث ينزل الفتى ليغتسل في أعقاب خلوته . على أن ناظر الحديقة ، وقد سدرت المرأة في غيها ومضت في ضلالها زمناً ، قد عمد فتى بخبرها إلى زوجها ، الذى صنع من التمتع كهنة التمساح فألقاه في البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر ما حوله إلى تمساح مفترس عظيم ، فلما نزل الفتى إلى الماء قبض التمساح عليه ونزل به إلى الماء . ثم تحدث الكاهن بخبر زوجته الحاطنة إلى الملك ودعاه إلى بيته ليشهد العشيق الشاب بين فكى التمساح ، هنالك وقف الملك على حافة البحيرة مع الكاهن الذى نادى التمساح فخرج إليهما بفريسته ، وأمره الملك - وقد فرغ من منظره - أن « خذ مالك » فنزل به التمساح إلى الماء « ولم يعرف له أحد بعد ذلك من مصير » ثم طلبت الزوجة الحائرة بخيانتها فاقبذت إلى ساحة شمالى القصر حيث أحرقت علناً وألقى رمادها في النهر ، وذلك عقاب الزانية المحصنة في ذلك الزمان .

وثمة قصة أخرى من قصص المصريين بدأ حرصهم فيها على رفع سلطان العدل وحرمة الأخلاق ، إذ انحدرت إلينا على بردية استقرت اليوم في المتحف البريطانى باسم بردية « تسستر بيتى » الثانية^(١) . قصة بطلها الحق والباطل ورد فيها أن أخق كان له ولد من زواج لم يشهر للناس ، فلما أرسل إلى المدرسة سمع من أترابه غمزاً في نسبه وتساؤلاً عن أبيه المجهول ، فعاد الولد إلى أمه يسألها عن أبيه قال : « ما اسم أبى حتى أخبر به زملائي فإنهم يقولون في خبث أين أبوك . كذلك يقولون ويؤثنونى » . ولقد أوجب

Hieratic Papyri in the British Museum, 3rd series, Vol. I, (١)

p. 2 - 6 & Vol. II, pls 1 - 4 (London 1935); Lefebvre, op. cit.,

p. 159 - 168.

الولد - مع صغر سنه - على أمه الموت حين أوشك أن يتهمها ويظن بها انظنون ، وحكم بما تستنتج أنه عرف المصريين يومئذ وتقاليدهم ، بأن يدعى رجال أسرتها ليجبهوها بذنبها ويلقوا بها إلى الهلاك في النهر إلى تمساح يفرسها جزاء وفاقاً لما اقترفت . وفي ذلك حكم من المجتمع المصرى شاء مصنف القصة أن يجرى به لسان صبي عبي من كانت له الردء والسند والحنان ؛ حكم يصدر من ولد على أمه إعلاء لما لا يجاوز ولا يعلوه شيء من دعائم الفضيلة والأخلاق ، ولا شفيح عنده في ذلك ولو كان البر بالأمهات . ولقد حفظت لنا فضلاً عن ذلك قصة كانت أقرب شبهاً بقصة يوسف وإن خالفتها في موقف الزوج المخدوع . تلك هي قصة الأخوين التي يحفظها المتحف البريطاني على ما يسمى بـ *يردية دور بينى* ^(١) . وهي تجرى - كما شاء لنا المصنف - في ريف مصر حيث الزراعة عماد الحياة ، وحيث النظام الاجتماعي الذي يوجب على الأخ الأكبر القوامة على أخيه اليتيم ، فيضمه - كما فعل العزيز - في بيته بينه وبين زوجته ، حيث كانا له بمثابة الأب والأم . والرجل يعتمد في ذلك على ما ساد المجتمع يومئذ من إخلاص الزوجة وأمانة الأخ وعرفانه ، ثم لا عاصم أو رقيب بعد ذلك إلا الفطرة السليمة والخلق القويم ؛ وقد مضت القصة فروت أن الأيام قد تتابع على الأخ الصغير ، وهو يشب وينمو ويتفجر جسده بشباب ناضج وقوة عارمة ؛ وتنظر الزوجة إلى سلفها فيعجبها شبابه القائر العنيف فتراوده عن نفسه - كما فعلت امرأة العزيز - غير أن الثقي يغضب لما تردت فيه زوج أخيه التي كانت له - كما قال لنا - بمثابة الأم ، من الحياة والإسفاف ؛ وينتهرها انتهاراً عنيفاً ، ولكنه يعدها بكتمان أمرها عن أخيه الذي قام منه بمنزلة الأب . على أنها تخشى علم زوجها بما وقع منها فتبيت في نفسها أمراً .

Möller, *Älterische Lesestücke II* (Leipzig 1927) pl. (١)

1 - 20; Gardiner, *Late Egyptian Stories* (Bruxelles 1932), p. 9 - 26;

Lefebvre, *op. cit.*, p. 137 - 158.

فإذا عاد زوجها إلى البيت مع المساء أتى البيت مظلماً وألفها راقدة تنأوه من مرض وألم مزعوم ، فلم تنهض لاستقباله أو إنارة البيت وصب الماء له . ثم زعمت له حين سألها أنها تعرضت من أخيه بعد أن راودها عن نفسها للعدوان ومحاولة الغصب ثم الضرب . وإذا بالأخ الأكبر يشور ثورة هائلة كأنه القهيد الضاري ويشحذ خنجره ليفتك بأخيه ، ثم طفق يطارده حتى كاد أن يدركه لولا أن حال بينهما نهر غاص بالمسيح فوقفا على ضفتيه يتحدثان . واستطاع الفتى أن يشرح لأخيه الحق ويبرئ نفسه ، وإن كان قد أعلن إليه أنه لن يساكنه ولن يقيم في بلد هو فيها بعد اليوم ، ثم رحل عنه إلى وادي الأرز في لبنان . وعاد الأخ الأكبر حزينا كاسف البال إلى بيته ، حيث انتقم من زوجته بقتلها وإلقاء جثتها للكلاب ، وذلك أبشع صور الانتقام في نظر المصري القديم ، حيث الحرمان من الدفن والشعائر الجزية حرمان من الحياة الأخرى وقضاء بالفناء الأبدي الذي كان يفرق منه كل مصري ويخشاه على الجسد والروح جميعاً .

كان ذلك فعل الفلاح المصري - وبمعناه رأى المؤلف المصري والمجتمع المصري - حين تلقى النبأ بخيانة زوجته ، وشنان بينه وبين عزيز المكسوس حين تلقاه عن زوجته هادئاً وقد شهد شاهد من أهلها ، فما زاد على أن قال : « استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » . وقد كان من أمثلة المصريين السائرة ما يدل على مسئولية الرجل عن بيته ووجوب اليقظة لزوجته حتى يجنبها مواطن الزلل ، فإن زلت كان ذلك عن إهمال أو تراخ منه ، فكأنما وقع برغبته ورضاه إذ قالوا في أمثالهم : « إنما تنكح المرأة برغبة زوجها » وفي ذلك المثل من البشاعة والتعريض ما يشير الرجل - أي رجل - وينسبه على التحفز لكل شبهة تحوم من حول زوجته أو تبال من سمعتها وسمعته أجمعين ، ولذلك كانت قسوة العقوبة التي لم تأخذهم فيها شفقة أو رحمة

وحرصت عليها تعاليم عنخ شاشانكى (١) في قوله : « لا تقتل حية وتترك ذيلها » .
وفضلاً عن ذلك فقد كان المصرى أدنى إلى الطهر والتعفف بحكم ورعه
وتقواه وبحكم وثيق إيمانه بأن الجريمة لا تفلت بغير عقاب ، وأن الجزاء
عاجل من جنس العمل ، إذ رسخ في أعماقه من قبل المسيح ما قال المسيح
عليه السلام : « بالكيل الذى تكيلون به يكال لكم ويزاد » ، وعن تلك
العقيدة صدرت تعاليم عنخ شاشانكى في قوله : « من نكح زوجة على
سريرها نكحت زوجته على الظين » و « من نكح زوجة قتل على عتبة
دارها » (٢) .

ولم يكن المجتمع المصرى أيام الفراعنة - على كل حال - مجتمعاً من
الملائكة والأولياء الذين لا يقتفون إثمًا أو يرتكبون سوءاً ، ولن نعدم المارق
ولا الخارج فى مجتمع أنسى كان . ولكن الحديث إنما يعالج صبغة المجتمع
الغالبة وخصائصه البارزة وتقاليده السائدة وموقفه من المارقين . وشتان بين
مجتمع يرضى أو يتغاضى عن السوء ومجتمع يرفضه ويأباه ويعاقب عليه .
ومن شواهد الحفاظ على الفضيلة والحياة السوية ما كتبه رجل إلى زوجته
المتوفاة التى كانت فيما يبدو أسن منه قال :

لقد اتخذتلك زوجة حين كنت يافعاً

وظلمت معك وقد تقلدت وظائى

ظلمت معك ولم أبعدك ولم أحزن قلبك

فعلت ذلك وقد كنت شاباً أنقلد كل خطير من المناصب لفرعون دون

أن أبعدك

قائلاً لقد ظلمت معى (دائماً)

(١) Glanville, Catalogue of Demotic Papyri in the British Museum Vol. II. The Instructions of Onkshashanky (London 1955).

op. cit., p. 49, 53.

(٢)

فما وجدتني أهملتك بدخول منزلا آخر
 رفا مرضت . . . طلبت طبيباً ماهراً يمرضك
 ثم بكيتك مع أهلى
 وما قد أمضيت ثلاثة أعوام مقيماً (وحدى)
 لا أدخل بيتاً (أى لا يتزوج)
 برغم أنه لا يصح مثلى أن يفرض عليه ذلك (١)
 وإذا قال آنى لابنه وهو يعظه :
 احذر المرأة الغربية المجهولة فى بلدتها
 لا توجه إليها لحاظك ولا تقارف إثمًا معها
 إن البعيدة عن بعلمها لتقول دائماً لك إنى جميلة
 وفى غيبة الرقباء تنصدى لك بشبا كها
 ما أشدها من خطيئة تستحق الموت إذا المرء استجاب لها .

تلك دعائم المجتمع المصرى من رفض الزلل والحملة على السوء ، حيث
 قامت من نفس المصرى فى مواقع العقيدة التى أطمته القوة فيما حل به من
 ملومات وما نزل به من نرازل وخطوب ، فكانت له الذخيرة التى أخرجه من
 المحنة بعد المحنة واجتازت به النكسة بعد النكسة .

وحسبنا من دليل على أصالة نفسه ونبل مشاعره ما انتهى إلينا من فيض
 آثاره وآيات فنه على مدى الأجيال والقرون وتقلب الأحقاب والعصور ،
 فإذا بها على سمت من الجلال والوقار حتى لتكاد تخلو مما ينبو عن الذوق
 السليم أو يند عن الخلق القويم .

ولقد أقام المصرى تاريخه كله على رفض ما لا يستقيم مع خلقه والحملة
 عليه والتحذير منه ، حريصاً على ما وجد آباءه عليه من العادة والتقليد

Gardiner-Sethe, Egyptian Letters to the Dead (London. (١)

1928), p. 8 f.

عنا كافرين ، فكان استمساكه بذلك أماناً يقبله من محنته وقاءً يرده عن عثراته .

ونستطيع أن نبين هذه القيم الأخلاقية الرفيعة فيما تواتر إلينا من نصائح الآباء إلى الأبناء وما كانوا ينقشون في قبورهم من إشادة بصلاحهم في القول والعمل وبرهم بالناس واحترام حقوقهم ، وما ينبغي أن يتزود به الرجل من دنياه لأخراه من صالح الأعمال . وما من شك في أن المصريين منذ الدولة القديمة قد كانوا يؤمنون بالأجر والثوبة في الآخرة على ما قدم الإنسان في الدنيا من خير ، ويؤمنون بما سوف يتولاه « الإله العظيم » فيهم من الحساب أو « فصل الخطاب » على حد تعبيرهم . ولقد كان الوازع الديني وإيمان الناس بالحساب عميقاً في النفوس ، وكان المصريون في معاملاتهم بعضهم مع بعض يعتمدون في ضمان حقوقهم وسلامة أملاكهم وقبورهم على ذلك الوازع الخلقى والدينى ، وعلى استشعار الخوف من الحساب في الآخرة ؛ ولذلك فقد كان دينهم في القبور منذ الأسرة الرابعة تذكير الناس ممن تسول له نفس الاعتداء على القبر بذلك الحساب الذى سوف يتولاه العظيم فى مكان الحساب فى الآخرة . وبين لنا ما لهذا الإيمان من وازع فى النفوس ما حدث به « رمونكا » من الأسرة الرابعة عن ورعه وتقواه بأنه إنما امتنع عن أن يورث أحداً فيما يملك لأنه تذكر حساب الإله فى الآخرة .

وخلاصة البر الذى يؤهل الإنسان للحياة الرغدة فى الآخرة أن يكون طيب الذكر حسن الأعدوة بين الناس وأولى القربى بنوع خاص ، فيكون براً بأمه وأبيه ويظفر بحب إخوته وتكريم أقرانه وأصحابه وأن تظفر الزوجة بحب زوجها وتكرمه ، وأن يكون حلواً للثمائل يتحدث بالحق ولا يقول إلا طيباً ولا يردد إلا طيباً ولا يقول على أحد بسوء .

ثم بلغوا أقصى مراتب البر أن يرحموا الفقراء والمساكين ويرزقوهم من أموالهم فيطعمون الساعب ويكسون العارى ويتعهدون من يوافيه أجله ممن لا ولد له بالدفن والأكلان ، ويتصدقون بالعون والمساعدة على من قعدت به السبل عن

أن يكون له زورق يعبر به ، بل يحرص المرء على ألا يبيت أحد من الناس وهو غير راض .

وقد كان احترام الحقوق وكف النفس عن الغضب والمظلم وحرمان الناس أشياءهم قضية أخرى يرجو الناس بها المثوبة بعد الموت ، وكانوا كما نقول نحن اليوم يكسبون في العمال الثواب من الله ويبتغون عنده الوسيلة والمنزلة بهداية الناس إلى حمده ، وذلك كما كتب إيدو في قبره : « لقد جعلت الله يحمد من المؤمنين الذين صنعوا هذا القبر إذ أرضيتهم بكل شيء طلبوه مني حباً في أن أكون معظماً عند الإله » . وكانت دوافعهم الخفية هذه كلها صادرة عن إيمان بالإله الحكيم العدل الذي يملك الثواب والعقاب خوفاً وطمعاً ، وفي ذلك يقول أحد الأشراف : « ما ظلمت أحداً فيما يملك حتى يشكوني إلى إله المدينة » ، وكذلك فقد كان ينبغي على من دعت قدرته إلى ظلم الناس وتسخير بناتهم أو غصب أدلاكهم أن يتعففوا عن ذلك كما أعلن حنكو في قوله : « لم يحدث أن سخرت بنت أحد » (١) .

وبعد ، فهذا مجتمع وذلك مجتمع .

هذا مجتمع مصر الصريح وذلك مجتمع الدخلاء القبيح .

ولنعود بعد تلك الوقفة إلى يوسف في بيت العزيز .

فقد استطاعت امرأة العزيز مع ذلك أن تدبر له عند زوجها وتآمر عليه حتى أرسله إلى السجن ، « ودخل معه السجن قتيان » (٣٦) . ثم تشاء المقادير التي دفعت بالأحلام إليه في موطنه ومسقط رأسه قبل أن يخرج منه أن تدفع بين يديه بحلمين رآهما القتيان من صاحبي السجن لتخرجه من السجن . « قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً ، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبئاً بتأويله إنا نراك من المحسنين » (٣٦) .

(١) انظر Sethe, Urkunden des Alten Reiches Bd I, S. 46, 150,

170, 171, 173, 80, 251, 255, 186, 120, 75, 71, 77 . . . etc.

وتصدي يوسف لتأويل الحلمين قال : « يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان . وقال للمدى ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين » (يوسف ٤١-٤٢) وقد كان أن خرج الفتيان كل لمصيره . وبشاء الله لكى يحق الحق بكلماته ويحكم بأمره أن تزور الملك الطيوف والأحلام .

« وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملاء أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » (٤٣ - ٤٤)

وإذا برفيق يوسف في السجن يفتق . « وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلوه » (٤٥) ، وقصد الفتى إلى يوسف يسأله تعبیر الحلم ويستفتيه فيه « يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعل أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » (٤٦) .

« قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شدة يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون » (٤٧ - ٤٨) ثم عاد يوسف فأضاف بعد أن عبر حلم الملك أو حلميه فتكهن بما سوف يعقب السنين الشدة من الخير الذى يعم الناس فقال : « ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يَغاثُ الناس وفيه يعصرون » (٤٩) . قال النسفى في تفسير ذلك : « أى يجاب مستغيثهم وفيه يعصرون العنب والزيتون والنسمم فيتخذون الأشربة والأدهان ، ويقول ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجىء مباركاً كثير الخير غزير النعم » .

وقد كان إذا انقضت أعوام المجاعة - وهى دائماً أو تكاد تكون

من أثر انخفاض النيل - عاد النيل إلى وقائه المعتاد وارتد الناس إلى حياتهم الأولى وارتدت إليهم حياتهم الأولى ، فيثرون الحب ويرجون الثمار من الرب كما وصف عمرو بن العاص . وربما أمت الأرض بعد ذلك برزق موفور بعد انذى قالت - على الرغم من أصحابها من راحة طويلة وما تخلل شقوقها الجافة من الأزوت . وإلى ذلك أشار أمني أحد حكام الأقاليم إذ قال : « ثم جاء النيل بأمواء عظيمة تحمل القمح والشعير وكل شيء » .

فقد تحدث القرآن بما بشر به يوسف عن رخاء يعمر مصر من بعد السبع الشداد ، وكذلك تواتر إلينا من أخبار تلك الحقبة من تاريخ مصر نص يكشف عما تمتعت به البلاد أواخر حكم الهكسوس من وفرة ورخاء كاد يلهى المصريين أو بعض المصريين من كبار أصحاب الأرض الأثرياء ، إذ ضاق كاموسى ملك طيبة بمكانه بين آسوى فى هواره فى الشمال ونوبى يحكم فى الجنوب فما كان جواب بعض جلسائه إلا حب السلامة وإيثار العافية قائلين : حقاً لن كان الآسيويون قد امتدوا حتى القوصية فإزال خالصاً دائماً لنا نصيبنا من مصرنا . فاليفانتين قوية والأرض الوسطى معنا حتى القوصية وأجود حقولها تحرث لنا وثيراننا ترعى فى الشمال والقمح والشعير يرسل إلى خنازيرنا ولن تؤخذ منا ثيراننا .

المجاعات فى مصر

وقد كانت مصر عرضة للمجاعات وفترات من تدهور الإنتاج الزراعى والحيوانى على مر العصور . وقد كان ذلك فى أكثر الأحيان من آثار اضطراب النيل وامتناع فيضيه وإخلاله بالوفاء كما تعود وتعود منه الناس كل عام . فإذا تدهور وأقام على نقصانه لم تكد مياهه لتصل إلى الأرض التى تتحرق شوقاً إليه وتنتظر العام كله أو جلّه للقائه ،

وعندهئذ فلا رى ولا استنبات ثم لا زرع ولا ضرع فتكون الكارثة التى تنزل بالبلاد والعباد .

وكان فيض النيل على كل حال صاحب الزمام فى الحياة المصرية ومفتاحها . به تكون الزراعة التى تدير أهلها عامهم كله ، وبفضله تعلموا منذ أقدم العصور ادخار الحصيد والقصد فى إنفاقه حتى يعود الفيض الجديد ، فلقد أعتزنا منذ حضارات العصر الحجري فى مصر وطلائع تاريخها على مواضع ادخار الغلال . بل لقد كان انحباس النيل ونضوب موارد الدولة وثيق الصلة بما كان يتزل بها من الضعف السياسى وتحلل السلطة المركزية وتدهور الأمن واضطراب النظام ، فيكون شيوع الفساد وانتشار الجريمة مع القحط والجوع شراً مستطيراً وشقاء متصلاً قائماً يحل بالناس فيترك فى نفوسهم وعقولهم أثراً لا يمحي أولاً يكاد يمحي ، ويقيم فى أذهانهم ذكريات تصور بعضها عبارة لهم عن عام اشتدت قسوته واستشرى فيه الجوع فى الناس والحيوان فسموه عام الضباع . وهو يذكرنا بما أطلق الناس على عام القحط الذى نزل بالمدينة أيام عمر بن الخطاب من عام الرمادة .

وقد يبالغ النيل فى فيضيه أحياناً فتتغطم أمواهه وتضرى أمواجه فإذا هو يندفع طوفاناً عنيفاً مدمراً مغرقاً كل شىء ، ثم لا يكاد ينحسر عن الأرض إلا وقد انقضى من أوان البذر وقت قد يكون على الإنتاج أيام الحصاد سيئ المغبة ، وإن لم يبلغ ذلك فى سوءه مبلغ نقص الماء ولقد جاءنا من الأنباء عن فيض النيل أنه طما على عهد بعض الفراعين وأنه ارتفع خاصة فى عهد « طهرقة » من الأسرة الرابعة والعشرين حتى غمر الأرض من معبد الأقصر .

ولقد كانت الثورات الداخلية والحروب الأهلية وما قد يسود البلاد من كوارث ومن فساد النظام وضعف الرقابة أثره ائثالي وثقله المبهظ فى تقاعس الناس وشغل همهم عن العمل وانصرافهم عن الإنتاج ،

ثم فيما يترتب على ذلك من شكوى الناس من الجوع ونقص من الأموال
والأنفس والثمرات . نسرق من ذلك شاهداً من حديث لبعض الحكماء
من عصر الفترة الأولى يقال له إيبورور قال : « إن الرجل ليذهب إلى
حرثه وترسه معه . انظر : فتمد شحبت الوجه وأصبح الرماة متحفزين
في كل مكان : لقد انعدم رجل الأرض . ولكن النصوص في كل مكان
إن النيل ليفيض ولا من يحترق : وكل امرئ يقول لسنا ندرى ماذا حل
بالبلاد ، وتمد تحققت النساء فهن لا يحملن ، وصار الكثير من الموتى
يدفنون في النهر . . . ودمرت المدن وأصبح الصعيد مقفراً وزحفت الصحراء
على البلاد » (١) .

ومهما يكن من شيء . فلقد بنت مصر من القحط والحجاعات الكثير
على مر العصور . وكان الصعيد من الخاصة — بحكم ضيق الوادي وارتفاع
أرضه عن النيل وعسر الري فيه أدنى إلى جماعة وأقرب إلى القحط الذي
كان أفعل في أرضه وأبعد أثراً في أهله مما كان في أندلس المتسعة الخصيبة
ذات الرزق الوفير . وربما بلغت الحجاعة من العنف والشدة حد القسوة
التي تكاد تهوى بالناس من فطرة الإنسان السوى إلى ضراوة الوحش
الوالع في الدماء . فلقد نزلت بمصر جماعة على عصر الفترة الأولى وصفها
شريف من أهل الصعيد يقال له « عنخ تبنى نخت » قال : « وكان
الصعيد بأسره يموت من الجوع والرجل يأكل أطفاله » (٢) .

على أن المصريين قد اكتسبوا من ذلك حكمة التجربة وحسن التدبير

Pritchard, op. cit., p. 441.

(١)

(٢) وقد كان من أعنف ما نزل بمصر من الحجاعات في العصور الوسطى

ما وقع في عهد الخليفة المستنصر أنطاكي من جماعة حملت الناس على أكل
القطط والكلاب ، بل وسوغ لهم أكل اللحم الذي يبيع علناً في الأسواق .

انظر : S. Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages

(London 1914) p. 146.

إذ كانوا يدخرون غلة الأرض من أيام الرى لأيام الجفاف ومن يسرهم لعسرهم ومن رخاؤهم لشدتهم . وكانت حكمة الملوك والحكام وحسن تدبيرهم خليفاً أن يخفف عن الرعية بما كانوا يصنعون . ولو قد استمعنا - ولسوف نسمع بعد قليل - لأحطنا بما كتبوا خيراً مفترخين بما كانوا يومئذ يجترحون لرزق الناس وغذوهم ، وبما كانوا يبذلون من الجهد في استنتاج كل شبر من الأرض صالح للزراع تحت سلطانهم ، وبما كانوا يدخرون من الحصيد لتلك الأيام ، أو بما كانوا يجلبونه من أرض يتوفر فيها الرزق إلى أرض هي في حاجة وعوز إليه ، وذلك كله مع حرص على شمول العطاء وعدالة التوزيع .

في أسبوط كتب « خيتي » الثاني من الأسرة العاشرة يتحدث عما جلب من قمح الشمال وادخاره فيقول : « إنني غني بقمح الشمال حيث كانت الأرض في جفاف ، فأعشت مدينتي . . . وأذنت للصغير أن يحمل لنفسه من قمح الشمال مع زوجته ولأرملة مع ولدها ونزلت عن الضرائب التي وجدت آباءى قلدروها » (١) .

أما « جفأى » من عصر الأسرة الحادية عشرة فلم يجد في مدينته من حاجة إلى استيراد قمح من الشمال ، وإنما عمد إلى ادخاره في قصره وكلف بذلك مساعده سنئى الذى يروى ذلك فيقول : « لقد كلت قمح الصعيد الذى يحى تلك المدينة بأسرها في قصر الحاكم أمير الكهان « جفأى » في سنين الضيق والشدة » (٢) .

وأما في بنى حسن من عصر الأسرة الثانية عشرة فقد تحدث « امينى » عن زيادة الإنتاج فيقول : وكان أن حدثت أعوام انجاعة فكان أن حرثت الحقول من إقليم الوعل حتى نحومه الجنوبية والشمالية ،

Vandier, La Famine dans l'Egypte Ancienne (Le Caire (١)

, 1936), p. 101 f.

op. cit., p. 111.

(٢)

وأعشت أهلها وكفيتها غذاء فلم يبق جائع فيه ، إذ أعطيت الأيم كالسيدة ذات الزوج ولم أميز عظيمًا على صغير . ثم جاء النيل بأمواء عظيمة حملت القمح والشعير وكل شيء ، ولم يحدث أن أثبت في السجلات ضرائب على الحقول (١) .

وكذلك فعل في الكاب حاكمها يهي من الأسرة الثالثة عشرة التي سبقت قليلًا عصر يوسف والمكسوس قال :
« لقد كنت أكس القمح المطلوب الجيد ، وكنت يقطاً في فصل البذر فلما وقعت المجاعة على مدى الكثير من السنين أعطيت القمح مدينتي في كل مجاعة » (٢) .

على أن العنماء على كثرة ما قرءوا من أخبار المجاعات في مصر القديمة إنما يقفون خاصة موقف الفاحص المتأمل من مجاعة أخرى نقش أخبارها على الصخر في جزيرة سهيل جنوبي أسوان (٣) . ولئن كان الخبر منسوباً إلى العام الثامن عشر من حكم زوسر رأس الأسرة الثالثة ، فإن الذي لاشك فيه أنه إنما نقش في تلك الجزيرة بعده بعشرين قرناً من الزمان ، نقشه كهان نخوم على عهد انبطالمة في مصر ، ولعلمهم نقشوه في حكم بطلميوس العاشر في أكبر الظن (شكل ٣)

ولقد وقف العلماء على ما ورد فيها من أن المجاعة إنما حلت بمصر سبع سنين ، وعلى ما روى من أن الملك زوسر دعا وزيره الحكيم ايمحتب ليستفتيه في تلك النازلة التي أحزنته ، وليعلم علم هذا الذي أصاب النيل فحبسه عن المجيء في عهده سبع سنين فذوت الحبوب وصوحت الثمار وقلت الأقوات حتى لكان الناس قد حرموا الأنفاس ، فلم ترقاً لطفل

op. cit., p. 17, 114.

(١)

ibid

(٢)

op. cit., p. 132 ff; P. Barguet, La Stèle de la famine à (٣)

Schel. (Le Caire 1953); Pritchard, op. cit., p. 31; cf. Brugsch, Die Biblischen sieben Jahre der Hungersnoth (Leipzig 1891).



(شكل ٣)

دمعة وأقام الشباب على الانتظار ، على حين امتلأت القلوب أسى فأنحنوا على أطرافهم مدقعين ، واشتدت الحاجة برجال الحاشية وغلقت المعابد وعم الحزن الناس . ثم يمضي النص فإذا الرب نحنوم - رب أسوان يتجلى للملك في منامه فيعده وعداً حسناً ، وإذا هو يعلن إليه أن النيل لن يحتبس بعد عامه هذا ، وأن الفيضان سوف يقبل فيعم البلاد فينبت الزرع والفاكهة وتنقضي أيام المجاعة . فلما أفاق الملك قرر لربه هذا وقف الأرض من أسوان جنوباً حتى تاكومسو ، وذلك فيما عرف بلفظه

اليوناني باسم دوديكاسخوينوس بمعنى الفراسخ الاثني عشر .

فإن النص ليتحدث عن مجاعة امتدت سبع سنين وعن مشورة استشارها الملك من وزير عرف بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعن حلم رآه . وغير بعيد أن يكون هذا النص صوتاً من واقع بعيد وأن كهان خنوم حين كتبوه على عهد البطالمة قد كانوا تحت تأثير ما كان شائعاً يومئذ من أصدقاء الماضي السحيق ، وبما ورد في التوراة من أخبار السنين السبع الشداد التي جرت بها السنة من كان بمصر يومئذ - وكانوا كثرة - من يهود . وإلى يهود مصر خاصة تعزى ترجمة التوراة إلى اليونانية من قبل إثبات هذا النص بما يقرب من قرن من الزمان ، وذلك فضلاً عما كان لليهود في اليفانتين من مستعمرة تطل بحكم الموقع على سهيل .

ولقد أقبل يوسف على مصر وهي ذات حضارة عريقة ونظام دقيق ضارب في السنين ، إذ كانت الضرائب منذ القدم في مصر وثيقة الصلة بفيض النيل ومنسوب مائه ، حيث كانت تفرض على الناس مما تنبت الأرض من بقلها وكتانها وحبها وبصلها ، وبما يستنتجه الناس من زيت وجعة ونبيد ، وكان الحب من قمح وشعير أهم ما تستقبل خزائن الأرض حيث يقوم عليها شريف من كبار رجال الدولة يحمل لقب أمير الأهراء (أمير شنوتى) كان يشرف على كتائب من العمال والمساعدين والكتاب ، فمنهم من يقيس الأرض أو يكيل الغلال أو يشبها في الدفاتر ويحفظها في الأضاير ، وكان على أمير الأهراء أن يرفع إلى فرعون أمر هذا كله وأن يحيطه بمقدار ما حصلته الخزائن خبراً . وكان فرعون بحكم منصبه ومكانه من الناس مسئولاً عن رفاهية الرعية وكف البؤس عنها إن تعرضوا له . وكان حكام الأقاليم إنما يصدرون في أقاليمها كما شهدنا - عن مثل تلك المسئولية وذلك الوعي الناضج فكلهم راع وكلهم مسئول عن رعيته ، ولقد قدمنا من الأحاديث ما يكشف عن

وعى الحكام بذلك أشد الوعي وأرسخه : كما انحدر إلينا عن أمنمحات الأول رأس الأسرة الثانية عشرة ما يكشف عن تلك المسئولية التي يستشعرها الملك حيث يقول :

إني أنا زارع اخب ومحب رب الحصيد
لقد حياني النيل في كني واد
فلا جائع في عهدي
ولا ظمآن كذلك .

كان الهكسوس إذن قد أقاموا في مصر ملكاً لهم حيث استقر بهم المقام في الدلتا واتخذوا عاصمتهم شرقياً في هواره (حت وعرت) غير بعيد من مواطنهم في آسيا ، ثم لم يلبث الهكسوس حيث استقروا في بلد له حضارته وثقافته أن أخذوا ما استطاعوا عنه واثقلوا ما ساعوه من علمه ، ثم لم يلبثوا أن اتخذوا لأنفسهم نظم الملك وألقابه المصرية الخاصة ، على أن الصورة التي يوحى بها القرآن عن مجتمع الهكسوس في مصر أيام يوسف أنه مجتمع انحلك إلى الرفاهية المفسدة فتراخت في أهله النخوة وتداعت فيهم الهمة عن جليل الأمور ، حتى عز في الدولة الرجال من أولى الحكمة والبصيرة وأهل العفة والأمانة وأصحاب الحزم والتدبير . وكيف لرجال فقدوا الحزم على بيوتهم وانحسرت غيرتهم عن أهلهم أن يتولوا دولة ناشئة في بلد غريب ، ولما يرسخ كعبها في أرضه ، لذلك فقد كان الملك في حيرة من أمره يتلمس الرجال تنمساً .

ولا شك أن تعبير الحلم قد أعجب الملك إعجاباً شديداً ، فما كاد يسمعه ويقدر ذكاء الفتي السجين الذي عبره حتى أرسل في طلبه . ولكن الفتي لا يجيبه ولا يسرع إليه حتى يضرب مثلاً آخر في الشجاعة وعزة النفس ، فهو لا يخرج من السجن ولا يريد أن يخرج منه أو يقصد الملك حتى يتم التحقيق فيما نسب إليه ظلماً من جريمة دفعت به إلى غيابه ، وحتى تظهر براءته ويرد اعتباره بشهادة النسوة اللاتي شهدن

هذه الواقعة وقطعن أيديهن لما رأينه ، ثم سمعن اعتراف امرأة العزيز التي كانت حينئذ مضيفةً .

وقال الملك اثتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم .

(يوسف ، ٥٠ - ٥٣)

ولكن ذلك لا يزيد الملك - وهو في عوز أشد العوز إلى الرجال - إلا حرصاً عليه ورغبة فيه وعزماً على اتخاذ قراره بإطلاقه واستخدامه . « وقال الملك اثتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه » وأدرك ذكاء قلبه ورجاحة عقله وأمانته وبعد نظره « قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » (٥٤) .

وكأنما عرض عليه مناصب الدولة وأدار معه الحديث فيها هم مقبائون عليه ويتوقعونه من شئون الدولة ومشاكلها وفي أمور الناس وحاجات الناس « قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » وكان يوسف قد خبر ما صورنا من شئون البلاد ونظمها ، وطرائق عيشها وأساليب أهلها فيها . وذلك بحكم إقامته بها في خدمة العزيز منذراً بأمور بيته محتملاً ما يسند إليه من وظائف وأعباء . وكان في أثناء ذلك وهو الغريب النازح يدرس ما يجري أمام عينيه فاحصاً متأملاً مستقصياً أمور البلاد والعباد ، متعرفاً ما يتبعون من عادة مستمعاً إلى ما يروون من عيون الأخبار ومن تاريخهم وتاريخ ملوكهم وحكامهم ، وكانوا بالرواية والتاريخ شغوفين . وقد أجاب الملك يوسف إلى ما طلب من منصب فكان له

ما أراد ، وخرج من السجن ليتولى في الدولة منصباً من أكبر مناصبها وأشدّها في ذلك الزمان خطراً .

« وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » . (يوسف ٥٦)

وكان القحط الذي نزل بمصر قد امتد إلى ما وراء الحدود فشمّل أرض كنعان في فلسطين ، واضطر يعقوب تحت وطأته أن يرسل بنيه إلى مصر مشترين مستطعمين . « وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » .

كانوا قد ألغوه في غيابة الحب صبيّاً لم يتخذ من الناس إلا ما يتخذ البدو من ثياب بسيطة لم يأنفوا سواها ، وهم اليوم يدخلون بعد نصف وعشرين عاماً على فتي في عتقوان الرجولة حليق العارضين إلا من خية صغيرة قصيرة على الذقن ، وقد تزيا بثياب المصريين الأنيقة من نقبة وقميص من كتان أبيض يتحلى عند المصار بطراز عريض مختلف ألوانه ، واتخذ من فوق رأسه شعراً مستعاراً أو غطاء من تلك الأغذية التي شاعت عند المصريين في تلك القرون . وأكبر الظن أنه حدثهم بغير لغتهم متخذاً في لحيته سمت الإمارة وسلطانها . ولم يكن للإخوة أن يتخيّلوا أن هذا العزيز أخوهم وابن أبيهم ، فلقد ألغوه في غيابة الحب عاطلاً من المال قد تقطعت به الأسباب فلا سند له من أهل ولا مكان له من وطن . وأكبر الظن أن يوسف قد طفق يتحدث إليهم ويستمع منهم ويسأل عن أبيهم وأمهم وإخوتهم وهم لا يعون من وراء تلك الأحاديث شيئاً ، ولا يحسون إلا أنها مما يجري بين الغرباء حين يلتقون ، وكان مما حدثوه أن لهم من أبيهم أخاً أصغر لم يأت معهم لحرض من أبيهم عليه ، فتقدم إليهم في رؤيته . وقد كانت نشأت بينه وبينهم — بحكم ذلك انلقاء — مودة عبر عنها بفضل في إيفاء الكيل وبتكريمهم برعايتهم وقراهم وإنزالهم منزلاً يجدون فيه الراحة والأمن ،

بل يجلدون فيه شيئاً من ترف لم يتمتع بمثله مثلهم ، لذلك فقد كان خليقاً أن يطلب إليهم ما يشاء وأن يعبر عن رغبته في رؤية أخيهم ذلك الذي لم يأت معهم ، فإن لم يأتوا به فكأنما هم يرفضون له طلباً يرضيه وينكلون عن إسداء مكرمة بمكرمة .

« ولما جهزهم بجهازهم قال اثنتي بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أنني أوفى الكيل وأنا خير المتزئين . فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . قالوا سراود عنه أباه وإنا لنفاعلون » . (٥٩ - ٦٠)

ومع ذلك فقد كان حديث يوسف إلى إخوته حديثاً باطنه الرحمة وظاهره العذاب ، فلقد احتمل عن أهله وهو العظيم الموسر ثمن ما شروه . « وقال لفتياناه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » (٦٢)

وظاهر أن تهديد يوسف بمنع الكيل قد كان خطيراً يفرع شبحه النفوس وأن القحط والحجاجة قد كانا يومئذ في فلسطين أعنف وأفعل من أن يحتملها أحد .

« فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل قاله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » (٦٤) ومع ذلك فقد أنصت لإلحاحهم وإغرائهم .

« ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قانوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير » . (٦٥)

ومع ذلك فقد اضطرب يعقوب تحت ضغط الحاجة وشدة العوز أن يرسل معهم أصغر بنيه على خوفه عليه وشكه في إخوته أن يفرطوا فيه كما فرطوا في يوسف ، واكتفى بعهد عليهم أن يحفظوه « قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم ، فلما

(٣)

أتوه موثقهم قال الله على ما فقول وكيلى . (٦٦)

سبحان الله . أحد عشر فى يخرجون على رواحهم متقاطرين ، لا يشك الناظر فى وجوههم أنهم إخوة لأب واحد أجمعين ، تشابه قسماهم من جبهة عريضة وأنف أقى وعين سوداء .

لا شك يعجبون المشاهد إذا شهد ، ويشيرون الخاسد إذا حسد . « وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكول المتوكلون » . (٦٧)

وخرج النسية إلى مصر قاصدين ، وكان لابتة من طاعة الأب فيما أوصى به

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها وإنه لذر عالم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . (٦٨)

ثم أقبلوا على العزيز مستأذنين . « ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال أنا أخوك فلا تبتس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذن أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون » . (٦٩ - ٧١)

وشاء رجال يوسف المبالغة فى قدر المسروق وقيمتة - إمعاناً فى إرهاب إخوته - فزعموا أن المسروق شىء أئمن وأخطر من السقاية ، وإنما هو من أمتعة الملك أو هو من ممتلكات الدولة الملكية « قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا فالتة لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين » . (٧٣) هم لا بشكون وما ينبغى أن يشك العزيز فى ذلك ، فقد كان تعرف بهم وتحدث إليهم وعرف من أمرهم كل شىء ، وعلم أنهم قوم مسلمون إنما أقبلوا يمدون أهلهم بما

يكتالون منه ، ولكن ذلك كله فضلا عن إنكارهم ودفاعهم لم يمنع من اتهامهم أولاً ثم تفنيشهم ثانياً .

« قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه . كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » . (٧٥ - ٧٦)

وكأننا بالإحوة ، وقد استخرجت السقاية من رحل السارق المزعوم قد نكسوا رؤوسهم حياء وخجلاً وحاولوا أن يقولوا شيئاً يعتذرون به .
« قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون » . (٧٧)
لا شك أنهم شر مكاناً وقد طوعت لهم نفوسهم قتل أخيه أو إلقاءه في غيابة الحب ، ومع ذلك فلم يأن بعد لحسابهم الأوان .
على أنه لم يكن من سبيل إلى الشفاعة فيه أو التطوع باحتمال التهمة عنه .

« قالوا يأتيا العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون » . (٧٨ ، ٧٩)

ويكون ذلك فاتحة الختام أو بداية النهاية من القصة ، إذ انتهى المطاف بيعقوب ونبيه إلى الاستقرار بمصر حيث أنزلوا أرض جسم أو جاسام كما قرئ اسمها في النصوص المصرية^(١) أو أرض جاسان كما ورد في التوراة ، ويكون استقرارهم هذا في تلك البقعة من وادي طميلات شرق الدلتا فاتحة لقصة أطول وتاريخ أكبر ، تشعبت أحداثه وتقلب فصوله ونوشك أن نعرض له بعد قليل .

ولقد كان هبوطهم كما قدمنا على عهد اخكسوس في مصر ، حيث بقيت لنا من آثار تلك الفترة جعلان عليها أسماء لطائفة من رؤساء الساميين كان منهم اسم « يعقوب ايل » وهو اسم يكاد يصعب في رأى أكثر المؤرخين ، إنكار ما شاع بينهم من أنه إنما نقش تذكاراً لسبط إسحق ابن إبراهيم عليهم السلام ^(١) .
ونعود هنية إلى يوسف وإخوته .

« فلما استياسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبى أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون » . (٨٠ - ٨٢)

ومع ذلك فلقد كان يعقوب يعلم بما في نفوس أبناء الضرائر من الحفيظة والحق ، وقد ظل الشك يعمل في نفسه مما يقولون .

« قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم » ^(٨٣) .

ولم يكن يعقوب — ككل أب تولد مفقود — على استعداد للتسليم بهلاك ابنه ولا لليأس من عودته ورؤيته .

« وتولى عنهم وقال يا أسنى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله نفثاً تذكر يوسف حتى تكون حرصاً أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . (٨٤ - ٨٧)

ويعود الإخوة إلى مصر وقد أضر بهم القحط والحزن على ما نزل بهم

وبأييهم من محن ، فيلقون يوسف ولم يكن بالنسبة إليهم حتى اليوم سوى عزيز مصر .

« فمما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين » (٨٨)
وكان الأوان قد آن للكشف عن شخصه وقد ارفضت عيناه — فيها بخيل إلى — بالدمع لما وجد فيهم من ذلة وجهه وقد مسهم الضر حقاً وهم يسألونه الرحمة والصدقة ، وبخيل إلى أنه خاطبهم هذه المرة بالعبرية :
« قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون .

قالوا أإِنَّكَ لَأَنْتَ يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد مَنَّ الله علينا إله من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » (٨٩ — ٩٠)

وكان بين الإخوة لقاء امترح فيه الفرح والحزى والبكاء ، وامترح فيه حسد مكتوم على ما حظى به من منصب عظيم ومكان رفيع ، ثم كان بينهم اعتراف وعتاب ثم عفو وغفران .

« قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ، قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » . (٩١ — ٩٢) . ثم يكون السؤال عن الأب والإنخبار عما آل إليه من العلة والأسى ، وما يجد وأهله من المشقة والجهد والإملاق ، ويكون القرار بكفالة الأسرة كلها ورعايتها فإما كان ينبغي له أن يتمتع بما يتمتع به من يسر وترف وأهله مملقون فيقول :

« اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين . ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ، فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون » . (٩٣ — ٩٦)

ولم يعد من سبيل للإخوة إلى إخفاء جرمهم بعد انكشاف كل

شئ ، فلم يكن لهم إلا الاعتراف والندم وطلب الغفران .

« قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف
أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم . (٩٧ - ٩٨) ثم يكون حديث
الفتية عن يوسف وعمما هو فيه من نعمة وامتزلة وسلطان وما قرر من
استعدادهم إليه فتكون الرحلة التاريخية إلى مصر .

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء
الله آمين » (يوسف ٩٩) .

۴

موسی

بسم الله الرحمن الرحيم « طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو
عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون »

(القصص ١ - ٣)

دخل إسرائيل وبنوه مصر بمشيئة الله آمين ، حيث طابت لهم
الإقامة في مصر كاسبين مستكبرين ، حتى صاروا كأنهم من أهلها
وطائفة منهم كما يقول القرآن ، غير أن ما ركب فيهم من ميل إلى العزلة
وكراهة الاختلاط قد حجب نفوسهم وولاءهم عن ذلك البلد الذي
أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

وقد روت التوراة ذلك في سفر الخروج (١ : ٧ - ١٤) قالت :

« وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا وكثروا كثيراً جداً وامتلات الأرض
منهم ، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه
هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا ، هلم نحتال لئلا ينموا فيكون إذا
حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربونا ويصعدون من الأرض
فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّوهم بأثقالهم ، فبنوا لفرعون مدينتي
فيثوم ورعمسيس . ولكن بحسبما أذلّوهم هكذا نموا وامتدوا فاختشوا من بني
إسرائيل فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية
قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل ، كل عملهم الذي عملوه
بواسطة عتقاً » .

ولا شك أن كاتب هذا الجزء من التوراة إنما أوغل في المبالغة
وأغرق في التعصب حين أطلق على لسان فرعون أن بني إسرائيل شعب

أكثر وأعظم من المصريين ، فلو قد كان ذلك كذلك لما استطاعت قلة المصريين أن تسخر كثرتهم المزعومة . بل لقد شطح الخيال والوهم في تقدير عددهم كما أورده سفر العدد فأبلغه حداً من الإغراق في الوهم بلغى العقل والتفكير . إذ ذكر أن المخاريين منهم ممن تجاوزوا العشرين قد بلغوا في مطلع العام الثاني لخروجهم سبعمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين (٦٠٣٥٥٠) فكيف كان عددهم في ذلك الحساب أجمعين .

« فكان جميع المعدودين من بني إسرائيل حسب بيوت آبائهم من ابن عشرين فصاعداً كل خارج للحرب في إسرائيل : كان جميع المعدودين سبعمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين » . (عدد ١ : ٤٥ - ٤٧)

فلا شك في أن مثل ذلك العدد من الشباب انخارب خلق أن يرفع مجموعهم إلى ما يجاوز المليونين بل الملايين الثلاثة ، وهو ما لا يستقيم مع ما تعرضوا له من ذلة وعسف تحت رؤساء التسخير ، ولا مع ما روى من عبورهم البحر في سويحات قصار .

ومهما يكن من شيء ، فلقد أقاموا في مصر منذ دعاهم يوسف حيث تمتعوا بالأمن والسلام « فأثمروا وبنوا ولدوا وكثروا » ، وحيث كانوا - من غير شك وما زالوا كما عرفوا دائماً وبرغم تلونهم الظاهر بالمجتمع الذي يعيشون فيه - يعتزلون بأنفسهم ويلوذون بعصبيتهم بما ينفر منهم أهل البلاد ويحمل المجتمع المضيق على الشك فيهم والحذر منهم . بل إنهم ليرحبون ويشجعون على إثارة ما يلقون من انقمور والحذر تمكيناً لأنفسهم من الاعتزال والبعد عن الناس ، إذ بدأت تلك السياسة منذ اللحظات الأولى من هبوطهم مصر وذلك بنص التوراة :

« ثم قال يوسف لإخوته ولبيته أبيه : أصعدوا وأخبر فرعون وأقول له إخوتي وبيت أبي الذين في أرض كنعان جاءوا إلى ، والرجال رعاة غنم ، فإياهم كانوا أهل مواس وقد جاءوا بغنمهم وبشرهم وكل ما لهم ، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم أن تقولوا عبيدك أهل مواس منذ

صباينا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعاً لكنى تسكنوا في أرض جاسان لأن كل راعى غنم رجس للمصريين» (تكوين ٤٦ : ٣١ - ٣٤)

وطبعي أن يكونوا على ولاء لأنفسهم ومصالحهم بولائهم للهكسوس وملكهم الذى آواهم في مصر وأنزلهم أرض جاسان ، إذ مثلوا بين يديه مع يوسف « وقالوا لفرعون جئنا لتتغرب في الأرض إذ ليس لغنم عبيدك مرعى ، لأن الجوع شديد في أرض كنعان ، فالآن ليسكن عبيدك في أرض جاسان . فكلّم فرعون يوسف قائلاً أبوك وإخوتك جاءوا إليك ، أرض مصر قدامك في أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك ، ليسكنوا في أرض جاسان ، وإن علمت أنه يوجد بينهم ذور قدرة فاجعلهم رؤساء مواش على التى لى » . (تكوين ٤٧ : ٤ - ٦)

وما ندرى لعلهم قد كانوا حيث أقاموا شرقي الدلتا مع الهكسوس عوناً للهكسوس وحرباً على المصريين في حرب التحرير ، وهم من أحذق خلق الله على القلب والتلون وإثارة القلاقل واستغلال الأزمات ، إذ هبّ المصريون بقيادة أمراء طيبة فشنوا على المحتلين حرباً أضرمها عليهم سقنزع تاعافن ، فما إن استشهد في القتال حتى خنقه على العرش والجهاد ولداه كاموسى ثم يوعح موسى (أحمس) .

لمحة من التاريخ

وكان قد سبق الحرب محاولات للتحرش بدأ بها أبوين ملك الهكسوس ، إذ أرسل إلى سقنزع - فيما روت بردية سالييه - سفارة تحتج على أفراس النهر في بحيرته وما تثيره من أصوات مزعجة تدود النوم عن ملك الهكسوس في هواره^(١)

ولقد تجلت وطنية المصريين في تلك الحرب بما استطاع كل مصرى

أداءه من تقديم النفس والمال في سبيل التحرير ، حتى انعقد لواء النصر للملك « يوعج موسى » الذي دمر معاقل المكسوس بعد معركة ضارية حول مياه پاچدكو في مصر حيث كانوا يرتكزون في عاصمتهم هناك ، ثم تعقبهم إلى فلسطين حيث حاصروهم في « شارو حان » ثلاث سنين قبل أن يقضى عليهم قضاء لم يسمع بهم بعد ذلك من أحد ، ثم عاد لينشئ أسرة جديدة ويبدأ دولة جديدة وعصرًا جديدًا ومجددًا جديدًا . فكان رأس الأسرة الثامنة عشرة وظليعة الدولة الحديثة في تاريخ مصر .

على أن احتلال المكسوس وقد زال عن مصر لم يزل عنها دون أن تخرج منه بما كان لها في حضارتها وفي أهلها من أثر خطير . فقد عرف المصريون عنهم العجالات الحربية والتحليل وأخذوا القسي المزدوجة والأوانا من الأسلحة والسيوف . كذلك فقد اضطربت الروح الوطنية والنزعة الحربية في نفوس المصريين ، إذ وجدت البلاد نفسها منذ إجلأهم مضطرة إلى الإقامة على حمل السلاح وإشهار السيف . وكان لزاماً عليها أن تستبقي سيفها مشهوراً منذ ذاك حفاظاً على حدودها أولاً وتأميناً لطرق التجارة والنقل ثانياً ، ثم ضماناً لموارد الثروة والمواد الغفل ثالثاً .

وكانت القبضة المصرية على ما أحرزت من أملاك لها في آسيا وأفريقية خليقة إن لانت أو تراخت أن تفقدها ما أحرزت من هذه الأملاك . وأنجبت مصر ملوكاً كانوا من أعظم القادة العسكريين والجنود المحاربين ، من أمثال تحتمس الأول وتحتمس الثالث وأمنحتب الثاني . بل عرف من الرعية قادة محاربون أهلوا في سبيل بلدهم أحسن البلاء من أمثال يوعج موسى ابن أبانا ويوعج موسى الكاني وأمنحتب ، إذ شهدت طيبة عاصمة مصر على عهد هذه الأسرة عهداً نظامت لها فيه إمبراطورية واسعة النطاق مترامية الأطراف ، تمتد من أعالي الفرات في الشمال إلى جنادف النيل الرابعة في الجنوب ، حيث أسرع إليها الناس شعوباً وقبائل وحكاماً من أقطار الأرض وجزر البحر بالولاء والخضوع خوفاً وطمعاً ، وباتت طيبة

عاصمة الدنيا وأم القرى في ذلك الزمان ، حيث تدفقت على مصر كما تفجرت من أرضها ينابيع الثروة وشملت من أسباب الأمن والرفاهية والرخاء والحياة انماحة ما وجد سبيله إلى الثقافة والفن ، وبات المدوك من جيوانها وفي يمينهم أن الذهب كالتراب كثرة ووفرة ، فهم يرسلون الرسائل ويبعثون البعث يطلبون بل يستجدون رضاء مصر أولاً ، وذهب مصر ثانياً ويتسولون على فرعونها أمانحتب الثالث أن يرضى فيسمح بتزويجهم فتاة من مصر ولو لم ترتفع إلى طبقة الأمراء والنبلاء .

على أن هذه الخقبة من التاريخ قد شهدت طلائع القبائل العبرانية تدخل فلسطين ، حيث ورد فيما سجل تحتتمس الثالث من فتوحاته بالكرنك مواضع تدل أسماؤها على صبغة عبرانية تلقبها من بعض القبائل والبطون ، منها على سبيل المثال يعقوب إيل ويوسف إيل^(١) ، وكذلك فقد ظهرت مذ ذاك طوائف من الناس أو قبائل تحمل اسم عابيرو وخابيرو وأثارت من جدل المؤرخين في نسبتهم إلى العبرانيين ما لم ينته بعد إلى قرار ، ومع ذلك فقد غفل التاريخ عن بني إسرائيل في مصر يومئذ منذ هبوطهم بها فلم يذكر عنهم شيئاً ، وحسبنا عنهم أنهم أقاموا هناك « فأنمروا وتوالدوا » وأصبحوا جزءاً من رعية فرعون آمنين مع المصريين أو « طائفة منهم » كما وصفهم القرآن في أول سورة القصص .

وأكبر الظن أنهم عبدوا مع الهكسوس المعبود المصري المعروف ست أو سوتخ ، إذ قدسه الهكسوس - كما قدسه المصريون - في صورة آسيوية أحياناً وسموه « بعل » .

ولقد بلغت مصر ما بلغت من سلطة راسخة وإمبراطورية باذخة وقد قرى إيمان الناس ما أعلن إليهم من أنها إنما حصلت بفضله آمون رب الأرباب ذي الرأي السديد . فبذل له الفراعين عن سخاء بلى إسراف ما وسعهم البذل وكان كثيراً ، فشيدوا له المعابد ووهبوا له الهبات السابعة

حتى بلغ كبره من الثروة والنسب على النفوس والعقول بل على الملوك
 أصحاب السلطة ما أضاعهم في المزيد ، وأشعر فرعون ومن حوله بما لا بد
 منه من رد ذلك التيار الخفيف ، بل لقد كان ازدياد شأن أمون
 ورد الفضل إليه في الفتوح وامتداد سلطانه إليها أن أوحى مع فكرة الإله
 الواحد : التي لم تكن غريبة عن أذهان المصريين على كل حال ، بفكرة
 الإله العاني الذي يعبد الناس كافة في مصر وغير مصر ، فكانت
 من ثم دعوة المنحجب الرابع إخناتون (شكل ٤) إلى دين التوحيد ، إذ نادى
 بعبادة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الرائق القادر المدبر ، ورمز له
 بقرص الشمس آتون ، وصاغ له من ناصع الشعر أناشيد وترانيم ثم عن
 أحاسيس عميقة ومشاعر صادقة تعدد آلاؤه على العالمين .

ومع ذلك فقد كان عسيراً على الناس أن يتخلوا عما ألفوا من دين
 وجدوا آباءهم عليه عاكفين ، فكان أن اجتمعت على الملك معارضة
 الشعب وعداء الكهنة الذين أفقدوا مكانتهم وأموالهم . وتذمر منه الجيش
 الرابض في منف وهو يجمع غيظاً بما يهوى على سمعه من أنباء الإمبراطورية
 التي لم تلق من الملك الفيلسوف السادر إلا الإهمال ، وهو في شغل بدينه
 عن دنياه ، فإذا بها تتداعى ثم تنهال على السقوط والزوال . وهم يذكرون
 أياماً مجيدة ودماء غالية بذلها أبائهم أيام بطل مصر الخالد تحتمس الثالث .

ولقد انتهى الأمر بحكم ما تردت فيه البلاد من الصراع والاضطراب
 من بعد موت إخناتون ، باختصار الأسرة الثامنة عشرة وميل شمسها إلى
 مغيب ، وكادت مصر يومئذ تفقد استقلالها فيبتلعها الحيثيون بعد
 ابتلاعهم أملاكها ، وذلك في مؤامرة سفينة انبعثت من غباء إحدى
 الأميرات من بيت إخناتون ، لولا أن تلقف العرش رجال صدقوا ما
 عاهدوا الوطن عليه وما بدؤوا تبديلاً . فلقد كان قائد الجيش حورمحب
 يرقب الأمور ويوجهها عن كتب من موقعه في منف ، إذ أعقب إخناتون
 نختناه سمنخ كارع وتوت عنخ آتون ، ومن بعدهما دفع آي - وكان



(شکل ۴)

شيخا - إلى الملك ريثما يستتب له الأمر ويتهيأ له ثم استوى على العرش .
 وأقبل حورمحب ليقبل مصر من عثرتها وليردها إلى الأمن والنظام
 والقانون ، ويطهرها مما تردت فيه من الفساد والرشوة واستغلال النفوذ ، وليرهب
 من وراء حدودها عدوا يسعى بعد أن تحيف أملاكها إلى ابتلاعها بأسرها .
 وإلى حورمحب تنسب مجموعة من القوانين الصارمة التي أصدرها ضد
 المرتشين المستغلين ، ثم ودع الدنيا بدون أن يعهد بالعرش إلى أحد من
 بنيه أو أولى قرباه ، فكان ممهداً لعهد من الاستقرار والقوة جديد ، وقيام
 عصر من القواد العسكريين الذين استردوا لمصر هيبتها وأملاكها في أفريقيا
 وآسيا كان على رأسهم رمسيس الأول ، فلم يلبث عاماً وبعض عام حتى ترك
 العرش لولده سيتي الأول (شكل ٥) ثم حفيده رمسيس الثاني بن سيتي (شكل ٦) ،
 وكانا من أعظم عواهل مصر بما أقاما من منشآت وأحرزا من انتصارات .
 فقد دخلا في صراع عنيف مع الحيثيين على أرض سوريا وفلسطين في
 سبيل استرداد ما تحيفوا منها وتثبيت سلطانهما عليها ثم ختم ذلك الصراع
 بعقد معاهدات الصلح والنبالام الدائم بين العدوين المتحاربين رمسيس
 الثاني المصري وخاتوسل الحيثي . وكان رمسيس يومئذ قد انتقل إلى
 عاصمته الجديدة التي أنشأها عظمة زاهرة شرق الدلتا غير بعيد من
 عاصمة الهكسوس القديمة ، لتكون في مكان واسط بين مملكته في مصر
 وأملاكها في آسيا . وفيها استقبل المندوب الحيثي الذي أقبل يحمل طلب
 الصلح حيث عقدت المعاهدة التي أبرمت بينهما عام واحد وعشرين من
 حكمه ، ومع ذلك فقد أقامت العلاقات والاتصالات الودية بين
 الدولتين حتى رأنا تدعيمها بوشائج المصاهرة فتزوج رمسيس من بنت
 ملك الحيثيين الذي أقبل يزفها إليه في العام الرابع والثلاثين .

على أن مصر قد طفقت تتعرض من بعد رمسيس الثاني لأخطار
 ظلت تنوشها من كل مكان ، حيث كان عهد مرنبتاح بن رمسيس ممثلاً
 لفترة من الفترات التي جنحت فيها إلى مبتدأ الانحدار من ذروة القوة

إلى هوة الضعف ، ومن عزة الامتداد إلى هوان الانكماش ، ثم انتهى
أمرها إلى انهيار في الداخل وانحلال لإمبراطوريتها في الخارج ، حيث
تألبت عليها الشعوب في أقاليمها في الخارج وتألبت عليها من الليبيين وشعوب



(شكل ه)

البحر المتوسط عناصرها هائلة عدمت المستقر الحصب ، حيث تحركت الشعوب والأجناس في آسيا وأوربا في موجات بشرية عاتية تدفع أمامها شعوباً تبحث عن مستقر دائم تعيش فيه ، فتنطلق نفوسها وتمتد عيونها إلى الوادي الحصب من حول النيل .

وكذلك فقد ورث مرنبتاح مع العرش ثركة مثقلة عن أب حكم سبعة وستين عاماً امتلأت بالحروب الطويلة المرهقة والنفقات الثقيلة الباهظة على عمائر كثيرة ومنشآت باذخة ، وكان مرنبتاح كذلك قد جاوز سن الشباب بل جاوز الكهولة حين ولي العرش من بعد أبيه الذي جاوز الثمانين ، فإذا بشيخ يخلف شيخاً ، وإذا مصر تتحول من الهجوم إلى الدفاع ومن التطلع إلى إمبراطوريتها وتوسيعها إلى الانشغال بالدفاع عن أراضيها وسلامتها . ومع ذلك فقد كان عهد مرنبتاح حركة لا تهدأ فيما كان من قمع ثورات البجاة والنوبيين في أقصى الجنوب وثورات شعوب آسيا من أملاك مصر في الشرق . وفيما كان من رد الليبيين عن حدود مصر في الغرب مرتين ، وقعت الأولى في العام الرابع من حكمه (١) ، ووقعت الثانية في العام الخامس ، وكان الغزو الليبي الثاني من أخطر ما تعرضت له مصر من غارات ، إذ واجهت جموعاً هائلة من شعوب البحر المتوسط تحالفت مع الليبيين بقيادة ملكهم مرياي ، وكان مرياي هذا عازماً على إحراز النصر والاستقرار بمصر ، فصحب معه نسائه وبنيه . واصطدم الجيشان في معركة هائلة لم تدم أكثر من ساعات انتزع فيها المصريون الغلبة وأحرزوا النصر الأكبر ، فكأنما كانت عين جالوت القديمة .

ولم يكن مرنبتاح وهو يجاهد جهاد اليائس بأقل من أبيه شدة وسطورة ،

A.A. Youssef, Merenptah's fourth Year Text at Amada (١)
(in Annales du Service des Antiquités de l'Egypte), T. LVIII (1964),
p. 273 ff.

بل زاد عليه قسوة وعنفماً ، فلقد حفظ لنا في معبد عمداً بالنوبة من وثائق التاريخ ما يحدث أنه كان يعاقب الخارجين عليه فضلاً عن الصلب فوق الشجر بإحراق الجموع وقطع الأيدي واقتلاع العيون وصلم الآذان ، وأنه كان يبالغ في العذاب فينزل عقاب الحريق بالخوارج أمام ذويهم ، ويرسل ما اجتمع من الآذان والعيون فتعرض أكواماً في بلادهم إرهاباً وتخويفاً^(١) .

ولقد أيقن المصريون في أعقاب هذه المعركة أنهم قضوا على كل خطر يهددهم وضمنوا سلاماً لا يشوبه خوف ، وحق لهم أن يجوسوا خلال الديار في غير وجل وأن يجلس بعضهم إلى بعض يتحدثون ويسمرون ويتغنون بنشيد النصر الأكبر سعداء هائنين .

أما مرنبتاح - وكان أصلع بادناً - فقد قعدت به الشيخوخة والمرض في أعقاب ذلك قعوداً توقع معه الناس - منذ العام الثامن من حكمه - نهايته ، فكان أن جدوا مذ ذاك في إعداد قبره والاستعداد لحنارته ، ولكن العمر مع ذلك قد امتد به من بعد ذلك نيفاً وعامين ، حيث مات ودفن - من وادي الملوك بالأقصر في تابوته الجرانيتي بقبره المسيح ، ثم قدر لحنانه من بعد ذلك خوفاً من اللصوص أن ينقل إلى قبر أمنتب الثاني حيث أعر عليه عالم الآثار فكتور لوريه عام ١٨٩٨ من الميلاد .

ثم خلف من بعده ابنه سبتي مرنبتاح أو سبتي الثاني كما عرف عند المؤرخين ، فلم يجاوز حكمه أعواماً ستة استغرقتها الفوضى والاضطرابات . إذ ورد على بعض كسر الفخار تاريخ توليه كما ثبت تاريخ موته الذي وقع في العام السادس من حكمه . وفي عهده تواترت الأنباء على قلتها بأن طيبة قد كانت تجتاز أياماً تمور بالفوضى وتمتلئ بالخلافات . إذ روى أن رجلاً يقال له نفرحتب وكان ثاني اثنين من رؤساء العمال في



(شکل ۶)

الجبانة قد استبدل به آخر يسمى پانب ، وأن پانب هذا قد تعرض لحملة من اتهامات خطيرة أثارها عليه أخ نزميله نفرحتب يدعى أمون نخت ذكر فيها في لوحة عنيقة - على بردية بالمتحف البريطاني اليوم - أن پانب سرق لزخرف قبره أحجاراً من قبر الملك سيتي الثاني في أثناء بنائه ، وأنه اختلس وأفسد أملاً كآ أخرى لذلك الملك ، بل زاد أمون نخت فاتهم پانب بأنه قتل نفرحتب برغم ما له عليه من فضل التربية والتعليم ليغتصب منصبه ويخائنه عليه ، وأنه بعد مقتل رئيس العمال هذا قد حاول رشوة الوزير بارع م ح ب ليعينه مكانه . ومهما يكن من شيء فإن ما ورد إلينا من هذه التهم وما ورد من أنباء غامضة عن حرب وقعت في تلك السنين إنما يدل على ما كانت طيبة خاصة والبلاد عامة تمر به - بما وصف مجازاً بالحرب - من فوضى عارمة واضطراب شديد . وقد روى أن نفرحتب شكاً إلى الوزير أمن موسى - ولعله كان سنناً لبارع م ح ب - ما تعرض له من عدوان پانب فأُنزل به العقاب ، عند ذلك فرع پانب إلى رجل يدعى موسى كان من غير شك ذا نفوذ عظيم في الدولة يومئذ فعزل الوزير ، وما ندري لعله قبض الملك باسم أمون موسى قبيل عهد سيتي الثاني أو في أثناءه مديدة لم يقدر لها أن تطول ، وأنه صاحب القبر الذي عثر عليه باسمه هذا في وادي الملوك .

أما سيتي الثاني فقد ودع الدنيا شاباً أو كهلاً كما يبدو من جثثاته المخطط الذي عثر عليه مع جثمان أبيه وسائر انفراعين في قبر أمنحتب الثاني ، ولم يكن له من أثر إلا معبد في فناء الكرنك صغير ، ثم تردت مصر في فترة من الفوضى وسفك الدماء ونفوذ الأجني ، حتى سقطت الأسرة التاسعة عشرة ولم ينقذها إلا رمسيس الثالث .

فرعون وبني إسرائيل

وفي عهد رمسيس الثاني - على الأرجح والمشهور - ولد موسى . وذلك في ظل الخوف والرعب الذي فرضه رمسيس على بني إسرائيل ،

إذ كان قد تورط في سياسة من القتل وسفك الدماء كما قال تعالى في كتابه العزيز :

« إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم » (القصص ٤)

وكان رمسيس الثاني حين تولى العرش عام ١٢١٠ ق. م قد ألقى جالية من العبريين كبيرة سخرها فيما اختط لنفسه واخطط له وزرائه ومهندسوه من العمائر والمنشآت وكانت كثيرة هائلة لا تكاد تقع تحت حصر . وكان على كل حال فيما أثبتت وثائق التاريخ يسخر الأسرى ومن في حكمهم في إقامة ما يريد منها . فلقد حفظ لنا من النصوص عند معبد السبوع بالنبوة المصرية ما يتحدث فيه ستاو نائبه هناك عما كان من استخدامه أسرى من قبائل التمحيو (غربي مصر) في بناء هذا المعبد (١) : وعند معبديه بأبي سنبل ما يتحدث فيه « رمسيس عشاحب » عن ملكه من أنه أتى بأفواج العمال من أسرى سيفه — أو ذراعه — من كل البلاد ، وأنه ملاً بيوت الأرباب بأبناء رتنو (٢) وكان المصريون يتخذون من لفظ رتنو هذا اسماً عاماً لسوريا وفلسطين . وقد تقدم ما ورد في سفر الخروج من استشعار فرعون لخطر بني إسرائيل فيما تحدث به إلى قومه :

« فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّوهم بأثقالهم ، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس » (١ : ١١) .

وقد عثر علماء الآثار منذ القرن الماضي على أطلال هاتين المدينتين وكشفوا عن آثارهما وحققوا اسم كل منهما ، في التوراة ، فردوا الأولى إلى تصنيف في اسمها الأصيل برتوم بمعنى دار أتوم إله الشمس الأكبر الذي عبد في عين شمس في صورة الشمس المكتملة أو التامة ، وردوا

(١) Barsanti et Gauthier, Stèles Trouvées à Ouadi Es-Sebouâ

(Nubie) (in Ann. du Serv. XI (1911), p. 84.

Breasted, Ancient Records III, § 498.

(٢)

الثانية كما هو ظاهر إلى اسم رمسيس ، وعثروا على آثار له تحمل اسمه هناك . وكان قد اتخذها وبنوه من بعده عاصمة لهم باسم بر رع مسمى بمعنى دار رمسيس .

ولم يكن لرمسيس بداهة أن يفجأ الناس - على غير علة ولا سبب - بتلك السياسة عن مجرد مزاج مال به إليها وشهوة إلى الدم عصفت به في قوم أبرياء . وظاهر كذلك من نص القرآن أن فرعون لم يصدر في ذلك عن استبداد برأيه ولا انفرد بذلك بغير نصيح مستشاريه .

« إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين »

إذ شاركه في ذلك من عسى أن نسميه الحزب العسكري بزعامة مستشار ذكر باسم هامان . وهو اسم لا شك - إذا رد إلى أصله بغير تصحيف - من الأسماء المصرية المألوفة الشائعة في ذلك الزمان هو حورمين^(١) . وقد عرف بهذا الاسم رجل من عهد سبتي الأول وآخر من عهد ابنه رمسيس ، كان أولهما كاتب الملك وحامل الأختام والمشرف على حريم الملك ، وكان ثانيهما كاتب القصر^(٢) أو هو بلغتنا الحديثة كبير الأمراء أو رئيس الديوان الملكي ، بمعنى أن كلا من الرجلين قد كان من فرعون في منزلة قريبة تمكن من التوجيه والتأثير ، وقد كنا قدمنا كذلك ما كان لتلك الأسرة المالكة من صبغة عسكرية لا شك واضحة في حياة سبتي ورمسيس .

وأكبر الظن أن رمسيس إنما جارد بني إسرائيل بدخل أوغر صدره عليهم وثقة مفقودة افتقدوها عندهم في حروبه التي استغرقتهم مع الحيثيين خمسة عشر عاماً ، ولعله وجد فيهم ما لم يتعقبوا - ولا هم يتعقبون - اليوم عنه من خيانة وتجارة بولائهم للغالب في ظنهم من المتنازعين . وتعل فيما روت التوراة عن تعذيبهم اعترافاً بخوف فرعون منهم وشكه في ولائهم :

(١) Ranke, Die Agyptischen Personennamen I, S. 248.

(٢) سليم حسن : مصر القديمة الجزء السادس ص ١٦٨ ، ١٦٠ .

« هلم نحتال لكلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربونا ويصعدون من الأرض » (الخروج ١ : ١٠)

ولكن النقيصة التي أخذت على فرعون إنما كانت اندفاعه في العذاب وإسرافه في القتل للمذنب وغير المذنب على سواء .

هناك غير بعيد من بررعمسى ولد موسى ، حيث فرغت أمه إلى الله مما تخشى على ابنها من بطش فرعون . فيقول الله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين »

(القصص ٧)

وفي حديثه إلى نبيه يقول :

« إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى . أن ألقيه في التابوت فاقدفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل » . (طه ٢٩)

واليم في اللغة العربية البحر أو النهر ، وهو كذلك في اللغة المصرية القديمة ؛ إذ اليم لفظة مصرية عرفت في المصرية منذ الأسرة الثامنة عشرة حول القرن السادس عشر من قبل مولد المسيح ؛ وكان المصريون يطلقون على البحر والنهر وما اتسع من لج الماء لفظ اليم ، ومنه جاء اسم منخفض الفيوم بعد إضافة فاء التعريف في المصرية إليه .

على أن الذي يستوقف النظر هنا أن اللفظ ورد في القرآن ثمان مرات لم يذكر في أحداها في غير ما يخص مصر ليس غير ، حيث ذكر بمفهوم النيل ثلاثاً وأطلق على البحر الذي غرق فيه فرعون خمساً فكانما يشير القرآن إلى موضع معلوم كما يدعو أهله باسمه المعلوم .

أدركت أم موسى أن ليس إلى بقاء ابنها معها من سبيل وإلا فهو لا محالة مقتول ، فلتدفعه إذن خفية إلى من يكفله ويتولاه وإلى من يمنحه من الحب وكريم الرعاية ما يعوضه عن الأبوين في غير غمز في نسبه

ولا وضع من شأنه ، وقد عرفت حب المصريين للولد وحبهم على الطفل واستكثارهم للبنين ، وكان المصريون منذ أقدم العصور كذلك ومازولوا كذلك . فلقد حفظ من تراثهم الأدبي ما يحض على التبكير بالزواج والإنجاب ، وكانت قللة النسل في المجتمع المصري القديم من النكبات والمحن التي يشكو منها الأدباء وأهل الحكمة فيه . شكاهم ذلك أيور في عصر الفترة الأولى وتحدث آني عن الإنجاب ، وتحدث الكتاب في رسائلهم بعضهم لبعض : إذ كان عقم الرجل وعجزه عن الإنجاب وصمة تخرجه عن رجولته وعاراً يرمى به ومذلة يعبر بها ، وما كان ليغني عن الرجل ماله الوفور إن لم يكن له ولد ، وما كان ينبغي أبست أن يتخذ من البنين إذ يقول قائلهم : « وأما الذي ليس له ولد فليتخذ عوضاً من البنات يربيه » (١) وما أثر عن رمسيس الثاني أنه كان له ما يزيد على مائة من البنين وستين من البنات كانوا قرة عينه و « أحياءه » يصورهم في معابده فخراً واعتزازاً .

لم يكن لأم موسى إلى أن تعيش مع ابنها من سبيل ، ومع ذلك فكيف تدفع به إلى من يرعاه وهي حريصة على أن تخفي عن الناس نسبه إلى بني إسرائيل . إذن فلتلق به بعيداً عن الحلي الذي تعيش فيه ، حيث يلتقطه من يأخذه ويرعاه ، وما كان لابنها أن يضع في شعب تلك شيمته وهذه خصاله . ومع ذلك فكيف لها مع الخوف والرعب أن ترى وهي تحمله إلى غير حياء دون أن تثير الريب والشكوك ، فلتقذفه إذن في النيل ولنظم من عليه نفساً من النيل وقد علمت من أساطير المصريين أن تاهوت أوسير قد ألقى في اليم فألقاه اليم بالساحل بعيداً دون أن يصيبه من اليم مكروه . « وقالت لأخته قصيه فبصرته به عن جنب وهم لا يشعرون » (القصص ١١) .

(القصص ٨)

« فالتقطه آل فرعون »

(١) عبد العزيز صالح : التربية والتعليم في مصر القديمة ص ١٢ .

والذي لا شك فيه كما سوف تفصل في غير هذا الموضع أن موسى عليه السلام قد ولد في بر رعسى عاصمة وميسس الجديدة التي انتقل إليها ، وأن مولده في أرجح الظن قد وقع بعد العام العشرين من حكمه حين استقر بها في أعقاب حروبه الطويلة .

• وهناك يتعرض الطفل للخطر الذي كانت تفرق منه وتخشاه ؟ فقد أرسلت ابنها لتعلم من عسى أن يلتقطه والبيت الذي ينزل فيه والأسرة التي تربيته . ولكنه يقع بين يدي عدوها وعدوه الذي حرصت على أن تباعد بينه وبين ابنها ، ورضيت في سبيل استنقاذه منه أن يبتعد عنها إلى حين .

ولكن لله حكمة هو مبدئها وأمرأ هو بالغه . فيحميه ويضمن له الحياة ويكفل له التربية الكريمة الناعمة والتعليم الناضج الذي يؤهله لقيادة شعب تعوزه القيادة ، ويؤهله لتعليم أمة أعماها الجهل لحمل رسالة التوحيد . يحميه بالحلب الذي يطفئ على كوابن الشرور وغوائل الأحقاد .

« وألقيت عليك محبة مني ولنصنع على عيني » (طه ٣٩)

« وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا وهم لا يشعرون » (القصص ٩)

ويحمل الطفل اسماً مصرياً شاع في مصر في تلك الأيام هو «موسى» وهو لفظ مشتق من مصدر الولادة بمعنى الولد أو الوليد ، كان يطلق على المصريين أحياناً مجرداً بهذه الصورة ، أو مقروناً بأسماء آلهتهم في أسماء مركبة مثل رع موسى وبتاح موسى وتحوت موسى وأمون موسى ويوعح موسى بمعنى وليد رع ووليد بتاح ووليد تحوت ووليد أمون ووليد القمر . وغير بعيد أن يكون موسى عليه السلام قد سمي بذلك الاسم المجرد الذي ورد وعرف لبعض من عاش أيام الأسرة التاسعة عشرة ، أو لعله سمي باسم مركب مع أحد آله مصر ثم أسقط اسم الإله بعد ذلك . ولقد أجمع علماء المصريات على رد ذلك التفسير الذي قدمناه وخالفوا به ما ورد في التوراة من أن ابنة فرعون دعت اسمه موسى وقالت إني التلثته

من الماء ، حيث رد كاتب التوراة اللفظ إلى اسم المفعول من الفعل العبري « مشه » بمعنى المنتشل أو المستنقذ ، وإن رأى آخرون فيه اسم الفاعل بمعنى المنقذ أو المحرر ، كأن الذين أسموه كانوا يعلمون ما سوف يصير إليه ذلك الطفل اللقيط . ومهما يكن من شيء ، فالذى لاشك فيه ولم يشك فيه كاتب التوراة أن امرأة فرعون إنما كانت مصرية تتكلم المصرية وتفكر بها ، وما كان لها أن تتحدث في حياتها في وطنها بالعبرية حتى تتخذ للطفل - مع كراهة شائعة للعبريين يومئذ - اسماً عبرياً . المصرية وتفكر بها ، وما كان لها أن تتحدث في حياتها في وطنها حتى تتخذ للطفل - مع كراهة شائعة للعبريين يومئذ - اسماً عبرياً . ولذلك فقد رأى مؤرخ اليهود يوسف أن يرد اللفظ إلى أصل مصري واشتقاق مصري مع تقيده بما ورد في التوراة من حيث ارتباط الاسم بما كان من النقاط من الماء ، فقال إن المصريين يسمون الماء مو ويقولون للذى يستنقذ من الماء أوسيس . غير أن حرص يوسف على تفسير يكون مصداقاً لما جاء في التوراة قد حمّله ، متعمداً ، على إغفال معنى لفظ أوسيس المصحوف عن لفظ حمسى المصرى ، وهو أصلاً حتى زمان موسى في الأسرة التاسعة عشرة بمعنى الحميد ، ثم أصبح يطلق منذ الأسرة الثلاثين على الموتى من الفرقى المنتشلين من النيل للدفن ، وإلى ذلك أشار كليمنت الإسكندري من بعده ، فكأنه بذلك قد اتخذ لفظاً بمعنى متأخر عن عصر موسى وطبقه تطبيقاً غير دقيق ولا سليم (١) .

ومع هذا كله فلم يكن اسم موسى بالاسم الوحيد الذى أخذه العبريون ودخل حياتهم من أعلام الأسماء ، بل لقد حملوا من الأسماء المصرية ما سار فيهم مسيرة التهويد التى خص اليهود أنفسهم بها دون سواهم من الناس إذ شاع بينهم اسم فنحاص أو پنحاس وحفى ويوتى لابل (فوطيشيل) بل شاعت بينهم كذلك أسماء مريم وسوزان .

J. Cerny, Greek Etymology of the Name of Mosis (in (١)

Annales du Service des Antiquités de l'Egypte), T. XLI (1942)

ومنها يكن من شيء ، فلقم شاء الله لنبيه عليه السلام أن ينشأ في آل فرعون .

« إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكلفه » (طه ٤٠)
 « وحررنا عليه المراضع من قبل » فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كي تقرر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » . (القصص ١٢-١٣)

المراضع في مصر

وأولا كلمة سبقت من ربك لربي موسى بين من دل القرآن على وجودهن في قصر فرعون من الممرضعات والمربيات الخاضعات . وكان الفراعنة والأثرياء من أهل مصر كما شهدت وثائق التاريخ منذ الدولة القديمة يتخذون الممرضعات والخاضعات المربيات . بل لقد اتخذ أحد الأثرياء من الدولة الوسطى للثلاثة من بنيه ثلاثاً من الممرضعات متعاقبات . وكان للمراضع في أسرة الرضيع منزلة تكاد ترتفع إلى منازل الأمهات الوالدات ، ومن مراضع الملوك من بلغت المنزلة الرفيعة السامية في القصر . فلقد تزوج تحتمس الثالث ابنة مرضعته فبلغت مصاف الملكات ، وبلغ أي زوج مريض نمرتبي إلى أرفع المناصب في الدولة ثم آل العرش إليه من بعد توت عنخ آمون . وكانت الأراضي والضبايع توقف على المرضعة التي تعرف في المصرية باسم منعة ؛ وهو الاسم الذي انحدر إلينا عدماً على بعض البقاع مصحوفاً في لفظ منية والمنيا ، وكان للمرضعة أو الخاضعة من غير شك نصيبها في تهذيب الطفل وتربيته فيما عبر عنه القرآن الكريم بالنصح في قول تعالى : « وهم له ناصحون » .

ودخلت أم موسى الإسرائيلية قصر فرعون مرضعة لولدهم الجديد ، ولعل في ذلك ما يدل على أن حال بني إسرائيل في مصر لم يكن شراً كله ولا نكراً كله إن أبدوا استعداداً للعيش في المجتمع والتعاون بين بنيهم . وقد

كانوا كما قال تعالى : « طائفة منهم » . ولم يكونوا بالطائفة المنبوذة التي لا يتعامل معها الناس أو ينفر منها الملوك ؛ بل لقد كان سائق مرئيتاح رجلاً يحمل اسماً لا شك في صيغته العبرية هو بن يزين . وقد روت التوراة من أمر موسى والتقاطه ما يدل على مكان بني إسرائيل عامة من المصريين وتسامح المصريين معهم : « فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواربها ماشيات على جانب النهر ، فرأت السفط بين الخلفاء ، فأرسلت أمها وأخذته . ولما فتحت رأت الولد وإذا هو صبي يبكي ، فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين ، فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد . فقالت لها ابنة فرعون اذهبي فذهبت ودعت أم الولد ، فقالت لها ابنة فرعون ، اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطيك أجرتك ، فأخذت المرأة الولد وأرضعته ، ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابناً ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشيت من الماء » .

(خروج ٢ : ٥ - ١٠)

فإذا انتهت أشهر الرضاع وطور الطفولة انتقل الصبي إلى طور التعليم والتثقيف . ولا شك أن موسى قد تلقى من العلم ما كان يتلقى المصريون من أبناء الملوك والأشراف في ذلك الأوان ، فتعلم القراءة والكتابة والحساب ، ونسخ الصحائف على البردى بالهبروغليفية وأخيرية واجتهد في مشقتها وتجهيرها وتحسينها ، وتعلم شيئاً من الفلك والجغرافيا وأطرافاً من التاريخ ، ثم قرأ من قصص المصريين وآدابهم وحكمهم شيئاً كثيراً . فقرأ ونسخ تعاليم بتاح حتب وكاجمنى وحرددف ونصائح ختي إلى ابنة مريكارع ، وحفظ من أناشيد المصريين في الشمس والنيل ما قدح قريحته وأخصب خياله ، وقرأ مناظرات الكتاب وما كانوا يديرون بينهم من جدل ؛ فكان أن حصل من هذا وذاك ما مكن له مناهج من التفكير ومن تأويل الأحاديث .

والذى لا شك فيه أن موسى كان مصرياً بفكره ولسانه إن لم يكن كذلك بقلبه وولائه ، ولا شك أن أمه - وهو في حجرها ترضعه وتربيته - قد علمته شيئاً من العبرية فنطق بها وتكلم بعباراتها ثم ازداد علماً بها حين بلغ أشده واختلط بينى جلسته من العبريين فصار لهم عوناً وملاذاً بحكم عقله وتربيته أولاً ، وبحكم صلته بالقصر واتصاله بعلية المصريين ثانياً ، فكان يتشيع للعبريين ويحميهم مما عسى أن ينزل بهم من الشر والمكروه ، وكانوا قد بدءوا يتغلغلون في المجتمع المصري ويتسربون إلى مناصبه كما قدمنا أواخر حكم رمسيس الثانى وأوائل حكم مرنپتاح .

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

ظائفة ذليلة مستضعفة كانت في حاجة إلى زعيم .
 وأمة كبرى تحوى تلك الطائفة فهمي لا تمكنها من ذلك الزعيم .
 ولا تفتح أبواب المناصب لعامة الشعب ولا تتاح منزلة لغير المتعلمين .
 فلما تأذن رب العزة لموسى أتاح له العلم في قصر فرعون من دون العالمين .
 ومهما يكن من شيء ، فلسنا نعرف من حياة موسى منذ مولده حتى صدر شبابه شيئاً ، وأكبر الظن أنه تولى منصباً وتبوأ مكانة في دولة فرعون حيث بدأ كما بدأ أترابه يومئذ كاتباً . وكانت وظيفة الكاتب في مصر مدخلاً لأرفع المناصب وأسمى الدرجات ، وكان المصريون يحضون أبناءهم على ولاية تلك الوظيفة لما يتظرهم فيها من الترقى ولين الحياة والسلطان .
 وغير بعيد أن يكون التحق مع من التحق من أمراء البيت المالك بالحيش^(١) .
 ولقد حدثنا مؤرخ اليهود يوسف على غير سند من التاريخ ولا تأييد من التوراة أن موسى تولى قيادة الحيش ، ولكنه زاد في قصة لا يخفى زيفها ، أنه إنما تولى تلك القيادة بعد رجاء من الملك والأميرة التي تبنته ؛ وأن ذلك

Josephus, Book II, chapter XI; see W. Whiston, The Life (١) and Works of Flavius Josephus (Philadelphia 1957), p. 77 f.

إنما وقع في أعقاب غارة شتمها أهل النوبة العليا^(١) على مصر فأزالوا
بالمصريين هزيمة نكراء فلولوا منهم الأدبار ، حيث تعقبهم النوبيون إلى
منف بل إلى ساحل البحر ، . هنالك استلهم المصريون الوحي فأوحى
إلهم باستخدام موسى الذي قبل القيادة سعيداً منشرح الصدر ، كما سعد
بذلك كهان المصريين والإسرائيليون أجمعين . فأما كهان المصريين فقد
ظنوا أنهم بذلك إنما يتخلصون من موسى ومن المهاجمين في وقت واحد ،
وأما الإسرائيليون فقد ظنوا أنهم يهربون من المصريين بقيادته . ومضى يوسف
فروى أنه تمكن من صد العدو بشجاعته وحسن تدبيره ، إذ تجنب النيل
وسار إلهم براً عبر أرض غاصة بالثعابين الطيارة ، فعبها بفضل ما حمل
من أعداد من طائر الإيبيس وهو أعدى أعداء الثعابين ، ثم أهوى موسى
على النوبيين فقتلهم وعليهم آمالهم في مصر ، وهناك رآته بنت الملك
النوبي فأحبته وأرسلت إليه تعرض عليه الزواج بها فقبل على أن تسلمه
المدينة ففعلت وفعل .

على أن ما نزل ببني إسرائيل من العذاب وقتل البنين قد خفت حدته
وانحسرت سورتة أوانحر حكم رمسيس وحكم مرنبتاح كله فما يبدو . وآية
ذلك ما روى من اقتتال إسرائيلي مع مصري من بعد مصري ، وما بدا
من إلحاحه في الشجار والمجاجة فيه والتهالك عليه . وظاهر أن بني إسرائيل
يومئذ قد استمروا شيئاً من الراحة والأمن وأحسوا بشيء من القوة فتحولوا
إلى مزيد من الإقلاق والشغب ومزيد من الإغراق في الطائفية والانقسام ،
وأكبر الظن أنهم ارتدوا إلى دينهم من محاولة اقتناص الفرص والاستفادة

(١) يخطئ الكتاب المحدثون إذ يخلطون بين أثيوبيا بمفهومها الحديث
وأثيوبيا كما وردت في مصنفات الأقدمين من كتاب الإغريق فيترجمونها
كذلك بالحبشة .. إذ لا ينصرف اسم أثيوبيا القديم إلا إلى بلاد النوبة العليا
وكانت تعرف عند المصريين الأقدمين باسم كاش .

من مصاعب مصر الخارجية والتحرر ما استطاعوا مما فرض عليهم من ربقة مصر التي اشتدت منذ عهد رمسيس . وكانت السنون الخمس الأولى من حكم مرنبتاح غاصة بالحرب والكفاح كما قدمنا .

أما موسى فقد بلغ من تشيعه لبني جنسه وانتصاره لهم أن تورط في واقعة انتهت به إلى الخروج من مصر وفراره منها ، وذلك فيما ذكره الله تعالى في قوله من سورة القصص :

« ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكره موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنما ظلمت نفسي فاعفُ عني فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت عليّ فإني أكون ظهيراً للمجرمين . فأصبح في المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذي استنصره بالأمس يستنصره قال له موسى إنك لغوى مبين »

فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين » . (١٤ - ١٩)

وقع ذلك وقد بلغ موسى أشده واستوى ببلوغه الأربعين ، والله تعالى يقدر للرجل أنه يستوى عقلاً وحكماً ببلوغ الأربعين ، إذ يبلغ أشده باكمال قوة الجسم في نحو الثلاثين ، وقد ذكر عن يوسف أنه بلغ أشده حين راودته امرأة العزيز عن نفسه وزاد عن موسى أنه بلغ أشده واستوى فكان الاستواء في تلك الآية قد وقع موقع بلوغ الأربعين في قوله تعالى من سورة الأحقاف :

« ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب

أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين» (آية ١٥)
 فإذا صبح ما قدرنا آنفاً من تاريخ مقارب لمولد موسى فإنه يكون قد جاوز الأربعين عند وفاة رمسيس في العام السابع والستين من حكمه ويكون مرئيتاح الذي شارك أباه الحكم وقد بلغ من الكبر عتياً - قد تولى السلطة الفاعلة في ذلك الأوان . « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » وما ندري ماذا عسى أن تكون الغفلة التي أخذت أهل العاصمة إذ ذاك . وقد ذكر المنسرون على غير يقين أن موسى - كما يقول النسبي -

« دخل ما بين العشاءين أو وقت القائلة يعني انتصاف النهار وقيل لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق فأخافوه فلا يدخل المدينة إلا على تغفل ؟ » ومع ذلك فظاهر من قوله « أصبح في المدينة خائفاً يترقب » أنه كان مقيماً فيها فلم يدخلها على تغفل ، ولعل المقصود من دخول المدينة أنه دخل جزءاً منها أوجياً فيها ، وذلك كقول القائل من أهل القاهرة إنه نازل إلى البلد وهو يقصد قلبها أو حياها التجاري . كذلك فما أظن أن تخلو العاصمة من الناس وقت القائلة ولأما بين العشاءين وقد وجد فيها رجلين يقتتلان على أمر لهما . وأكبر الظن أن المقصود بأهل المدينة كبارها وأصحاب الحل والعقد والسلطان فيها - أولئك يستطيعون حساب موسى والقبض عليه وإنزال العقاب - إن شاءوا - به ، وقد بدا أن مقتل المصري قد ذاع في الناس صباح اليوم التالي وأن موسى إنما أصبح خائفاً يترقب فعل الشرطة والحاكين عن أمر مرئيتاح .

وما ندري لعل الغفلة التي أخذت الناس وصرفهم حيناً عن فعلة موسى إنما كان ما شغلهم من وفاة رمسيس من حداد عليه وما أخذوا أنفسهم به من إعداده للدفن بالتحنيط والدعاء ، وكان ذلك يشغل الكثرة من الناس ويستغرقهم أياماً تبلغ السبعين . ومهما يكن من شيء فقد انتصر موسى للإسرائيليين الذي ألفاه يقاتل مصرياً روى النسبي أن

اسمه فاتون ، ولا أدري كيف استقام لمفسرى الإسلام هذا الاسم الذى تبدل صبغته المصرية الصحيحة على سند فى الرواية والتواتر موصول ، ذلك أنه اسم مصرى خالص ، وهو مؤلف من اسم الشمس آتون مع فاء التعريف ، ولن يغيب عن القارئ ما بينه وبين اسم أخناتون من شبه وثيق .

على أن موسى بانتصاره للإسرائيلى قد تورط فى قتل المصرى عن غير عمد ، ولكنه مع ذلك عاد فأوشك تارة أخرى أن يتورط فى خلاف جديد بين مصرى آخر وبين ذلك الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس ويستصرخه اليوم ، ولم يجد موسى بدءاً من وصفه بأنه « غوى مبين »

هناك شاع الخبر وأنبشت السلطات المصرية الى ارتاعت كما ارتاع الناس لما ارتكب موسى من قتل رجل والشروع فى قتل آخر ، وربما ارتاعت لما أظهر من عصبية توشك أن تثير الفتنة وتندّر بشر مستطير ، فكان أن قر الرأى على محاكمته بما ارتكب والقصاص منه بما جنت يده . وإن كان موسى قد رأى فى ذلك ظلماً صارخاً وفتناً عنيفاً أن يطلب بقتل خطأ لم يتعمده ولم يرغب فيه ، أو أن يتهم بعصبيته وعنصرية لم يقصد إلى إثارتها ، ولكن الذى لا شك فيه أنه قتل وأن الظواهر وما وقع منه فى اليوم التالى لا تقف إلى جانبه ، ولا تبرئه أو تشفع له فى أى محاكمة يقدم إليها أو تحقيق يتعرض له . ولن يجد فى مصر يومئذ من يحميه أو يحول بينه وبين القصاص . ومع ذلك فقد كان المصريون أحرص الناس على عدالة وأشدّهم استمساكاً بحق ، وحسبهم فى ذلك أنهم جعلوا للعدالة ربة سميت ماعت ، وأنهم كانوا يؤمنون بالمحاكمة إيماناً رسخ فى مجتمعاتهم وعقيدتهم حتى آمنوا بالحساب والمحاكمة فى الآخرة بين يدي رب الموتى أوزيريس على رأس قضاة عدول يبلغون اثنين وأربعين قاضياً ، حيث يتاح للفرع الخطاب والدفاع عن نفسه وإبرائها من الإثم ؛ ثم يوزن قلبه على يد رب الحكمة لتجزى كل نفس ما عملت ، فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وكان الملوك يحبون العدل (٤)

ويحبون الانتساب إليه إذ تسمى رمسيس بلقب حبيب الحق كما تسمى
مرنبتاح بلقب الراضى بالحق .

وكان المصريون قد أسسوا المحاكم وعينوا منذ مطالع تاريخهم في
الدولة القديمة القضاة الذين كانوا يتخذون من رمز العدل حلية يلبسونها في
أعناقهم ، ويحفظون الأحكام مكتوبة في الأضابير . ولم تكن الجريمة
مهما بلغت وفيمن وقعت - ولو على الملك - ليصدر فيها حكم أو قرار
بغير تحقيق دقيق وحكم جهد الطاقة سليم . ومن أنباء المحاكمات أن الرب
والشكوك قد كانت حومت حول الملكة إيميتس زوجة عاهل الأسرة
السادسة بيبى الأول ، فلم يشأ أخذها بما اتهمت به بغير تحقيق عادل
يجرى على الكتمان ، فعهد بذلك إلى وزيره أوني الذى صدع بما
أمر وقام به خير قيام ، وذلك مع حفاظه على السرية ، إذ روى هو لنا
أنباء التحقيق دون رواية الموضوع ، كما وصلت لنا محاكمة المتآمرين على
حياة رمسيس الثالث عاهل الأسرة العشرين فإذا هى مثال من أمثلة
الحياة الحق والعدل الدقيق ، إذ أصدر الملك وهو على فراش الموت مرسوماً
بتشكيل المحكمة وأوصى أعضائها بالعناية حذراً أن ينزل بغير مذنب
قصاص جائر . وكذلك جرت المحاكمات التى مثل بين يديها لصوص
القبور من عهد رمسيس التاسع - رغم فساد العصر يومئذ وفساد الضمائر
والذمم - من حيث الدقة فى استجواب اللصوص وسماع الشهود .

ومهما يكن من شيء ، فقد تحقق موسى أنه مطلوب بدم القتل
وأدرك ألا مظنة فى القصاص ، حيث أقبل عليه مصداق ذلك على
لسان بعض المخلصين من المتصلين بولى الأمر :
« وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون
بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين »

(القصص ٢٠)

ولم يكن لموسى من مناص إلا أن يهرب من مصر حيث لا تناله

هراوات انشرطة من رجال المازوى الأشداء أو تصل إليه أيدي السلطان، وكانت في مصر شرطة منظمة يجند رجالها من قبائل البجاة في أقصى جنوب مصر ويستطيعون الإتيان به .

فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسهقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ۝
(القصص ٢١ - ٢٣)

الفوار

خرج موسى من مصر هارباً حيث ولى وجهه قبل المشرق إلى المخرج من مصر والمدخل الطبيعي إليها . خرج إلى مدين عن طريق سيناء . وقد أقبل على بئر مدين حيث ازدحم الناس بأغنامهم يسهقون . ونظر موسى فإذا فتاتان قد تنحتا عن الناس رقة وضعفاً أن تجاهدا في الرحام ، وقد طفعتا تذودان ما لهما من أغنام أن تختلطا بأغنام المتدافعين المتزاحمين . وتروق الفتاتان موسى وتأخذة الرحمة بهما ، بل لعله أعجب بإحداهما حيث تقدم إليهما متحدتان مستفسراً ، فإذا هما فتاتان لشيخ كبير لا ولد له ، ولا هو يستطيع الخروج لسنه أو استئجار رجل يرعى غنمه لعسره ، وأنها - من غير شك - إنما خرجتا إذن تحت وطأة الحاجة والعوز والاضطرار . لذلك فقد أخذته الشهامة ودفعته الرحمة إلى بذل العون لهما .

« فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إني من خير فقير ۝ »
(القصص ٢٤)

ونعود الفتاتان فتحدثان أباهما بما وقع لهما منذ قليل وقد عادتا هذه المرة مسرعتين . وظاهر أن إحداهما وقد كانت ألحن حجة وأبلغ مقالة ،

قد أفاضت في وصف ذلك الغريب الساغب الذي دفعته التخوة وحرضته الشهامة دون سائر الناس على انسقياء لهما ، حتى أغرت أباهما بالإرسال إليه داعياً إلى طعام وداعياً إلى قسط من راحة بعد وعشاء السفر وسغبه . وأكبر الظن أن الأب المأخوذ بمقالتها لم يجد إلا أن يرسلها في طلبه وهي أكثرها حماسة وحرصاً على دعوته .

« فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » . (القصص ٢٥)

الحمد لله ، فقد أتاه ما هو إليه من خير فقير ، وجنى جزاء ما قدمت يداه للفتاتين من معروف ، ثم أتاه البشير أنه هنا في مدين ناج من بطش فرعون وملكه فلن تصل إليه أيديهم وأن النفوذ المصري قد انحسر عن تلك البقاع .

وقد جنس موسى إلى مضيقه يتحدث إليه ويروي قصته ، ولكن الفتاة أدركت أن الضيف بعد أن طعم وأنس إلى أبيها قد أوشك أن يختم زيارته وينصرف لشأنه ، وقد وجدت في نفسها ميلاً إلى بقائه بل استبقائه ، فكان أن اهتمت إلى أمر عرضته على أبيها وتقدمت إليه فيه .

« قالت يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين » .

(القصص ٢٦)

وأدرك الأب بثاقب فكره ما قد كان يدور في خلد ابنته وما كان يشور في نفسها من المشاعر والأحاسيس ، وأنها مالت إلى ذلك الرجل العبري المصري الغريب الذي أقبل من مصر طريداً شريداً . « قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج ، فإني أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين » .

(القصص ٢٧)

ولعل الرجل قد رأى من موسى خفة على وطنه وحنيناً إليه فلم يشأ إلا أن يرفق في الطلب ويرفق في الإيجاء بالاستزادة . أما موسى فلم يكن لديه إلى غير القبول من سبيل .

« قال ذلك بنى وبينك أبما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على ما نقول وكيل » . (القصص ٢٨)

ولم يكن لموسى من بلد يعرفه ولا وطن يهفو إليه ويتطلع إلى رؤيته بعد ذلك المنفى الذى فرض ، أو قدر عليه سوى مسقط رأسه فى مصر . وكأنى به وقد كان يستعجل الأيام كى يعود إلى ذلك البلد الذى ولد فيه ونشأ فى ربوعه وتنسم هواءه وسعد به ، وهو لذلك لم يقطع على نفسه أطول الأجلين حين العهد مع حسيه فأعطى الأمل وخص نفسه بالخيار ، أو ترك لها على هواها الخيار .

وأقام موسى فى مدين مع زوجه عاماً بعد عام ، حتى أتمهن ثمانى حجج ، ثم زادها عشراً ، فما زالت جريمتها ماثلة لعينيه وخوفه من مرنبتاح يراود فزاده . فتقول التوراة :

« وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات »

(خروج ٢ : ٢٩)

مات مرنبتاح فى مصر وانبعث الأمل بالعودة إليها فى صدره ، وخلفه على العرش ابنه الشاب سبى مرنبتاح ، ولعل فيه أملاً يطمع فيه وسماحة ترتجى ، وقد راود بنى إسرائيل الأمل فيه كذلك إذ تقول التوراة :

« وتهد بنو إسرائيل من العبودية »

(خروج ٢ : ٢٩)

إنه المهاد إذن إلى مصر ، وسيكون فيه الميعاد مع الله .

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلى أتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أنها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة

المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين » .

(القصص ٢٩ - ٣٠)

« وهلم أناك حديث موسى . إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً على آتيكم منها بقبس أو أجدر على النار هدى . فلما أتاها زودى يا موسى . إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » .

(طه ٩ - ١٦)

هناك في ذلك الموقف المشهود الذى وقفه موسى في تلك البقعة المباركة من سيناء عهد إليه ربه برسالته إلى فرعون وملكه :

« وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى . قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى . واضمم يديك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى . لنريك من آياتنا الكبرى . اذهب إلى فرعون إنه طغى » .

« وأن ألقى عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولتى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين . اسلك يديك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهاتان من ربك إلى فرعون وملكه لإنهم كانوا قوماً فاسقين » .

(القصص ٣١ - ٣٢)

ولقد أحس موسى حينئذ بثقل العبء الذى وقع على كاهله . وقد كان وهو عائد إلى وطنه يقدر الأمن بعد الخوف والقرار بعد الفرار ، وقد كان حريصاً على ألا يشير عليه السلطان وقد قتل نفساً لم ينس أنه ما زال يحمل وزرها في ضميره .

« قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلوني » . (القصص ٣٣)

ومع ذلك فما كان ليعود إلى مصر لو لم يكن به اطمئنان أو بعض اطمئنان إلى أنه لن يطلب بدم ذلك القتل إذا حسنت سيرته فيهم واستأنف حياة جديدة خالصة من العدااء والعدوان ، وذلك في عهد الملك الجديد الشاب سيبي مرنيتاح بن مرنيتاح .

أترى إلى أن العقوبة أو الدعوى الجنائية كما يقول أهل القانون قد سقطت بالتقادم أو مضي المدة وإن ظلت ماثلة في الأذهان ؟ ! فقد ذكره فرعون بذلك حين لقيه فنّ عليه أن رباه جده وأحسن مثواه أبوه .
« قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرِكَ سنين . وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين . قال فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهد لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين » .

(الشعراء ١٨ - ٢١)

فقد فر موسى لما خاف ثم عاد حين أمن ، فإن كان ذلك كذلك ففي تسقط الدعوى الجنائية في مصر في ذلك الأوان البعيد ؟ ! فلقد خرج موسى في أعقاب جريمته فراراً من العقاب إلى مدين .

هناك استقبله والد الفتاتين فعرض عليه إحدى ابنتيه على أن يأجره أعواماً كان حريصاً على استطالتها ما استطاع ، ولكنه إنما عرض عليه الأجل الذي لا شك يقبل موسى قضاءه لاجئاً بعيداً عن مصر ودهو السنون الثماني مستوهباً منه - إن شاء - أن يتمها عشراً ، وفي سفر التكوين من التوراة (٢٩ : ١٨) أن يعقوب تقدم إلى خاله لابان مخاطباً ابنته راحيل زوجاً فقال : « أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى » وقد كان لرقم السبعة فيما يبدو منزلة خاصة في عادات الشرق وتقاليده منذ القديم . ولكن صاحب موسى وحماءه - فيما بعد - إنما عرض ثمانى ولم يعرض سبعة ، كأنما تقدم - مع طمعه في عشر - بما لا بد أن يقبله موسى

اضطراباً حتى تسقط العقوبة وحتى يستطيع العودة إلى بلده العزيز الذى لم يعرف بلداً سواه .

• • •

ثم كان ذلك الموقف المشهود حيث نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، وحيث أدرك موسى أنه بذلك مقبل على جليل من الأمر خطير .

« قال رب إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون » .

(الشعراء ١٢ - ١٤)

وقد شرح ذلك مبيناً شيئاً من قلة الثقة بالنفس « قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى إني أخاف أن يكذبون » . (القصص ٣٢ - ٣٤)
ثم توجه إلى ربه بالدعاء :

« قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولى . واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى ، اشدد به أزرى وأشركه فى أمري . كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً . قال قد أوتيت سؤالك يا موسى » . (طه ٢٥ - ٣٦)

• • •

وبعد ، فلعلنا بدراستنا للحياة المصرية والأدب المصرى أن نذكر الحكمة من نزول الآية والمعجزة بالصورة التى شاء الله أن تنزل بها ، فما كانت لتنزل إلا فى أمر من واقع حياة الناس وما يدور بأذهانهم ، فتكون محققة فى أعينهم على غير قاعدة ولا قياس لخارق من الأعمال طالما فكروا فيه وسمروا به وضربوا به فى أغوار الوهم وتخيلوه .

وقد ورد لنا عن الحياة المصرية القديمة من أحاديث السحر والسحارين ما كان الناس يخرجون به إلى عالم الغيب من عالم الشهادة ، ومن دنيا

الواقع إلى آفاق الخيال ، وكان المصريون — فيما تشهد به تلك الأقاصيص — يحبون أحاديث السحر وخوارق الأعمال ، وفيما نسبوه إلى خوف — في بردية وستكار (١) — من حبه السحر وإقباله عليه ما يصور لنا كذلك ما تعلق به أوهام الناس في العصور القديمة من خيالات يردونها إلى السحر ويستعينونه عليها .

وقد كنا قدما ما روى من أن خوفو جلس إلى بنيه يتحدثون إليه ويسمرون معه حيث طفق كل واحد منهم يروي له قصة من غرائب ما روى عن أسلافه من الملوك والكهان ، وهو يستمع إليهم قرير العين منشرح الصدر ، إذ وقف خضرع فحدثه عن كاهن يدعى أوبا أوتر بلغه أن امرأته تعلقت بفتى في المدينة كان يقبل عليها فينفق معها سحابة النهار في جومسق منعزل في الحديقة عند بحيرة الدار ، فإذا قضى منها وطراً نزل إلى البحيرة يغتسل ، فعمد الكاهن فخلق من الشمع كهيئة التمساح ثم ألقيه في البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر ما حوله إلى تمساح مفترس عظيم قضى على الفتى حين نزل إليها ، ثم دعا مليكه ليشهد ذلك ، فما رأى الملك التمساح حتى ارتاع وفرع لمرآه ، ولكن الكاهن ما كاد ينحني عليه ليلتقطه حتى عاد سيرته الأولى دمية من الشمع . ثم وقف بأوفرع فروى عن سنفرو أن كاهنه چاچام عنخ أشار عليه فيما يحس به من كآبة وضيق لم يجد إلى التخلص منهما من سبيل ، بالتزول إلى بحيرة القصر مع عشرين فتاة من الغيد الحسان من فتيات قصره يجدفن ويغنن ، وقد فعل الملك فتسربت إليه البهجة وسرى إلى نفسه السرور بما شهد من فتيات ليس عليهن من اللباس إلا ثياب من شباك لا تستر شيئاً أو لا تكاد تستر شيئاً ، وبما سمع من غنائهن وهن يسرين به في مياه البحيرة وسط الحمامل والأغصان ، لولا ما رأى من توقفهن عن التجديف لما شكك إحداهن من سقوط حلية لها في الماء وإصرارها على حليتها لا ترضى عنها

بديلاً ولا عوضاً وعد الملك به . هنالك دعا سفرو كاهنه الذى قرأ من عزائم السحر ما انشقت به مياه البحيرة حيث انطوى نصف على نصف حتى ظهر القاع ورأى الحلية فالتقطها وردّها إلى صاحبها . فلما كان دور ددفرع إذا به يحدث جلالته عن ساحر يحيا في عهده يقال له جدى ، بلغت به القدرة أن يلحم الرأس المقطوع ويذلّل الأسد لإرادته ، وقد دعى الساحر بين يدي خوفاً حيث عرض سحره عليه وأوقعه بأوزة ثم ثور فصل رأس كل منهما ثم ما زال يقرأ من عزائمه والرأس يقترب من الجسد حتى التحما وعادت الحياة إلى كل منهما .

ولا شك أن ما استعرضنا من تلك الخوارق التى سحر بها المصريون إنما تذكرنا بما نزل على النبيين من معجزات ، فدمية التمساح التى استحالت إلى تمساح عظيم أربب الملك ، فلما التقطه أو با أوزر عاد سيرته الأولى ، إنما تشبه عصا موسى :

« فألقاها فإذا هى حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » . (طه ٢٠ - ٢١)

وتشبه كذلك ما قيل على لسان المسيح : « ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله » . (آل عمران ٤٩)

ثم نجد فى القصة الثانية شهاً بما كان عند خروج بنى إسرائيل « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » . (الشعراء ٦٣)

« ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى » . (طه ٧٧)

ولا شك تذكرنا قدرة جدى على وصل المفصول من رأس الحيوان بقوله تعالى :

« وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم . » (البقرة ٢٦٠)

صدق الله العظيم وجلت حكمته فيما يختار لأنبيائه من القول والفعل .
إنه على كل شيء قدير .

لقاء فرعون

وصدع موسى بما أمر ، وولى وجهه مع أخيه شطر فرعون يدعوه
« وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل »
(الأعراف ١٠٤ - ١٠٥)

ولكن فرعون لم يسمع له ولم يؤمن به
« فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين » . (يونس ٨٣)
بل لقد عمده فرعون إلى السخرية بما سمع من دعوة إلى الله
« وقال فرعون يأيها الملائ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلی أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين » (القصص ٣٨)

ثم كان بين موسى وفرعون جند شق واستطال . وتساءل فرعون
« قال فمن ربكما يا موسى »
« قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » .
« قال فما بال القرون الأولى ؟ »

« قال علمها عند ربّي في كتاب لا يضل ربّي ولا ينسى . الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء

فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك
لآيات لأولى البصيرة . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة
أخرى . (طه ٤٩ - ٥٥)

ويتصل البخدل والحوار

« قال فرعون وما رب العالمين » .
« قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين » .
« قال لمن حوله ألا تستمعون » .
« قال ربكم ورب آبائكم الأولين » .
« قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » .
« قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » .
« قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين » .
« قال أو لو جئتكم بشيء مبين » .
« قال فأت به إن كنت من الصادقين » .

« فأتى عصاء فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء
للناظرين . قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من
أرضكم بسحره فإذا تأمرون » . (الشعراء ٣٣ - ٣٥)

ويردد الملأ من حول فرعون قوله للناس

« قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم
من أرضكم فإذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وأبعث فى المدائن حاشرين .
يأتوك بكل ساحر عليم » . (الأعراف ١٠٩ - ١١٢)
« وقال فرعون اتقونى بكل ساحر عليم » . (يونس ٨٩)

واستأنف فرعون حديثه مع موسى

« قال أجبتنا لتخرجنا بسحرك يا موسى . فلنأتينك بسحر مثله فاجعل
بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى .
قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرناس ضحى .

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى .
 قَالَ خُذْهُمْ مُوسَى وَبَلَغْ لَكُمْ آيَاتِي وَلَئِنْ كَذَبْتُمْ عَلَيَّ اللَّهُ لَسْأَلُكُمْ فِي سَاجِدَتِكُمْ بَعْدَ ابْنِهِ
 وَقَدْ نَخَابَ مِنْ أُفْرِى .

فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى . قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرَانِ يَرِيدَانِ
 أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى . فَأَجْمَعُوا
 كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتَّوَفَّيْتُمْ وَبَلَغْتُمْ أَفْلَحَ الْيَوْمِ مِنْ أَسْفَلِ .
 (طه ٥٧ - ٦٤)

« قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ »
 « قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَنْقُلَكُنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ
 فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ » . (يُونُس ٧٧ - ٧٨)
 « وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ .
 قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ .

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ .
 قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ
 عَظِيمٍ » . (الْأَعْرَاف ١١٣ - ١١٦)

وَنَظَرَ مُوسَى

« فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصْفُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ
 فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى . فَلَمَّا لَا تَخِفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ
 تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » .
 (طه ٦٦ - ٦٩)

« وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ .
 فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، فَغَلِبُوا هَنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ .
 وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ .
 قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا

منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف
ثم لأصلبنكم أجمعين » . (الأعراف ١١٧ - ١٢٤)

« إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من
خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبى » .
(طه ٧١)

ذلك وعيد أى وعيد . وهو وعيد ذكره وانفرد به ذكره القرآن من
دون التوراة ، وهو خبر خليق بالمؤمنين قبوله والإيمان به ، لأنه تنزيل
لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من رب العالمين . ومع ذلك
فقد شاء الله أن نجد مصداقاً لما بين يدينا من القرآن وأن ينحدر إلينا من
وثائق التاريخ نص بصور وسائل التعذيب فى زمان « فرعون » وقال النسفى
إنه أول من قطع من خلاف وصاب . وقد ورد النص عن مرنبتاح الذى
شاع فى الناس أنه فرعون الخروج (١) . وعندى - وسوف أذكر
الأسباب - أن فرعون الخروج إنما كان سبى مرنبتاح بن مرنبتاح بن
رمسيس ، وأنه إنما هدد بما كان استن أبوه فيمن كانوا عليه خارجين .

• • •

وقد تداعى الناس بعد ذلك اللقاء بين السحرة وبين موسى إلى بيوتهم
أن يستأنفوا حياتهم مع دينهم الجديد .

« وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبرا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم
قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » . (يونس ٨٧)

ولكن البطانة من حول الملك وكل الملوك لا تخلد إلى السكون فهى
دائمة القول دائمة التحريض .

« وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض
ويذكروا آلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون .

قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون .

ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون .
فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ؛ وإن تصبهم سيئة يبطئوا بـموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين .
ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . (الأعراف ١٢٧ - ١٣٦)

غير أن الكوارث فيما روى القرآن وردت التوراة قد لحقت بمصر يومئذ سنين فأصيبت بالقحط والعلى والآفات ، ولم تكن مصر على كل حال بمنجاة كما قدمنا مما قد ينزل بها من ذلك على مدى التاريخ ، فربما انحبس النيل فصوح الزرع أو زاد فأغرق البلاد بطوفان عظيم ، وهو على الخائين كما قدمنا نذير التوازل ونقص من الثمرات . فإذا وقعت الواقعة انتشرت بها الأدواء والأوبئة فحصدت الناس حصداً يعجزهم عن تشييع موتاهم إلى القبور . وقع بها ذلك مثلاً في أعقاب الدولة القديمة حيث روى حكيم ذلك الزمان أيوبور أن الناس كانوا يلقون بموتاهم في النيل حتى صار مدفناً ؛ ووقع أواخر الأسرة العشرين حتى اشتد بالناس الجوع عاماً سموه لشدة عام الضباع . ولقد كان المصريون يتخيلون بلادهم بما اندلع فيها من الأوبئة واستشرى فيها من الموت كأن ربهم اللبنة الضارية سخمت قد انطلقت في الناس عاصفة ضارية تنهش

لحومهم وتلغ في دمائهم ، حتى لقد انطبع خيالهم هذا في تصوير معارك الملك ومذابحه الحربية فيشبهونه « كأنه سخمت العاصفة حين المجاعة (١) »

ولذلك فغير بعيد ولا شاذ أن تشحب الوجوه وتعقم النساء ويحل بالناس الضعف والهزال وأن يصابوا — كما ذكر المفسرون — بالتزيف والرحاف فيسيل الدم من أنوفهم لسوء التغذية وعوز الجسم إلى ما يقيم عليه حيويته ، وقد يكون ذلك لعلة غامضة وداء مجهول . وكذلك فغير بعيد — مع الصورة التي أنشأها أيوور أن تقعد بالناس الصحة والهمة عن بذل الجهد للحرث والزرع برغم فيض النيل : — فكيف بالزرع وقد أرسل عليهم الطوفان — وأن تبرك الأرض مزرعة للضفادع — وكانت معروفة في مصر منذ أقدم العصور باسم قرّة — حتى يضيق الناس بها . وكانت مصر عرضة لكوارث الجراد التي تأتي على كل شيء فلا تبقى ولا تذر ، وكفى بالمصريين نقصاً في الثمرات أن يرسل عليهم الجراد ، وكان لكثيره المائلة إذا أقبل مضرب المثل للجيشوش الكثيرة الساحقة ، إذ كان ينزل بمصر منذ أقدم العصور سحبا تكاد تحجب الشمس عن العيون كما وصفته نصوص الأهرام (٢) . وكان الجراد في مصر القديمة معروفاً باسم سنحم كما كان القمل معروفاً باسم كنت وما زال في بعض صعيد مصر يسمى غتغات . على أن مفسري القرآن يرون في لفظ القمل بالقرآن مفهومات شتى ، فقالوا هي الدبى وهي أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها أو البراغيث وكبار القردان وذكرت التوراة في ترجمتها العربية والألمانية البعوض وفي ترجمتها الإنجليزية والفرنسية القمل وهي على كل حال من الحشرات المألوفة في مصر والتي قد تنتشر وتكثر في وقت واحد ، ولذلك فقد نفسر اللفظ القرآني بالحشرات

K.A. Kitchen, Ramesside Inscriptions (Oxford 1971) (١)

Vol. II (fascicle 6) p. 318 line 4, 5.

Pyramid Texts § 891, 1772.

(٢)

عامة وهو في أكبر الظن مفهوم الآية الكريمة والله وحده علام الغيوب .
ومهما يكن من شيء ، فلم تكن أحوال مصر من بعد مرنبتاح مستقرة
ولا هادئة ، ولا تكاد نعرف عن تلك الفترة من تاريخها إلا لمعاً تدل
على اضطراب في الحكم ونزاع على العرش وفساد في المجتمع . ولا شك
— إيماناً بالله وكتاب الله — فيما كان من تعرض مصر لما جاء في الذكر
من سورة الأعراف ، وهو غير بعيد عقلاً واستدلالاً من شواهد التاريخ
وغير بعيد أن تكون السنين الست من عهد سبتي الثاني قد امتلأت بالفصل
الآخر من قصة بني إسرائيل في مصر ، حيث أخذ آل فرعون بالسنين
ونقص من الثمرات بما أرسل عليهم من الطوفان والجراد والقمل والضفادع
والدم آيات مفصلات منجمات عاماً من بعد عام ، وأن يكون ذلك
من عوامل انهيار الأسرة التاسعة عشرة وسقوطها بعد ذلك ، إذ خلف
سبتي الثاني ابنه سبتاح ، ولكنه أوتى الحكم صبيّاً حيث أقامه على العرش
سورى كان صاحب النفوذ في الدولة اسمه باى ، ومع ذلك فلم يجاوز
حكم سبتاح أعواماً ستة لم تخل من نزاع واضطراب ازداد من بعده
حدة وضراً ، إذ انفرد بالسلطان مع خلو العرش سورى لعنه باى نفسه (١)
ودخل حكام الأقاليم فيما بينهم في حروب دامية وصراع طويل ، وأهمل
القانون حتى حرم كل إنسان حقه كما جاء في بردية هاريس فيما صورت
من أحوال تلك الفترة على لسان رمسيس الثالث الذى قبض بعد ذلك
على السلطة حيث يقول :

« قال الملك أوسرماعت رع عاش موفقاً سليماً ، الإله العظيم
للأمراء وقادة البلاد وللمشاة والفرسان والشرادنة وأعداد الرماة وسائر
مواطني أرض مصر .

ألا فانصتوا حتى أنبثكم بفضالى التى فعلت حينما كنت ملكاً
للشعب . لقد كانت سقطت مصر ، وحرم كل امرئ من حقه ، ولم

يكن متحدث باسمهم منذ أعوام كثيرة . . وكانت أرض مصر موظفين وحكاماً يقتل أحدهم أخاه كبيراً وصغيراً . . ثم حل عهد آخر في أعوام خاوية حيث نصب نفسه يرسو السورى أميراً . ففرض على البلاد كلها الجزية له ، وجمع رفاقه ونهب أموالهم ، فعاملوا الآلهة كما يعاملون الناس ولم تقدم قرابين في المعابد .

فلما أن ارتدت الآلهة بالرحمة لتقيم البلاد على الحق كما كانت أحوالها الطبيعية ، أقامت ابنها الذى خرج من جسدها ليكون عاهلاً^(١)

الخروج

ولم يعد لبني إسرائيل ومن تبعهم من المصريين المتهودين إلى البقاء في مصر من سبيل . وقد ضاق موسى والذين هادوا بتلك الحياة التي فرضها فرعون فلم يجد إلا أن يستعدي الله عليه :

« وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ، ربنا ليضادوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيببت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » . (يونس ٨٨ - ٨٩) .

وقد كان موسى وهارون قد حاولا - عن أمر الله - استئذان فرعون في الخروج .

اذهبوا إلى فرعون إنه طغى . فقولوا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى . قالوا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى . فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى » . (طه ٤٣ - ٤٧)

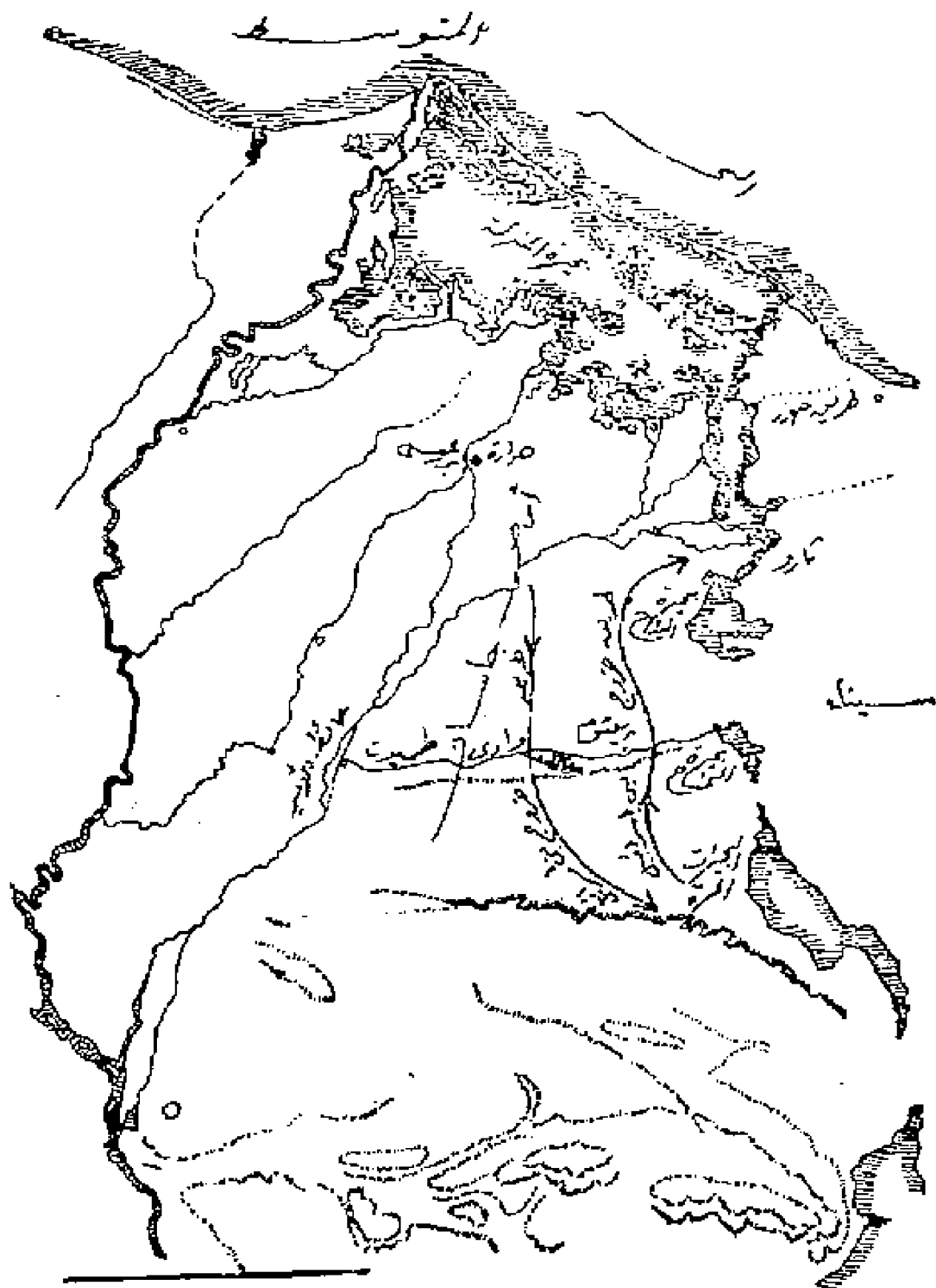
ولم يفلح موسى في استرضاء فرعون ولا إقناعه ، بل لقد وقع بينهما جدل عنيف بلغ حد التراشق بالألفاظ وبلغا إلى نقطة اللاعودة كما نقول اليوم .

« ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشهوراً . »
(الإسراء ١٠١ - ١٠٢)

ولم يعد لبني إسرائيل إلا الخروج من مصر هاربين ، فكان أن أذن لهم رب العرش بالخروج بلين ناجين .
« وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون . فأرسل فرعون في المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون . »
(الشعراء ٥٣ - ٥٦)

وكان موسى قد خبر الطرق من مصر وإليها إذ خرج منها - بعد قتله المصري - خائفاً يترقب على طريق حرص من غير شك أن يكون بعيداً عن العيون والرقباء ، وعاد من غير شك أيضاً على الطريق السوي الذي يسلكه المسافرين ، وذلك كما وقع للأمير سأنوهي بما يقرب من القرون السبعة من قبل موسى .

كان طريق حورس الملكي ينبعث من ثارو - بموضع القنطرة الآن - إلى غزة جنوبي فلسطين ماراً بالعريش ، حيث احتل مكانة خطيرة في الحركات العسكرية التي وجهها الفراعين أو تعرضت لها مصر من قبل جيرانها . ولذلك فقد اشتد حرص الفراعين على تأمين تلك التتخوم التي كانت عرضة لغارات البدو على شرق الدلتا ، وكانت تدابير الدفاع قد اقتضت في الأسرة الخامسة منصباً خاصاً يتولى الإشراف على الأسوار والصحراوات وانقلاع الملكية في منطقة عين شمس ، وذلك لتأمين الطرق وحماية القبة القليلة من الآبار التي يعتمد عليها في سفرهم المسافرون .



خروج بنی اسرائیل
(شکل ۷)

ولقد تحدثت قصة سائوهي عما كان عليه أن يتجنب في فراره من مواقع المراقبة والدفاع التي كانت تغطي النخوم الشرقية بأسرها، حيث قامت كذلك أسوار قوية عرفت باسم أسوار الأمير في موضع الإسماعيلية الآن وقلعة ثوكوت إلى الغرب منها في موقع تل المسخوطة ، وذلك فضلاً عن أبراج المراقبة عند الآبار في الجنوب . وكان على كل مسافر أن يخضع للتفتيش عند مخافر الحدود كما كان على كل داخل إلى مصر أن ينتظر حتى يأتيه الإذن بالدخول . ولذلك فقد اضطر سائوهي في فراره أن يوغل إلى جنوبي بحيرة التمساح عند البحيرات المرة حتى وجد سبيل الإفلات ، وكذلك فعل موسى في أكبر الظن حين هرب من مصر وحيداً إلى مدين ، وكما فعل من بعده وقبيل خروجه بني إسرائيل عبدان آبقان أرسل في أثرهما ضابط حفظ لنا تقريره عن تعقبهما . فقد كتب كاكم ور قائد قوات ثوكوت إلى زميله إيني وباك ن بتاح بحيطهما خبراً بذلك ، ويروي لهما ما تنطس من أخبار الآبقين ، إذ ذكر أنهما مرا بمخفر ثوكوت قبيل وصوله إليه بساعات وثمانين ساعة فاجتازا الحصون الشمالية من مجدل أو قلعة سيني مرئيتاح قبل أن يدركهما ، ثم يقول الضابط صاحب الرسالة « فإذا بلغكما كتابي فاكتبنا إلى بكل ما وقع فها وعمن استدل على أثرهما والمخفر الذي استدل عليه والرجال الذين جندوا في أعقابهما والعدد الذي أرسلناه في طلبهما » (١) .

وقد تحدثت التوراة عن خروج بني إسرائيل أنهم وقد بيتوا النية على الفرار قد « طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً . وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم . فارتحل بنو إسرائيل من رعسيس إلى سكوت نحو ستمائة ألف ماش

(١) Gardiner, Late Egyptian Miscellanies (Bruxelles 1937)

p. 66-67; Pritchard, op. cit., p. 259.



(شکل ۸)

من الرجال عدا الأولاد ، وصعد معهم لقيف كثير أيضاً مع غنم وبقر ومواش وأفرة جداً .
(خروج ١٢ : ٣٥ - ٣٨)

ولا حاجة بنا بعد الذى بينا من قبل فى الوقوف هنا عند تعداد بنى إسرائيل عند الخروج ، وأكبر الظن أن لفظ الألف قد زاد فى الترجمة على الرقم الأصيل ، أو لعله صرف إلى معنى انعداد فترجم على غير مقصده ومرماه ، فقد يؤدى لفظ الألف فى العبرية فضلاً عن المئين العشر معنى السبط أو الإلف بكسر الهمزة والألف ، فكأن العبارة فى مصدرها الأصيل عن المرتحلين من رعسيس إلى سكوت أنهم كانوا سبائة سبط ماش من الرجال .

ومضت التوراة فى حديثها عن خروج بنى إسرائيل فتقول :
« وارتحلوا من سكوت ووزلوا فى ايتام فى طرف البرية . . . ثم أمروا أن ينزلوا أمام فم الخيروت بين مجدل والبحر أمام بعل صفون » .
(خروج ١٣ : ٢٠ ، ١٤ : ١ - ٢)

ولقد جهد علماء الآثار ما استطاعوا فى تحقيق أسماء تلك المواقع فى شرقى مصر وفى مقابلاتها مع ما انحدر إلينا فى الآثار من أسماء المواضع المصرية القديمة^(١) : حيث تعرضت كما وردت فى التوراة للتحريف والتصحيف فقربوا لفظ سكوت بشبيهه ثوكوت وبين مجدل بمجدل سيني مرنيتاح وهما الموضعان اللذان شهدناهما فى رسالة المضابط عن العبدنين الآبقين : وإن ظل بعض هذه الأسماء موضع جدل كثير .

ومهما يكن من شئ ، فلقد اتجه بنو إسرائيل إلى الشرق حتى وقفوا بساحل الماء ، إذ بدءوا رحلتهم بالسير إلى الجنوب كما فعل سائوهي والعبدان الآبقان وكما عسى أن يكون فعل موسى فى فراره إلى مدين ، ثم استأنفوا المسير إلى الشمال حتى وقفوا حيث وقعت المعجزة الكبرى عند بحيرة البلاح التى تخرج من بحيرة المنزلة فى أكبر الظن .



(شکل ۹)

وعلم بذلك فرعون وجنوده .
 « فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا
 لمدركون . » (الشعراء ٦٠ - ٦١)

وحدثت التوراة في ذلك فتمالت :
 « فلما أخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب فغير قلب فرعون
 وعبيده على الشعب ، فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا ،
 فشد مركبته وأخذ قومه معه ، وأخذ ستمائة مركبة مستحبة وسائر مركبات
 مصر وجنوداً مركبة على جميعها ، وشدد الرب قلب فرعون ملك مصر حتى
 سعى وراء بني إسرائيل : وبنو إسرائيل خارجون بيد رقيقة ، فسعى
 المصريون وراءهم وأدركوهم جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه وهم
 نازلون عند البحر عند فم الخيروت أمام بعل صفون .

فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون
 وراءهم ففزعوا جداً وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب وقالوا لموسى هل لأنه
 ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية . ماذا صنعت لنا حتى
 أخرجتنا من مصر أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر
 قائلين كف عنا فتخدم المصريين . لأنه خير لنا أن نخدم المصريين
 من أن نموت في البرية . » (خروج ١٤ : ١٥ - ١٢)
 أما موسى فإنه .

« قال كلا إن معي ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب
 بعصاك البحر فانقلب فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين .
 وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين إن في ذلك لآية
 وما كان أكثرهم مؤمنين . » (الشعراء ٦٢ - ٦٧)

« وجاوزنا بيني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا
 أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من
 المسلمين . الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . » (يونس ٩٠ - ٩١)



(شکل ۱۰)

غرق فرعون كما ذكر القرآن والتوراة . ولذلك فر بما اتخذت طائفة من الناس من غرقه دليلاً يتكبرون به على خروج بنى إسرائيل أن يكون وقع في عهد ملك وجدت في طيبة جثته محنطة . ومع ذلك فليس الغرق على ما يقولون بدليل .

فلقد كانت عادة المصريين وعقيدتهم التي رسخت في الأعماق قد جعلت إقرار الميت في قبره وإجراء الشعائر عليه أهم ما يقدر المصري ويحرص عليه ، وإلا حرم الحياة الأخرى ونعمة الخلود . ولقد تجلت آية ذلك وتجلي فيما خلف المصريين من الأضرحة والتبور ، وفيما كانوا يبدلون من الجهد - ولو اضطروا إلى القتال - في سبيل استخلاص جثة رجل مات أو قتل في الغربية لدفنها في بلده . ولقد كان ذلك واجباً برعاه الملوك وترعاه الدولة وتحمل نفقته في كثير من الأحيان ، ولئن كان ذلك لأواسط الناس في مصر فماذا عسى أن يكون للفراعين من سلالة الأرباب ؟ ! فلا شك إذن بحكم طبيعة المصريين أن تكون جثة فرعون الغريق قد انتشلت من الماء حيث حنطت ودفنت بما تعود المصريون من الدفن الكريم ، ولقد مر بنا أن المصريين قد خصوا الغريق المنتشل فيما بعد بعبارة الحميد « حسي » .

ولقد ذكر الله في محكم آياته غرق فرعون في سورة بولس وذكر تعالى نجاته ببدنه من الهلاك لتكون آية للناس .

« فالיום ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » .

(٩٢)

غرق فرعون ونجا ببدنه ليكون لمن خلفه آية .

ولم تكن الآية لمن خلفه جيلاً أو جيلين ، بل بقيت آية للعشرات الكثيرة من الأجيال والمئات الكثيرة من السنين ؛ وهي إنما صارت كذلك بما مكن رب العرش لأهل هذا المصر من سلطان العلم وأسرار التخطيط .

والى القاهرة يأتى اليوم الحجاج السائحون إلى مصر من كل فج



(شکل ۱۱)

عومين يُعبروا في خطوة واحدة ولحظة عابرة تلك العشرات والآلاف من
سنين . وليشهدوا فراعين مصر في رقدتهم التي كتب على العالمين .
هذا رمسيس الثاني بشعره الأبيض وما زان به أثر الخضاب بالخناء .
(شكل ٨) . ثم هنا مرنيتاح شيخاً أوسع وقد كان بادناً (شكل ٩) .
ثم هذا سيني مرنيتاح أو سيني الثاني (شكل ١٠) .
ذلك من آيات الله .

وهي آية تتمثل في كل هؤلاء وفي غيرهم من الفراعين ممن نراهم
راقدين . واحد من هؤلاء كان يعذب بني إسرائيل فيذبح أبناءهم
ويستحي نساءهم . ثم واحد من هؤلاء رفض ملة موسى وكان صاحب
خروجهم من مصر . ومع ذلك فما زال ايقين عند صاحب اليقين
وما زال العلم عند رب العلم يؤتيه من عباده من يشاء وهو علام الغيوب .

ما بعد العبور

وبعد . فلقد أفلت بنو إسرائيل من فرعون وجنوده وانطلقوا إلى
سيناء . وشغل المصريين عنهم بمصيبتهم في ملكهم الغريق وتوزيع
خليفته الجديد . ولعل المصريين قد كفوا عن تعقبهم هناك وقد عرفوا
أنهم طائفة هاربة لا تبغى سوى النجاة ولن يكون منهم على مناجمهم
في سيناء من خطر يحدرون . وكانت سيناء منذ أقدم العصور من أوفر
مصادر مصر بالثير وزج والنحاس . حيث تركت بعثات التعدين كثيراً
من النقوش في وادي مغارة وصراييط الخادم ، وكان المهندسون والعمال ممن
يلتجئون إلى سيناء يتعبدون لآلهة حتحور ربة تلال القير وزج طالين
إليها الحماية والأمن ويقرّبون إليها الحمد والثناء على ما تقدم إليهم -
في عقيدتهم - من خير .

ولقد اقتضى استغلال المناجم المنتظم وقيام مجتمعات العمال فيها
قيام معبد منذ الدولة الوسطى لآلهة حتحور في صراييط الخادم نرى أطلاله

اليوم (مصورة في شكل ١١) . والذي لا شك فيه أن بني إسرائيل قد اتبعوا
 الدرب الذي كانت قوافل التعددين تسلكه إلى تلك المناجم في سيناء وأنهم
 مروا بتلك المناجم في تجوالهم هناك . حيث أشار القرآن - وحده - إلى
 مجتمع مقيم حول عبادة له في تلك النبقاع . ولقد أحسن بنو إسرائيل بحكم
 مقامهم في مصر واحتلالهم بالمصريين واتخاذهم حضارتهم بالحسين إلى
 حياتهم الأولى وتعاني قلوبهم بأرباب المصريين التي كانوا - معهم - يعبدون .
 « وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أحنام
 هم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون » .

(الأعراف ١٣٨)

لذلك فلم يكمد موسى يتركهم لميقات ربه حتى تداعوا إلى عبادة
 العجل واتخاذ التماثيل .

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه
 أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصدع ولا تتبع
 سبيل المنفسدين » ... « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً
 له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين » .
 (الأعراف ١٤٢ : ١٤٨)

وأخبر الله موسى بضلال قومه .

« وما أعجلك عن قومك يا موسى » . قال هم أولاء على أثري وعجلت
 إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري :
 فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ... قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً
 أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يجل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم
 موعدى . قالوا ما أخلفنا موعدك بمكنا ولكننا حملنا أوزاراً من زينة
 القوم فخذفناها فكذلك أتى السامري فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار
 فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى » . (طه ٨٣ - ٨٨) (١) .

وكانت عبادة العجل في مصر قديمة امتدت منذ أقدم عصور التاريخ حتى دخلت المسيحية وغلبتها فيها. وقد عرف أشهر تلك العبادات باسم مرور وحبي (منيفس وأبيس في تصحيف اليونان) حيث عبد الأول في عين شمس رمزاً لإله الشمس والثاني في منف مدينة بتاح رمزاً لبتاح . وكان بتاح هذا يتمتع على عهد الأسرة التاسعة عشرة بالدرجة الرفيعة والمنزلة السامية ؛ كذلك حرص أمراء تلك الأسرة من أمثال مرنبتاح الذي صار إليه الملك من بعده رمسيس الثاني على تولي منصب الكاهن الأكبر للعجل حبي (أبيس) ومن قبله كان أخوه نخعمواس كاهنه الأكبر كذلك ، وذلك فضلاً عن عبادات أخرى اتخذت صورة العجل في مصر مثل مين ومنتو .

وكذلك عبدت حتحور في صورة البقرة وكانت في عقيدتهم مرضعة ربهم حور بن أوسير ، ثم ربة الحب والحنان والموسيقى ثم صارت ربة للمجبانة ترعى الموتى وترأسمهم ؛ وكانت صاحبة ألقاب ونعوت كثيرة منها « الذهبية » أو ربة الذهب و « صاحبة القلادة البراقة كالسماء بنجومها » ، كما كانت لها تماثيل مموهة بالذهب حفظت بمتحف القاهرة مثل منها .

ومن المحقق أن بني إسرائيل باتخاذهم العجل من بعد موسى إنما كانوا لما اعتادوا في مصر من الآلهة مرتدين ، وإلهم إنما اتخذوه من حلهم من الذهب فتنه بحتحور الذهبية وما كان لها من منزلة في النفوس ، وذلك فضلاً عما تأثروا به من حب المصريين للذهب وصنع تماثيلهم الثمينة منه . وما ندري لعل لله حكمة فيما كان من أمره بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة وأنها « بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » ولقد كان البقر في مصر من أنواع وألوان ، حيث كان فيها كذلك الأحمر والأسود ونوع آخر لا نراه اليوم يجمع بين البياض والأسود ويشبه ما هو معروف في أوروبا اليوم . ولعل فيما أبداً بنو إسرائيل من تلكؤ ومراوغة

في ذبح البقرة وما كان من تنطعهم في التساؤل عنها وعن لونها من أثر ما كان وقر في نفوسهم من تقديس حثحور .

« وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتعذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارص ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون » . (البقرة ٦٧ - ٧١)
ولئن كان خرج بنو إسرائيل من مصر فقد ظلوا منها على تذكر وحنين ، فلقد ضربوا في سيناء حيث وجدوا حياة فيها مع البساطة الحرية والأمن وفيها الخلاص مما كانوا يؤرقهم من الذلة والخوف ، وفيها من الرزق ما يأتيهم حلالاً سائغاً بغير مشقة ولا جهد .

« وأوحينا إلى موسى إذ استسقاء قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم » (الأعراف ١٦٠)

كانوا يحدون المن أو العسل البري يشتارونه في غير مشقة ولا جهد وكانوا يحدون السلوى أو السمانى وغيراً يسيراً صيده ، وكانت سيناء وما زالت قبلة للأفواج الكثيرة من طيور الهجرة تقبل في الحريف متعبة مرهقة بعد عبور البحر ، فما إن تجد الأرض حتى تحط فلا تكاد حتى تستريح تريم ، فإذا لاحت نباشير الربيع عادت إلى اجتياز سيناء في طريقها إلى البحر تعبره إلى حيث تقيم .^(١)

ومع ذلك فلم يرض اليهود بما نزل عليهم من رزق الله، إذ كان الذل الذي احتملوه في مصر أحب إليهم من الحرية في الصحراء، وقد تبعوا موسى في الخروج مكرهين، ألم يذكره عند شاطئ البحر بقولهم : «كف عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية» .

فتذمر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون في البرية : وقال بنو إسرائيل لئيتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع « (خروج ١٦ : ٢ - ٣)

ثم طفقوا يعددون ما كانوا يجدون في مصر من الخير وألوان الطعام : «فعاد بنو إسرائيل أيضاً وبكوا وقالوا من يطعمنا لحماً ، قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم ، والآ ن قد يبست أنفسنا ، ليس شيء غير أن أعيننا إلى هذا المن » (عدد ١١ : ٤ - ٦)

وفي إعجاز قرآنه العظيم أخبر الله بذلك نبيه في سورة البقرة قال : « وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . (البقرة - ٦١)

كانت وجهة موسى بعد الخروج أرض كنعان ، فيقول كاتب التوراة « وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة ، لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر » (خروج ١٣ : ١٧)

على أن موسى قد طفق يوالى رسالته ، فيتحمل ما حمل من قيادة (٥)

هؤلاء الناس وقد جعلهم الله أحراراً ، مملوكاً لأنفسهم ، مملوكاً لأرزاقهم ، وآتاهم من ظلال الغمام والرزق ما لم يؤت أحداً من العالمين ، فهو يريد الخروج بهم من سيناء إلى أرض كنعان ، ولكنهم بما ضرب عليهم من الذلة والمسكنة وما رسخ في أعماقهم لذلك من البلب والخوف إذا هم يتقاعسون ، كما كانوا عند خروجهم من مصر متقاعسين . وكذلك استشعروا من دخول كنعان .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم مملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا تردوا على أديباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ، قال رجال من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين .

قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » . (المائدة ٢٠ - ٢٦)

وما كان لموسى إلا أن يرفع شكاته إلى الله في أمر أتباعه الفاسقين فكان أن حقت عليهم كلمة الله وحكمه بتحريمها عليهم وبتيهم في الأرض إلى ما شاء الله .

• • •

وبعد ، فأما وقد خرجوا من مصر يهيمون في الأرض فقد خرجوا كذلك عن نطاق ذلك الكتاب ، ولذلك فلنذرهم هائمين لنعود إلى ما قدر لمصر من حظ وما حظيت به من صفة في كتاب الله ، وسنة رسول الله .

موطن بني إسرائيل في مصر وفرعون من القرآن

دل القرآن على مقام بني إسرائيل في مصر من جملة آيات من كتابه العزيز : فلقد ولد موسى ونشأ حيث كان أبواه وشيعته يعيشون في عاصمة مصر أو عندها غير بعيد من مقر فرعون ، وآية ذلك أن أم موسى قد أُلْقَتْ في البحر « وقالت لأختها قصيه فبصرت به عن جنب » . ولم يبتعد تابوت موسى إلا بمقدار مسرى النيل المادى ضحوة من نهار وبمقدار ضيقة الفتاة أو الضبية على المسير من ورائه حتى ألقاه البحر بالساحل فالتقطه آل فرعون ، وبمقدار طاقها على العودة إلى أمه لترد بها متقدمة إليهم في إرضاعه وكفالاته .

« إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن » . (طه ٤٠)

ثم دل على مقام بني إسرائيل - حين تقرر خروجهم بليل وتلقى موسى أمر ربه « فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون » . (الدخان ٢٣)

ولم يبتعد بنوا إسرائيل عن العاصمة إلا بمقدار مسيرهم بين منتصف الليل ومشرق الشمس ، إذ خرج فرعون وجنوده في طلبهم مشرفين على البحر حيث أدركوهم حين تنفس الصبح مع مطلع الشمس أو داخلين وقت شروق الشمس كما يقول المفسرون في قوله « فأتبعوهم مشرقين » فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إذا المذركون .

(الشعراء ٦٠ - ٦١)

كان بني إسرائيل إذن يسكنون إلى الشمال الغربى من البحر الأحمر وخليج السويس ، وكان مقامهم هذا في وادى طميلات غير بعيد من عاصمة مصر آنذاك ، وذلك في البقعة التى سميت في التوراة أرض جاسان مصحوفاً عن لفظ جسم أو جاسام ، حيث فرضت على بني إسرائيل السخرة « فبنوا لفرعون مدينتى قيثوم ورعمسيس » .

كانت عاصمة مصر إذن على عهد يوسف أيام احتلال الهكسوس كما كانت على عهد موسى تقع شرق الدلتا ، ولذلك فما ينبغي في فرعون موسى إلا أن يكون ممن كانت عاصمتهم هناك . ولا سبيل إلى الأخذ بغير ذلك من قول . فلقد ظلت طيبة في صعيد مصر عاصمة مصر من بعد الهكسوس حتى عهد رمسيس الثاني الذي نقل مقر حكمه منها إلى مدينة أنشأها على أنقاض مدينة الهكسوس سماها « بر رعسي مري آمون عانختو » بمعنى « دار رمسيس حبيب آمون عظيم الانتصارات » وكان المصريون كثيراً ما يكتفون بصدر الاسم دون نعوته فيقولون بر رعسي كما كان يفعلون من أسماء مدنهم ومواقعهم الجغرافية ما صدر منها بلفظ « حوت » و « بر » بإسقاطه فيصير — كما جاء في التوراة — رمسيس ليس غير ، وربما كان في قرب أرض جاسان من العاصمة على عهد رمسيس ما دعا كاتب سفر الخروج من بعد أمة من الزمان إلى تسميتها أرض رمسيس بدلاً من أرض جاسان ، وكانت تمتد من غير شك حتى برزوم — فيثوم — كما تمتد إلى الغرب حتى المدينة التي أضفت اسمها على هذه البقعة كلها وهي جاسام . ويبدو أن هذا الاسم إنما عرف أول مرة في أنشودة تصف سنوسرت الثالث بأنه درع نحاس من جاسام ، حيث ينصرف المعنى إلى صلابة القلاع في جاسام كأنها النحاس ولم تكن هذه القلاع سوى قلاع امنمحات الأول التي كان أقامها على حواف الأرض المزروعة^(١) . ولقد استقر القول في تحديد موقع جاسان حيث عثر على زون لعاهل الأسرة الثلاثين نخت نبف (نكتانيبو الأول) في صفت الخنة إذ ورد فيه أن الملك تكرىماً لأبيه سويد رب المشرق قد ذهب إلى جسة عن مشورة من ربه الأقدس في هذا المكان فأقام في هذا الزون تمثال هذا الإله .

فرعون

عرف عاقل مصر في عصورها القديمة باسم فرعون : وهو لقب اختص به كما اختص كسرى عند الفرس والشجاشي عند الأحباش من ملوك العالم القديم . وعن فرعون تحدث التوراة وبه نطق القرآن ، فجاء في العبرانية بنطق فرعو . وفي العربية فرعون : ولم يكن هذا اللفظ سوى تصحيف للمصريين فرعون بمعنى البيت العظيم ، وكان يكنى بذلك العبارة منذ الدولة القديمة عن قصر فرعون دون شخصه ، أو يكنى بها أحياناً عما يتصل به من شئون القصر والحاشية . فكان المصريون إذا ذكروا اسم الملك اتبعوه بالدعاء له بالحياة والرفاهية والسلامة ، وكذلك صاروا يتبعون إذا ذكروا فرعو ، وإن ظل المقصد راجحاً إلى معنى البيت العظيم .

على أن دلالة اللفظ على شخص الملك نفسه لم تثبت إلا منذ الأسرة الثامنة عشرة على عهد أخناتون - إذ لقب بذلك على بعض آثاره كما خوطب به في بعض ما وجه إليه من الكتب . فمما كانت الأسرة التاسعة عشرة - وهي أسرة رمسيس الثاني وبنيه - ذاع اللقب فيها ورد عن الملك من الخبر والخطاب - وحل في أحيان كثيرة محل لقب الجلالة فقبل خرج « جلالته » أو خرج فرعو على سواء^(١) .

ومهما يكن من شيء ، فإن القرآن لم يذكر « فرعون » إلا فيما روى من نبي موسى ولم يذكره مرة واحدة فيما أورد من سيرة يوسف عليهما السلام . وتلك دقة الإعجاز التي قد لا تتوفر لأحرص الناس من العلماء والمؤرخين ، فلم يكن لقب فرعون بدلالته على ملوك مصر ذاتها في ذلك الزمان من عهد يوسف ، ولم يكن الملك الذي دخل يوسف في خدمته مصرياً فيستحق لقباً اختص به الملوك من المصريين ، بل كان

أجنبيّاً يناصبهم ويناصبونه العداء ، كذلك لم يكن الملك هو بطل القصة كي يخصه القرآن بالنقب بفردة ويشبه إليه ، ولكنه آثر فرعون موسى بذلك النقب الذي أطلقه اسماً له وأجراه علماً عليه تمييزاً من سائر الملوك وقصراً عليه وحده لما وصفه به من المروق والطغيان ، ذلك الطغيان الذي صار اسم فرعون - بغير الحق - في نظر الناس علماً عليه . ولقد شاء الله - مع عزوفه عن أن يسمى فرعوناً بذاته - أن يعينه ويختص واحداً من سائر القراعين ، ذلكم هو الفرعون الذي صحبه وخدمه رجل من خاصته هو هامان أو حورمين ، وذلك حين الحديث عن أرسل إله موسى بالدعوة وجهه بالتحدي والتكذيب فحقت عليه الكلمة ، إلا أن يكون مفهوماً متعيناً من سياق الآيات .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب » (غافر ٢٣ - ٢٤)

« وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين . فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته النصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

(العنكبوت ٣٩ - ٤٠)

« إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » . (القصص ٨)

« وارى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »

(القصص ٦)

وفي غير ذلك يتعين فرعون بداهة فيما يوجه الله من حديث عنه إلى موسى وقومه أو فيما يجري بين موسى وفرعون من حوار . أما التعميم في أول القصص فينصرف الخبر فيه إلى ما وقع لموسى مع من عاصر من فرعون حكم مصر ، وذلك في قول له تعالى :

« طسم ، تلك آيات الكتاب المبين . نتلوا عليك من نبأ موسى

وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها
شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان
من المفسدين » (١ - ٤)

وذلك فضلاً عن الحديث عن آل فرعون .

كان فرعون مصر ملكاً قوى النفوذ واسع السلطان ، وصفه الله في
قرآنه العظيم بأنه « فرعون ذو الأوتاد » وهو وصف جمع في إعجاز
معجز روعة البلاغة وغزارة البيان ، وذلك في تصوير قرآني محكم يوحى
في النفس بإحساس الهول والشموخ حين نستحضر صورة الجبل الباذخ
في قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً » . (النبأ ٦ - ٧)
ولقد تمكن فرعون فكانت له فيها أوتاد أي أوتاد ، ولئن صح
وهو الأرجح أنه رمسيس الثاني وبنوه ، فلقد كان له من الآثار والمعابد
في أنحاء مصر كلها ما يهول بكثرته وعظمته وشموخه العقول ويحير
الأوهام ، وهي دليل ناصع على قوته وسطوته وبيان ناطق على سلطانه
في جيوش من العمال وفيالق من المقينين وكتائب من المهندسين ، كانوا
كأنهم جن سليمان يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وصروح
راسيات . ولعل في تلك الآية من سورة ص وأختها في الفجر تنبيهاً إلى
ملك فرعون في مصر وما فيها من آيات العظمة والشموخ .

على أن صورة الوند من الحيمة قد سيطرت على فكر عرب المفسرين
فقدروا الأوتاد مضارب كثيرة لأجناد له كثيرين ، أو كانت له أوتاد
يلعب بها ، وفسروا كذلك الآية بأنه ذو الملك الثابت وذلك من ثبات
البيت المطنب بالأوتاد وذلك من قول العرب لمن تمكن في أرض إنه
ضرب بها أوتاداً من الخيام .

كان لرمسيس - حقاً - أجناد كثيرون نخاض بهم مع المشرق
حرباً عواناً وحافظ بفضلهم على إمبراطورية عظيمة امتدت من الفرات
في أقصى الشمال إلى الشلال الرابع في أقصى الجنوب . ومع ذلك فما بال



(شکل ۱۲)

تفسرين يقولون إنه كانت فيه أوتاد يلعب بها يا ! ومذا عسى أن تكون
هذه الأوتاد التي يلعب بها فرعون وذكرها الله مرتين — دليلاً على الشجيرة
بين الشجيرين : ألم تر كيف فعل ربك بعاد . يرم ذات العماد .
التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابها الصخر بالواد . وفرعون
ذي الأوتاد . (التجوير ٦ - ١١)

أفلم يتظروا إلى المسلات باسقات لها طرف حديد : فإن كان
فرعون من أوتاد يذكرها له القرآن فلتكن تلك المسلات الرائعة تصطبغ
فارعة في السماء من كتلة واحدة صقيلة من الجرانيت ، وقد تعلو فتجاوز
قوامها عشرين قامة من ذلك الصخر الشديد . أو تكن تلك الأعمدة
والأساطين صافات كأنها كثيف الغابات في أروقة المعابد وأبوابها ،
ومنها — كما في الكرنك — ما تنق في ارتفاعه فاستغاط فاستوى على سوقه حتى
لتنصر العصبية أو البسطة في الجسم باعاً أن تحديق بواحدتها . (شكل ١٢)
أو تكن الصروح التي تقوم بين أيدي المعابد قوية راسخة كالجبال .
بل لقد عبر القرآن عما اعتاد الفراعنة من بناء شامخ الصروح في قوله تعالى :
« وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان
على الطين فاجعل لي صرحاً لعلني أطلع إلى إله موسى » (القصص ٣٨)

فأوقد لي يا هامان على الطين !!!

على أن ما عرف عن فراعنة مصر وما تشهد به اليوم آثارهم أنهم
كانوا ينشئون ما شاءوا من الحجر — وهو كثير واغفر يغنيهم عما سواه —
إن أرادوا لما ينشئون الدوام والخلود . فكانوا يتخذون منه المعابد والمسلات
والقبور وهم يصطنعوا الطين المحروق ، ولغير ذلك كانوا يتخذون اللبن
من طين غير محروق ، فكانوا يتخذون منه بيوتهم سواء كانت للعلية
والنزل أم للعامة وغمار الناس .

وربما تردد القارئ فيما يسمع من قول الله في أمر فرعون أن يوقد

له على الطين ، وقد عرف أن المصريين فيما خلفوا من آثارهم لم يتخذوا
الآجر المحروق في البناء قبل عصر الرومان . ولكن المفسرين يذكرون
في تفسير أمر فرعون إلى هامان أنه أول من عمل الآجر فهو يعلمه
الصنعة بهذه العبارة ، وقد نقول بعبارة أخرى إن البناء بالآجر المحروق
قد كان يومئذ في طلائع استعماله . وأكبر الظن أن المفسرين - كما بدا
لنا من قبل - قد كانوا يستندون إلى طائفة كانت بين أيديهم من الخبر
الصحيح وإن اختلط كذلك بما لا قيمة له من الأوهام .

ومها يكن من شيء ، فلقد أعثرنا الأحافير على ما يوافق أقوال
المفسرين من حيث البناء بالآجر . عثر عالم الآثار الإنجليزي پترى
على طائفة من غير مألوف المصريين من الآجر المحروق ، بنيت به
قبور كما أقيمت به بعض من أسس المنشآت ، وقد كانت هذه
الأمثلة التي عثر عليها من عصر الأسرة التاسعة عشرة ، عصر رمسيس
الثاني ومرنپتاح وسبتي الثاني ، وكان عثوره عليها في نبيشة ودفنة غير بعيد
من عاصمتهم شرقى الدلتا . وقال پترى في ذلك إن حرق اللبن قد
ظل نادراً حتى عصر الرومان^(١) . وهو قول لا يكاد يخالف قول
المفسرين من بدء اتخاذ الآجر المحروق على عهد فرعون موسى .
وهو كذلك من قرائن القرآن التي نتخذها مطمئين في تحديد عصر
الخروج ، وبأنه إذن إنما كان على عصر الأسرة التاسعة عشرة التي
بدأت - كما أثبتت الحفائر وألع القرآن - تصطنع في بنائها
الآجر من طين محروق .

وبعد، فلعل الذي ذكر القرآن في دمار آثار فرعون أن يدل بقوة
التعبير عن قوة ما تناول التدمير . . . روى أن الخليفة المأمون العباسي
لما أقبل على مصر فأقام فيها أياماً لم تعجبه فقال ألا قبح الله فرعون ،

ماذا أعجبه في مصر حيث يقول : « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي » ؟ فقال له أحد جلسائه « يا أمير المؤمنين ولقد قال الله تعالى : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » ؟ »
 فإذا كان هذا هو ما بنى مما دمر الله فكيف كانت مصر قبل ذلك ؟

فرعون الخروج

على أن عذاب بني إسرائيل - كما ذكرت التوراة - إنما وقع في عهد فرعون ووقع خروجهم في عهد فرعون من بعده سواء ، ولئن دلت القرائن على أن رمسيس الثاني قد كان فرعون العذاب فقد شاع بين المؤرخين والكتاب وأقروا على ابنه مرنبتاح هو واقعة الخروج ، وذلك بحكم خلافته لأبيه أولا ، ثم بحكم ما عثر عليه من نص يوشك أن يكون أشهر النصوص المصرية القديمة وأوفرها حظا من عناية المؤرخين ثانياً . ذلكم هو نشيد النصر الذي نقش على لوح يحمل العام الخامس من عهد مرنبتاح ويعرف بلوح إسرائيل ، إذ ورد اسم إسرائيل عليه لأول مرة في التاريخ فكان مرنبتاح بذلك الوثيقة الخطيرة في رأي الكثيرين وإيمانهم الراسخ صاحب الخروج ، ومع ذلك فقد أثار ذلك النص من الشكوك والجدل وانشعب الآراء ما لم ينته إلى قرار يقين .

نقش ذلك النص في العام الخامس من حكم مرنبتاح ، وذلك في أعقاب النصر الأكبر الذي أحرزه على شعوب البحر المتوسط وقبائل الليبيين ، وكان خاتمة لما أحدث في مصر في عهده من أخطار في الشرق والغرب ، حيث أحس الناس أن قد آن لهم أن يتمتعوا بالسلم بعد الحرب وبالأمن بعد الخوف . وقد أزيح عن كاهلهم بذلك عبء

كأنه جبل من نحاس كما يصف النص في بعض مواضعه ، وهو يشيد
لذلك بقوة مرينتاح وشدة بأسه وشجاعته ويلهج بما أحرز من ظفر
بالأعداء والحصاة والثائرين ، وهو في أثناء ذلك يحصى من غلبهم من
القبائل والشعوب ومن بينهم إسرائيل فيقول :

الشمس قشقت غيماً كان على مصر
ومكنت مصر أن ترى شعاع الشمس
فأزاحت جبلاً من نحاس عن كاهل الناس
فمنحت الأنفاس للشعب الحبيس .

إنه الوحيد الذي ثبت أفئدة المئات من الألوف
إذ تدخل الأنفاس إلى أنوفهم .

الفرح العظيم حل بمصر
والحبور انطلق في مدائن مصر

إذ يتحدثون عن النصر الذي أحرزه مرينتاح الراضى بالعدل
في تخو. أحجب بالحاكم المنتصر
وما أعظم الملك في الأرباب
وما أسعده سيداً للحكم
وما أحلى الجلوس والناس يتسامرون
إذ يمشى المرء وسيع الخطى فلا خوف أبداً في قلوب الناس
وقد هجرت القلاع لنفسها

وفتحت الأبواب للرسول
ومتاريس القلاع آمنة في الشمس حتى ينهض الحراس
والمازوى (الشرطة) ممدون نائمون

والنياو والتكتن في المروج كما يشاءون
 وأنعام الحقول تركت تمرح بغير راع
 بل تعبر لج الجعفر
 ولا تنطلق صرخة ما في الليل أن قف
 إذ أتى آت بلغة أجنبي
 بل يغدو الناس ويروحون بالغناء
 فلا صباح للناس كما يكون في الأحزان
 وأسست المدائن من جديد
 فحارث حصده سوف يأكله
 فلقد عاد رع إلى مصر
 ذلك الذي نشأ مقدراً عليه حمايتها .

الأمراء جاثون يقولون سلام
 ما من أحد يرفع رأسه من بين الأقواس التسعة
 القضاء على نخنو
 ونحيبنا آمنة
 ونهبت كنعان بكل سوء
 وأخذت عسقلان وقبضت جازر
 وجعلت يافوعام كأن لم تكن
 وإسرائيل خربت وانعدمت بذرتها
 وصارت سورية أرملة لمصر
 البلاد كلها مجتمعة في سلام
 وكل من كان في ثورة جعل في الأغلال
 بيد ملك الصعيد والدلتا بان رع حبيب أمون
 مرنتاح الراضي بالحق

وقد رأت طائفة من المؤرخين من هذا اللوح أن إسرائيل إن كانت قد تعرضت في فلسطين لحزيمة مرنتاج ، فقد انبغى بالضرورة أن يكونوا خرجوا من مصر واستقروا ، بعد أربعين عاماً من التيه ، في فلسطين في عهد سلف من أسلاف مرنتاج ، لذلك فقد افترضوا تحتدس الثالث ، وأمنحتب الثالث . وآخرون ردوا خروجهم إلى عهد يوعح موسى مع الحكسوس . ولكن طائفة أخرى لاتجد عما ذكر في النورا من حديث عن مدينة رعسيس وبيثوم حولاً ، وتجد في ذلك ركيزة مكينة في نسبة العذاب إلى رمسيس والخروج إلى مرنتاج ، ولذلك فهم يحاولون تفسير ذلك النص بأن مرنتاج وقد أخرج بني إسرائيل من مصر فقد افترض أنه أهلكهم أو أنهم هالكون لا محالة في الصحراء حيث يتعرضون لمذابح قبائل الشاسو^(١)

ومع ذلك فكيف يتعرضون لمذابح الشاسو ولا تتعرض للخطر قوافل التعدين المصرية .

على أن هناك أموراً فانت المؤرخين فيما استندوا إليه من نسبة الخروج إلى مرنتاج . ذلك أن خروج بني إسرائيل قد شهد نهاية فرعون بغرقه وراءهم على حين عاش مرنتاج خمس سنين آخر بعد واقعه التي سجلها على ذلك اللوح ، وفضلاً عن ذلك فقد قرر المؤرخون وسلموا في أمر بني إسرائيل على غير طبيعة الأشياء أن يكونوا احتملوا الذل والاضطهاد لا يربمون ولا يتحركون أجمعين ، وأقروا بغير جدل أنهم أقاموا برمتهم ما شاء الله في أرض جاسان ثم ارتحلوا برمتهم إلى حيث شاء الله من أرض سيناء ثم فلسطين ، وكانوا فيما يمكن أن يستنتج من سفر الخروج وسفر العدد قرابة الملايين الثلاثة فضلاً عن وفرة وافرة من الماشية والأغنام . وما أظن أو يظن معي مفكر أن يخرج بنو إسرائيل سراً بليل بهذا العدد الضخم من بين المصريين وهم لا بشعرون ، بل يخرجون من العاصمة كما ذكر سفر

الخروج فلا يتصل بفرعون فرارهم إلا وقد رحلوا من رحيس إلى سكوت إلى إيتام في طرف لبرية ثم إلى فم الخيرية بين مجدل والبحر أمام بعل صفون ، وقد قدمنا من قبل نهافت ذلك التقدير ، وما كان لهم أن يشعروا بذلك انزعج حيال جند فرعون وهم بهذه الكثرة . فإذا رجعنا إلى كتابه تعالى - ونحن دائماً إليه راجعون - فقد وصفهم بالثقل في سورة الشعراء فيما روى عن فرعون : « إن هؤلاء لشر ذمة قليلون » .

وأكبر الظن - وتلك طبيعة الأشياء بل طبيعة بني إسرائيل خاصة - أنهم كانوا حيث هم على تخوم مصر الشرقية يتسللون منها منذ اشتدت وطأة الحياة فيها عليهم ، وأنهم ازدادوا تسلاً وفراراً منذ استن فيهم فرعون مسته تلك الرهبة ، إذ يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، وقد كان موسى نفسه ممن خرج منها فراراً مما قد ينزل به من عقاب . وفيما روينا من واقعة العبيدين الآبقين مثل ناطق على ذلك التسلل الذي حمل السلطات المصرية يومئذ على استنفار شرطتها عليهما وتعقبهما في جند وإصرار ، ولعل السلطات المصرية لم تجد هذا الجند إلا بعد ازدياد أحداث التسلل والفرار على عهد سبتي الثاني .

وقد كان بنو إسرائيل كما ذكرت التوراة وقرر القرآن حريصين - لولا رفض فرعون - على التحول عن مصر والتحرر مما هم فيه ، خليقين - ما دام فرعون مصرًا على إمساكهم واستعبادهم - بالتفكير في الخلاص سرًا ما سنحت فرص التسلل والفرار ، ولنا في المسلمين الأولين في هجرتهم الأولى إلى الحبشة وتسلمهم من مكة إليها مثال وبيان .

وأكبر الظن إذن أن أفواجاً من بني إسرائيل قد تسلت من مصر حيث انساحوا في البوادي من بقاع فلسطين فأقامت طوائف منهم حيث طابت لهم الإقامة قلة لا يقام ثا وزن ، وطائفة لا يحسب لها حساب ، وقد عاشوا هناك مع أبناء جلدتهم من الساميين لا يختصون بأرض ولا يمتازون ، أولايكادون يمتازون عنهم في خلق ولا خلقة - ولكنهم كانوا

على كل حال يذكرون جددهم الأعلى ويردون نسبهم إلى إسرائيل ، ولعلهم بدءوا تسريبهم هذا أواخر عهد أخناتون منذ حال وجه الحياة في مصر في أعقاب الصراع الديني العنيف ، وأنهم أقاموا على هذا التسريب الذي بلغ أقصى مداه في عهد رمسيس الثاني وصدرأ من عهد مرنپتاح ؛ حتى عرف لهم في فلسطين عدد يحمل اسم إسرائيل ولكنه لم يعمل على أسماء القبائل هناك . إذ كانوا يومئذ قلة مستضعفة لا خطر لها ولا خطر منها إلا ما تنبئه الأقليات والطوائف المنعزلة بنفسها من صدوفها عن أن تختلط بالشعب الذي تعايشه وتحييه فيه .

فلما اندلعت الثورة في أملاك مصر غربي آسيا وقمعها مرنپتاح إذا بالشعراء من المصريين يتغنون بانتصاره وظفروه وإذا ببعض هؤلاء الشعراء حرصاً منه على إجلال فرعون يعدد ما اتصل بعلمه - قل أو جل - من أسماء المدن والقبائل والشعوب ممن خضع للملك المظفر المغوار ، وكان اسم إسرائيل مما عرف أو سمع هناك فظهر في قصيدته ، فكان ذلك أول ذكر لإسرائيل في التاريخ . وقد تناغم مع إنشاد هذا الشاعر المصري أن من هؤلاء الناس طائفة تعيش في وطنه في أرض جاسان .

غير أن الذي لا شك فيه أن الشاعر قد كان على يقين من أن بني إسرائيل لم يكن لهم يومئذ مكان في الأرض ومن ثم في التاريخ ، فلقد درج المصريون في كتابتهم الهيروغليفية أنهم كانوا يلحقون باللفظ صورة أو علامة تدل على المعنى وتخصصه . وكانوا في ذكر المواضع والشعوب يلحقون بأسمائها رسماً يدل على الأرض السهلة إن كانت مصرية ، أو رسماً يدل على الأرض الجبلية الوعرة - ورمز آخر للأجنبي - لغبر المصري ، وفي تلك القصيدة ورد ذكر تحنو ونحيتا وورد ذكر كنعان وعسقلان وجازرويانوعام ثم اسم خارو (سوريا) وألحق بكل منها رسم الأرض الأجنبية الوعرة بغير استثناء . أما اسم إسرائيل فقد كان الاسم الوحيد الذي استثنى من رسم الأرض حيث لا أرض يومئذ لها في فلسطين ، ولا في غير

فلسطين : بل الحق باسمها رسم رجل وامرأة دلالة على الجميع من الناس ليس غير ، ولا سبيل في هذه القصيدة إلى التشكيك بما قد يقال من احتمال خطأ الكاتب المصري القديم وسهوه (١) ولا جرم يأتي هذا التشكيك من أستاذ أمريكي جليل يعيش وسط كثرة من يهود فهو يستشعر الحرج بين الحق الأبلج والتعصب الآخرق . وعندى أن الكاتب المصري قد كان موفقاً واعياً ، فلقد وردت أسماء الشعوب والبلاد الأجنبية في ذلك النص تسع عشرة مرة لم يغفل رسم الأرض الأجنبية في واحد منها مما سبق اسم إسرائيل أو لحق به ، بل كان من دقته أنه في ذكره اسم الشرطة المصرية وقد كان رجالها يتخذون من نجاة الذوبة قد اقتصر مع رسم رمز الناس على رمز يدل على الأجنبي دون رسم الأرض لأنهم في غير أرض لهم .

نخلص من ذلك كله إلى أن لوح إسرائيل إنما دل على طائفة من بني إسرائيل قد كانت في بعض بقاع فلسطين أو عند تخومها حين خروج مرتباح لقمع الثورة هناك ، وأن هؤلاء قد كانوا خرجوا من مصر عن طريق الهجرة أو التسلل ، وأن مرتباح لم يكن إذن صاحب الخروج ، وقد عاش بعد قمع تلك الثورة التي شملت ذلك البطن من إسرائيل أعواماً خمسة ، حيث نعمت مصر على مدى تلك الأعوام بسلام تغني به الشعراء ، وحيث بلغ من استتباب الأمن على التخوم أن القلاع قد تركت حيث قامت مناريسها في ضوء الشمس ورجال الشرطة يمدون نائمون .

وتدل كذلك على انتهاء حركات التسلل - أو قلتها - فلا حاجة بالعسس إلى الصباح بليل آمرين أن «قف» ، مبلغين عن أجنبي قادم يدير لسانه بلغة أو لهجة أجنبية .

ثم يتأيد ذلك كذلك بوثيقة من عهد مرنبتاح تدل على سواد الهدوء والنظام على التخوم الشرقية ، وتدل على ما كان لسلطات الأمن في حكومته من سيطرة كاملة على حركات الناس والبدو في تلك البقاع ، إذ كتب ضابط في تقرير عنها يقول :

« لقد انتهينا من الإذن لقبائل الشاسو (البدو) من أدوم باجتيار قلعة مرنبتاح التي في ثكو إلى بحيرات بيتوم مرنبتاح التي في ثكو ، وذلك لإعاشتهم وإعاشة قطعانهم بفضل فرعون الشمس الوضاعة لكل أرض ، في العام الثامن في ثالث أيام النسيء يوم مولد ست^(١) .

وقد امتد العسر بمرنبتاح حتى اكتمل حكمه عشر سنين وقد طعن في السن وتقدمت به الأيام ، إذ بدا من فحص موميائه^(٢) ، تصلب العضاريف من حنجرته فإذا هي عظام كلها ، وفي ذلك ما يدل - مع صلعه وما تبقى من بياض شعره الأشيب - على أنه بلغ من الكبر ما يقعد به أو يوشك أن يقعد به عن الخروج في حملات الحرب والقتال . ولئن كان لا يخرج في الحملات الخطيرة التي تتعرض فيها مصر للعدوان الاستيطاني من قبل الغرب فلم يخرج عند هجوم الليبيين في العام الرابع ولا ثبت خروجه في الزحف الأكبر الذي وجهه على مصر في العام التالي ، فأحرى به لو وقع الخروج أواخر حكمه ألا يخرج لإدراك هؤلاء الهاربين ، وهم كما وصف القرآن شرذمة قليلون ، ولذلك فأحرى بحكم السن أن تكون وفاته بحكم الشيخوخة في ختام العمر .

وكذلك فالراجح أن يكون فرعون الخروج شابا أو رجلا مكتمل الصحة موفور النشاط ، وهو ما يتبين من جثة سيى الثانى بمتحف

(١) Gardiner, op. cit., 76 - 77; Breasted, op. cit., III., §

636 - 638

Elliot Smith, Royal Mummies, p. 69.

(٢)

نقد هرة^(١) (شكل ١٠) حيث الموت المتجاعي بغرق أدنى إلى العقل والافتناع .
 وبما يكن من شيء ، فظاهر من القرآن - والله أعلم - أن مرئيتاح
 قد كان أرحم من أبيه ببنى إسرائيل وأن سبى الثاني حين ولى العرش
 قد تابع ما اتبع أبوه من سياسة السباحة والمدين ، وآية ذلك أن موسى
 حين جاءه بالبينات إذا بالملأ من حوله بحر ضوئه على استئناف سياسة جده
 فيهم من القتل والتعذيب وأنه أوعد بها على التحديد .

« وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض
 ويذكرك وآلئك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون » .
 (الأعراف ١٢٧) .

حيث نخرج من ذلك أن حياة موسى قد شهدت عهداً ثلاثة :
 ١ - كان الأول حين مولده تحت فرعون بضطهد بنى إسرائيل
 وبعدهم ، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم فدفع ذلك بأمه إلى إلقاته
 في اليم .

٢ - وكان الثاني حين بلغ أشده واستوى على عهد بطلى فيه ذبح
 البنين وخف العذاب وتمتع فيه بنو إسرائيل بقدر من سباحة ولين أغرتهم
 بشيء من جرأة وتبجح . فلم يكن لإسرائيل أن يقتل مع مصرى
 فيستنصر عليه موسى فيقتله ثم يعود إلى قتال آخر بعد مقتل الأول إلا في
 ظل سباحة تمتعت بها طائفته وأمن استمراته شيعته . وقد كان محتملاً
 أن تتعرض لنقمة فرعون والناس بعد قتل مصرى وانشروع في قتل آخر ،
 ومع ذلك فقد بلغت السباحة يومئذ بحيث لم يطلب غير موسى بدم ذلك
 القتل وبما عسى أن يكون فساداً في الأرض .

« وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا موسى إن الملأ يأمرون
 بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين » .
 (القصص ٢٢٠)

وحسبنا تلك الآية دليلاً عما كان في مصر يومئذ من قوم يعطفون على موسى ويرجون له النجاة .

٣ — وكان الثالث حين عاد موسى إلى مصر بالرسالة فإذا به يثير في قوم فرعون مكان العداوة والبغضاء فيحرضون عليهم كما قدمنا على استئناف ما كان انقطع في بني إسرائيل من التعذيب .

على أن هناك مسألة تعرض لنا قبيل ختام ذلك الحديث في أمر تعذيب بني إسرائيل وما نفترض من شدته على عهد رمسيس الثاني وخففته من بعده . أكان ذلك مرتبطاً بكثرة ما أقام رمسيس من معابد ومنشآت وقلة ما أقام أخلافه ؟ فإن ما ملأ به رمسيس مصر من أقصاها إلى أقصاها من معابد وقبور ومدن وقصور ليجل عن الحصر والتقدير . حيث وجد كما نفهم من سفر الخروج (٥ : ٦ - ١٨) في بني إسرائيل يداً عاملة وقوة بشرية تحتل عن المصريين الأعمال الدنيا والأعباء الثقيلة من اقتطاع الحجر وضرب اللبن ونقله إلى موضعه من البناء .

•

موسى والخضر

ذكر القرآن موضعاً يلتقى فيه - بوعد من الله - موسى والحضر
(عليهما السلام) وصفه بأنه مجمع البحرين في قوله تعالى من سورة
الكهف (آية ٦٠) .

« وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي
حقباً » .

وقد ذكر النسفي والبيضاوي في مجمع البحرين أنه ملتقى بحر فارس
والروم ، وأضاف أبو السعود افتراض طنجة أو مواضع أخرى من أفريقية .
غير أن المأثور من سيرة موسى أنه لم يغادر مصر إلا إلى مدين أولاً ثم
غادرها مع بني إسرائيل في خروجهم الذي أعقبه التيه في سينا
حيث مات موسى من بعد هارون قبيل دخول فلسطين . وأكبر الظن
من ثم أن موسى إنما وعد بلقاء الحضر في مصر ، حيث لقيه في بعض
رحلاته شرقى الدلتا ، وأن مجمع البحرين لن يبعد عن برزخ السويس
حيث يجتمع المتوسط والأحمر ويوشك أن تجمع بينهما بحيرات المنزلة
والبلاح والبحيرات المرة وبحيرة التمساح ، أو يكون ذلك عند أحد
مصببات النيل .

وأكبر الظن أن موسى إنما تلقى ذلك الوعد وهو في طريقه إلى مصر
في أعقاب الوحي في سيناء ، وكانت قلعة ثارو ، غير بعيد من بحيرة
البلاح محطاً للمسافرين من مصر وإليها ، وأكبر الظن أن موسى وتابعه
قد بلغا مجمع البحرين في هذا الموضع فهبطا هناك .

فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر
سريراً . . . ثم عادا فاستأنفا الرحيل .

« فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً .
فقال أرأيت إذ أرينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان
أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً . قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا
على آثارهما قصصاً » . (الكهف ٦٢ - ٦٤)

وقد عاد موسى وفتاه إلى حيث كانا قد هبطا من شاطئ البحيرة
« فوجدنا عبداً من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا
علماً . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً . قال
إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً .
قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً . قال فإن اتبعني
فلا نسألك عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً . فانطلقا . . . »

(الكهف ٦٥ - ٧١)

كانت رحلة موسى كما هو بين من القرآن برراً ، وكان موسى في طريقه
إنما يتصيد مجمع البحرين هذا ، وأنه بلغه مشياً حتى نسيا حوتهما ،
ثم عادا سيراً إليه حيث افتقد الحوت وعرف بضياعه في البحر « فارتدا
على آثارهما قصصاً » لما خالفت أقدامهما في الأرض . هناك وجد
الحضر عليه السلام ، وهناك انعقد بينهما العهد على الصحبة في سبيل
العلم والرشد اللذين يأخذهما موسى عنه ، فانطلقا حيث خلفا مجمع
البحرين وراءهما إلى حيث يريدان .

ولا أكاد أشك في أنهما دخلا إلى مصر حيث الملاحنة في النيل عماد
الحياة في مصر وحيث ينتقل الناس والأنعام والخصيب في النيل بالنفثان
فلا غناء عنها ملك ولا لشريف ولا لملك أرض أو فلاح أجير ، بل
لقد كانت حيازة السفن هي الفيصل أحياناً بين الحياة والموت أيام

المجاعة، حيث تدعو الحاجة إلى نقل الغلال إلى بلد جائع من بلد بعيد. ولذلك فقد كان احتياج البلاد إلى السفن عظيماً. وكانت الدولة في بعض الأحيان تفرض على الناس إمدادها بما كانت في حاجة إليه من السفن إذا خرج الملك في موكب أو رحلة إلى بعض بقاع ملكه. فكان على السلطات المحلية تدبير كل شيء لتلك الرحلة، بل كان عليها تدبير أمر الرحلة لرسول الملك لا لأملاك نفسه. وكان الوزير منذ الأسرة الثامنة عشرة مسئولاً عن نظام النقل بأسره في مصر حيث ورد عنه ما نصه: «إنه الذي يمد بالسفن كل من ينبغي إمداده بها». ولقد كان نقص السفن في مصر أو الاضطراب في مسيرها مدعاة إلى ضعف الرقابة على البلاد. وقد أدرك حورمحب ذلك حين تولى السلطة وقد هوت البلاد في حضيض من الفوضى والفساد، فرد الاضطراب وضعف السلطة فيها إلى الإسراف في الاستيلاء على السفن، فكان أن أصدر فيها أصدر من قوانين صارمة قانوناً بعقاب المستغلين لنفوذهم من المتهمين بأخذ السفن لأنفسهم غصباً، بل لقد كانت هذه الآفات الخلقية عميقة الجذور في مصر بحيث اضطرب بطلميوس الأول من بعد حورمحب بألف سنة إلى إصدار قرار بمنع كبار الموظفين من أخذ السفن لأنفسهم غصباً^(١).

دخل الخضر وموسى مصر في ظل تلك النظم والعادات
«حتى إذا ركبنا في السفينة خرقها قال أخرجها لتفرق أهلها لقد
جئت شيئاً لأمراً» (الكهف ٧١)

ولم تكن رحلة موسى والخضر بالسفينة إلى بعيد، فلم تكن سوى رحلة ذيلية ينزلون بعدها في بعض بقاع مصر حيث يواصلون المسير؛ «فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً فكرياً». قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً.

Kees, Ancient Egypt, A Cultural Topography, (١)
(London 1961), p. 102 - 104.

قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا .
وكان مسيرهما في بلاد عامرة بالقرى والناس .

« فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما
فوجدوا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه
أجرأ . قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً .
أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان
وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » . (الكهف ٧٧ - ٧٩)

وقد بينا ما كانت تلجأ إليه السلطات في مصر من استيلاء على السفن
أحياناً ، فهي واقعة أشبه بمصر وأقرب إلى أحوالها ، ولعل فرعون يومئذ
قد كان في إحدى جولاته فاقتضى لذلك جمع السفن مما يجري في النيل .

« وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً .
فأراد ربك أن يبلغهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً . وأما الجدار فكان
لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد
ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته
عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً » .

(الكهف ٨٠ - ٨٢)

وبعد فلقد كان للغلامين كنز من تحت الجدار . ونؤثر أن نترك
الحديث عن الكنوز في مصر إلى حين .

٦

عيسى

وقدر الله لعبده ونبيه عيسى بن مريم أن يهبط مصر حين كان في
المهد صبياً . قال تعالى :

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناكما إلى ربوة ذات قرار ومعين » .
(المؤمنون ٥٠) .

أوى عيسى وأمه إلى ربوة ذات قرار؛ وهى فى تفسير النسفى والبيضاوى
وأبى السعود أرض مرتفعة ذات مستقر من أرض سهلة يستقر عليها
ساكنوها ؛ أو ذات ثمار وماء وزرع ليخلدوا إلى ذلك القرار ، بمعنى أن
ساكنيها إنما يستقرون عليها لما فيها من ثمار . أما المعين فهو الماء الجارى
الظاهر . ولكنهم فى ذات الربوة قد افترضوا جملة فروض لم يغفلوا مصر
فى أى افتراض مما أخرجوا ، فقالوا هى بيت المقدس أو دمشق أو الرملة
أو مصر . ومع ذلك فما نعلم أن عيسى بن مريم وأمه قد أويا إلى دمشق
أو الرملة . أما جلال الدين السيوطى فقد نقل عن السلف ما يفسر
تلك الآية ويؤول الربوة بأنها مصر ^(١) قال : «أخرج ابن أبى حاتم عن
عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى الآية هى مصر ، قال وليس الربى إلا بمصر
والماء حين يرسل يكون الربى عليها أى القرى . ولولا الربى لغرقت القرى ،
وأخرج ابن المنذر فى تفسيره عن وهب ابن منبه فى قوله إلى ربوة ذات
قرار ومعين قال مصر ، وأخرج ابن عساكر فى تاريخ دمشق من طريق

(١) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٧هـ)

جرير عن الضحاك ابن عباس أن عيسى كان يرى العجائب في صباه
إلهاماً من الله ففشا ذلك في اليهود وترعرع عيسى فهيمت به بنو إسرائيل
فخافت أمه عليه فأوحى الله إليها أن تنطلق به إلى أرض مصر ، فذلك
قوله تعالى وآويناها إلى ربوة قال يعنى أرض مصر .

ولعل فيما ذكر من وصف الربوة بكونها ذات قرار ومعين ما يوحى
بامتيازها بالمياه الجارية وهو ما يرجح مصر في ذلك المقام . وكان الماء حين
يرسل أوان الفيضان يكون الربى عليها أى القرى وذلك في الزمان القديم .
وفى ذلك حديث نفسه من بعد ذلك تفصيلاً :

٧

الأرض

لم تحظ أرض من القرآن بوصف ولا تكريم بمثل ما حظيت به مصر من وصف وتكريم . إذ أنزل الله على نبيه من محكم آياته صورة رائعة مشرقة عما حببت به من فضل الله وما أوتيت من حظ عظيم . ويصور مع ذلك وصفها وسماتها التي برأها عليها وما أخرج فيها من نبات شتى وما وطن في أرضها من كنوز . وقد جاء هذا التصوير صريحاً مباشراً من كلام الله عز وجل أوجارياً على لسان يوسف أولسان فرعون ، « ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون » . (الزخرف ٥١) . وقد دل القرآن بتلك الآية وما تشابه منها على ما أضل فرعون وأغواه قلم ير فيما وعده موسى من فردوس الآخرة مزيداً على ما لديه من ملك فأرسل تساؤله متعجباً مستنكراً عما يبشر به من جنات تجري من تحتها الأنهار وعنده مصر جنات تجري من تحتها الأنهار . ومن روائع الإعجاز في تلك الآية ما تنطوي عليه وتكنى عنه من إيمان فرعون والمصريين معه بأن وطنهم صورة مثلى للفردوس لا يفوقه فردوس سواه . وهو واقع تاريخي ثابت تبرهنه آثارهم وما تركوا فيها من متون ونصوص ورسوم .

وكأنما نظر فرعون وهو في مقره في بر رعمسى فرأى النيل ينطلق من منابعه البعيدة ، حتى إذا شارف البحر إذا به يتفرع سبعة أفرع — لم يبق منها اليوم إلا فرعان — تجري من تحته حيث يقم .

ثم هو يرجع البصر كرتين فيشهد أينما حل من ملكه جنات ألفافاً ، ويرى فيها حباً ، وعنباً ، وقضبياً ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأباً أجل : جنات تجري من تحتها الأنهار .

وهي كذلك كما وصفها الله في محكم آياته وكریم قرآنه ، بل حسبها من وصف الله أن يكون المقام فيها نعمة للمقيمين والخروج منها نقمة على الخارجين . ألم يعاقب الله فرعون وماله أن أخرجهم منها في قوله تعالى :

« فأخرجناهم من جنات وعيون : وكنوز ومقام كريم . »
(الشعراء ٥٨) وفي قوله عز وجل مؤكداً :

« كم تركوا من جنات وعيون : وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين » . (الدخان ٢٥ - ٢٧)

وقد ذكر السيوطي - في حسن المحاضرة - عن الكندي قوله في هاتين الآيتين : لا يعلم بلد في أقطار الأرض أثنى الله عليه في القرآن بمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف ولا شهد له بالكرم غير مصر . ولا غرو تكون بما وصفها الخالق العليم مثابة للناس وأمتاً ، وتكون المحاضرة وما سواها بدواً . ألم يعلن ذلك في قرآنه على لسان يوسف فيما روى عن يعقوب وبنيه :

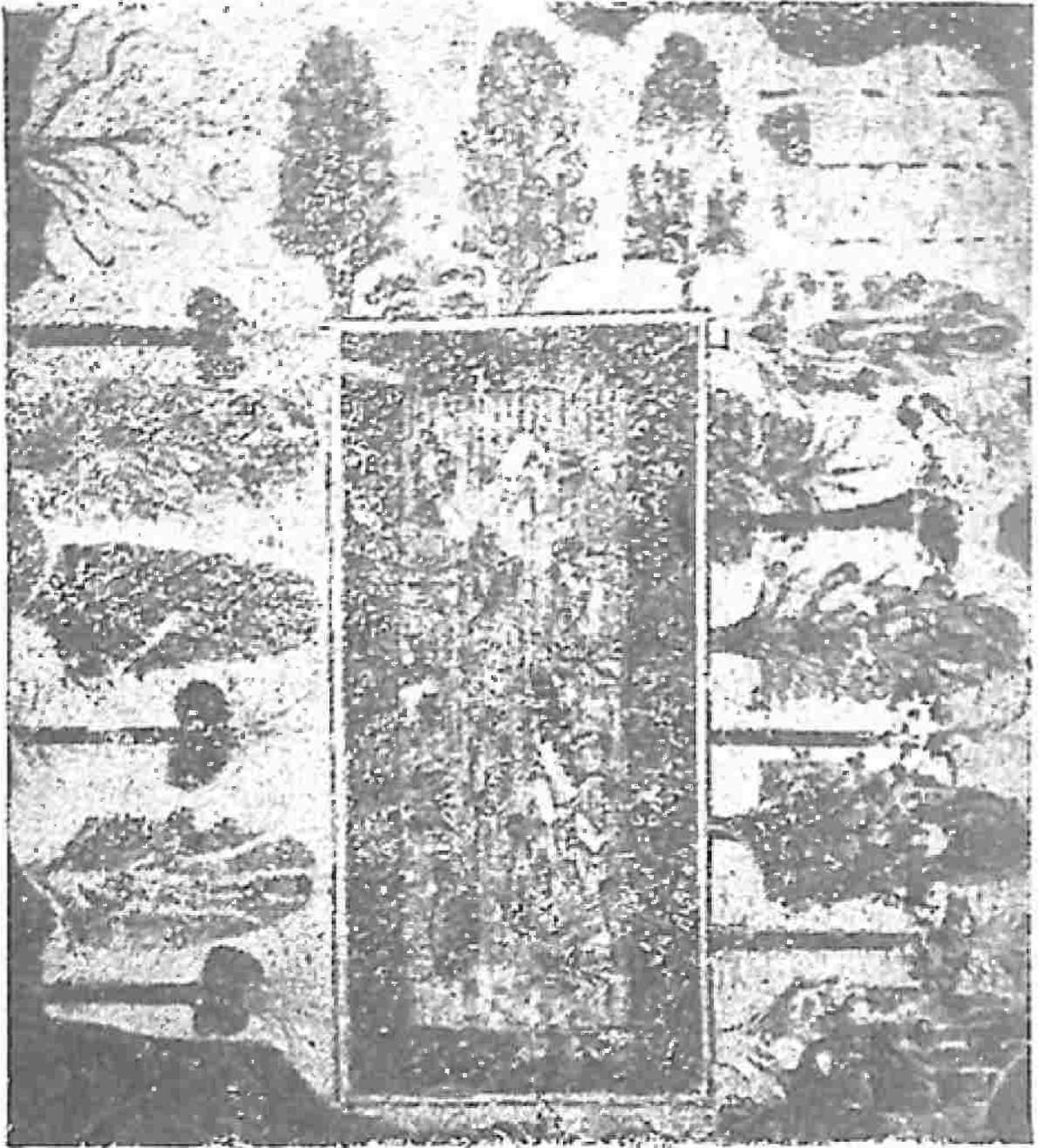
« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ونحروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤيائى من قبل قد جعلها ربى حقاً ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو » . (يوسف ٩٩ - ١٠٠) حيث أوا كما أوى عيسى بن مريم وأمه إلى ربوة ذات قرار ومعين . وذلك وصف لما كانت عليه مصر حتى عهد غير بعيد قبل إنشاء السدود . إذ كان النيل إذا أقبل بفيضه في الصيف امتد فغمر الأرض بمائه فظلت تحت الغمر أمداً يمتد

ربع العام ، ولذلك فقد عمد المصريون إلى إقامة بيوتهم من فوق رواب
تعلو على الماء . ولقد شهدها عمرو بن العاص حين فتحها فوصفها فأحسن
وصفها قال : « مصر تربة غبراء وشجرة خضراء ، يكتنفها جبل أغبر
ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات ، يجري
بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ويكثر
فيه ذبابه ، تمدد عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا أصلختم عجابه
وتعظمت أهواجه فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض
إلا في صغار المركب وخفاف القوارب ، وزوارق النهر كأنهم في الخنايل
ورق الأصائل ، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدأ في
جريته وطما في درته فعند ذلك . . . يحرثون بطون الأرض ويبذرون فيها
الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب . . . فإذا أحدق الرزق وأشرق ،
سقاها الندى وغذاه من تحته الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين درة بيضاء
إذا هي زهرجدة خضراء ، ثم إذا هي ديباجة رقشاء ثم إذا هي عنبرة
سوداء فتبارك الله الفعال لما يشاء » .

وفيما عدد القرآن من خصال مصر ما يستحق النظر بشيء من تفصيل

جنات

كانت حياة المصري منذ مطلع الصبح من تاريخه صراعاً مريراً
وكفاحاً متصلاً بين الرى والجفاف وبين الحصب والجذب وبين الأرض
المثمرة والمفاوز القاحلة ، أو بين ما كان هو يسميه السوداء والحمراء .
كان يبذل الضنى والعرق في سبيل استخلاص الأرض من الصحراء
فيعزق أراضي الغمر حيث يترسب الطمي الدسم لينقله إلى حيث يستنبت
ما يشاء . وكان الحزن يبلغ أقصاه من نفسه أن يرى عدوان الصحراء على
أرضه وزحف الرمال عليها . وكانت الحدايق والحنان أثيرة لديه محبة
إليه ، اختلطت بحسه وفكره وشعوره منذ نشأ على ضفاف النيل ، وكان



(شکل ۱۲)

عامراً يومئذ من آثار فيضه كل عام بالمنافع والغباض والغدران ، حيث تنبت الآجام والأحراج من البردى والنسوس والبوص واليراع وحيث تعيش ألوان من الأسماك وتوهمها طوائف من الحيوان وأمم من الطير . وكان المصريون يؤمنون تلك الأحقاع طلباً للصيد والقتل . كان بالنسبة للأدنين من الناس رزقاً يطلبونه ويسعون إليه ، وكان لأهل الترف واليسار رياضة وتسلية يؤثرونها ويقبضون عليها ، فكان الرجل يخرج في أسرته من زوجة وبنية يطلبون الشربة والمتعة في زورق خفيف من البردى يسرى بهم على صفحة الماء الحادئ الرقراق ، بين سيقان البردى وأوراق البشنين وزهور النسوس . ولقد بلغت هذه الطبيعة الخلوة الحميمة من نفسه أن تخيل الفردوس في الآخرة صورة من تلك البيئة التي عاش فيها وأحبها ونعم بها ، كما حرص على تصويرها في بيته وقبره (شكل ١٣) .

كذلك وقر في نفسه حب الزهر والإحساس بجماله وفتنته ، فكان لهم زينة في الموائد والأعياد ويتخذون منه هدية يقدمها بعضهم إلى بعض ، وقر باناً يقربون منه إلى الأرباب والأعزة من الأموات .

ولذلك فقد حرص المصري القديم فضلاً عن ذلك على غرس الأشجار ورعاية الحدائق أينما يولى وحيثما يقيم . فقد تعهد لها في المعابد حيث يتجه إلى ربه مصلياً متعبداً ، وتعهد لها في سكنه مستروحاً متمتعاً ، وتعهد لها في الجبانة مهيباً لروحه السعادة والنعم ، ولقد انتهى إلينا من الخبر عن حاشيشموت أنها حرصت على إقامة بسنان للإله بين يدي معبدها في الدير البحري بالأقصر ، ولكنها لم تشأ أن تغرس في ساحته من أشجار مصر التي عهد الناس وإنما بعثت إلى بلاد بونت ، أو بلاد الآلهة كما سمّتها في بعض حديثها ، تنقل أشجار المر العبق إليه ، وذلك حتى تقيم في معبده أرضاً كأرض بونت .

ولم يكن حرص المصري على إقامة الحدائق في داره بأقل من حرصه على إقامتها في دار الآلهة . فلا تكاد تخلو لشريف أو أمير دار من حديقة

فسيحة تتوسطها بحيرة صغيرة يقيم من حولها الشجر ألباسق والأيك
الزرف ، وكان الشريف يجد في حديقته تلك الراحة والروح والأمن والسكن
في ظل الدوح ، أو في ظل عريشه يقيمها عند بحيرته .

كانت الحديقة في المنزل عنصراً اعتاده المصريون في حياتهم بحيث
أصبحت الحقائق في آدابهم وقصصهم من المؤلف المذكور في كل أثر
أدبي : من قصة وأغنية : حيث حفلت قصائد انغزل بذكر الحقائق
والغدران . ولقد حرص الملوك إذا أنشأوا مدينة أو عاصمة جديدة على
أن يجعلوا للحقائق فيها النصيب الأوفى حيث البحيرات والزهور . كذلك
فعل أختاتون في عاصمته الجديدة أختاتون عند تل العمارنة ، وكذلك فعل
رمسيس في بر رعمتي عاصمته الجديدة التي أنشأها شرق الدلتا حيث
بنى موسى وليداً ولبت فيها من عمره سنين ، ومنها خرج فرعون وراءه
وكان من المفرقين . ولذلك فخلق بنا أن نقرأ ما حفظ لنا من وصفها
الذي بعث به أحد كتاب فرعون إلى زميل له فيقول :

« لقد بلغت بر رعمتي حبيب آمون فوجدتها أروع ما تكون ازدهاراً .
وهي عاصمة أنيقة لا مثيل لها على نمط طيبة . إن بسايتها حافلة بكل شيء
طيب ، وتتدفق عليها الأطعمة كل يوم كما تمتلئ مياهها بالأسماك
وبركها بالطيور ، وإن أهراءها المليئة بالشعير والقمح الذي يكاد يبلغ
السماء ، وفيها حدائق الرمان والنفاح والزيتون والتين ، أما النبيذ فهو أحلى
من العسل ، وفيها السمك الأحمر في القنوات . . . إن شباب عظيمة
الانتصارات في عيد كل يوم ، والزيت والطيب على رؤوسهم وهم يقفون
بأبوابهم وأيديهم مثقلة بالزهور » (١) .

ولقد كانت الجنان والبساتين كذلك عامرة بالفاكهة والثمار من الكروم
والتمر والبطيخ والشمام والحروب والنبق والحمير والتين ، ثم استنبتوا من بعد

A. Gardiner, Late Egyptian Miscellanies (Bruxelles (١)

1937), p. 40 - 41.

ذلك ما عرفوه منذ أيام الحكسوس من الرمان والتفاح والزيتون . ولقد أشار القرآن إلى العنب فيما ورد عن صاحب مسجن يوسف في قوله : « إني أرايى أعصر خمراً » ، ولقد نبت الكروم وفيرة في أنحاء كثيرة من مصر . كما جاءنا من الأنباء خاصة عن كروم الواحات منذ طلائع التاريخ المصرى وقد بلغ من وفرتها ومنزلتها من إنتاج الواحة على عهد تحتمس الثالث أن النيذ كان من جملة ما يؤدى أمراؤها من ضريبة إلى الملك .

أما الزيتون الذى عرفه المصريون باسمه هذا فله في القرآن حديث أى حديث .

فهو الشجرة التى باركها الله وضرب بها نوره الأمثال : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء » ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » (النور ٣٥) .

شجرة مباركة زيتونة أين تكون .

لا شرقية ولا غربية فلا هى إذن في الشرق البعيد ولا في الغرب البعيد ، ولقد نبت الزيتون وينبت في بقاع كثيرة من أرض الله .

ولكن هناك شجرة أخرى تجود في بقعة خصها الله بذاتها من أرض الله « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار » .

وما حاجتنا إلى الأحجية والاستقصاء وقد أعلنها الله صريحة في قسمه

العظيم :

« والذين والزيتون وطلور سين » (النين ١ : ٢)

وقال :

« وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لنمادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة

ومنها تأكلون ، وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصيغ لآكلين .
(المؤمنون ١٨ - ٢٠) .

طور سينين أو طور سيناء ، باب مصر ومدخلها الشرقي منذ العصور أقدم
العصور هي بقعة من مصر وجزء منها ، سيناء وهي كذلك جزء من بقعة كانت
منزل الوحي ومهبط الرسالات وتضمها مصر مربع العلم وقبلة الأنبياء .

وزروع

« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج
لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون
الذي هو أدنى بالذي هو خير ، اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم .
(البقرة ٦١) .

ولو قد نظرنا في تلك الحاصلات لأدركنا أنها من زروع الشتاء
تبذر في أعقاب انحسار فيض النيل في شهر هاتور المصري أو نوفمبر
الإفرنجي ، وقد جاد في مصر يومئذ من البقل الفول والحمص والباذلاء
والكرث ، وذلك فضلاً عن الحس الذي كان من أحب الطعام إلى المصريين .
وعن الفول في مصر حدث ولا حرج فهو فيها طعام عريق ، إذ كانوا - وما زالوا -
يأكلونه أطباقاً وألواناً شتى ، أشهرها ما هو معروف حتى يومنا هذا - على
الأرجح - باسمه القديم كما يقال ، فالدمس من لفظ يعني المكمور
والبصارة من بسور وهو الفول المطبوخ^(١) ، كما اتخذوا من عجائنه طعاماً
لعله يشبه الطعمية^(٢) . فمن نافلة القول إذن - وقد تأصل من نفوس المصريين
تلك القرون أن نتحدث عن مدى حبهم له وإقبالهم عليه وعن انتقال ذلك
الحب إلى بني إسرائيل .

G. Subhy, Common words in spoken Arabic of Egypt (١)

of Greek or Coptic Origin, (Cairo 1950), p. 11.

(٢) سليم حسن : مصر القديمة الجزء الرابع (١٩٤٨) ص ٦٠٥

وكذلك كانت القثاء أو الخيار إليهم ، وكانوا يقربونها على موائد الأعياد ويقدمونها قرباناً للأعزة من الأفرباء المتوفين (شكل ١٤) ، وفي قصة من عيون الأدب المصري روى بحار حطمت الأنواء سفينته أن الأمواج حملته إلى جزيرة مقدسة وجد فيها من الفاكهة والأعشاب والتين ومن الخيرات ما أعجبه وأرضاه وكان منها القثاء الذي عرف في المصرية باسم شسبت .

أما النوم فهي الحنطة أو هي الثوم على تعدد في التفسير . وكان الثوم من الحاصلات المشهورة في مصر ، وقد وجدت في مقابر طيبة طائفة من حزم الثوم الذي عرف في مصر باسم نخجان ، وكانوا أحياناً يطلقون عليه اسم البصل حج . وأما البصل فكان - كما هو اليوم - من أطعمة الفلاح اليومية وأدناها إلى نفسه كما كان من ألوان القربان . وكان العدس الذي عرفه باسم عارشين من أحب الأطعمة إليهم - وما زال « العدس والبصل » عندنا من أشهى أطعمتنا . وكانوا يتخيلون النردوس في الآخرة عامرة بالحنطة والعدس الذي يرتفع نباته فيما قدروا عشرة أذرع في أرض الجنة .

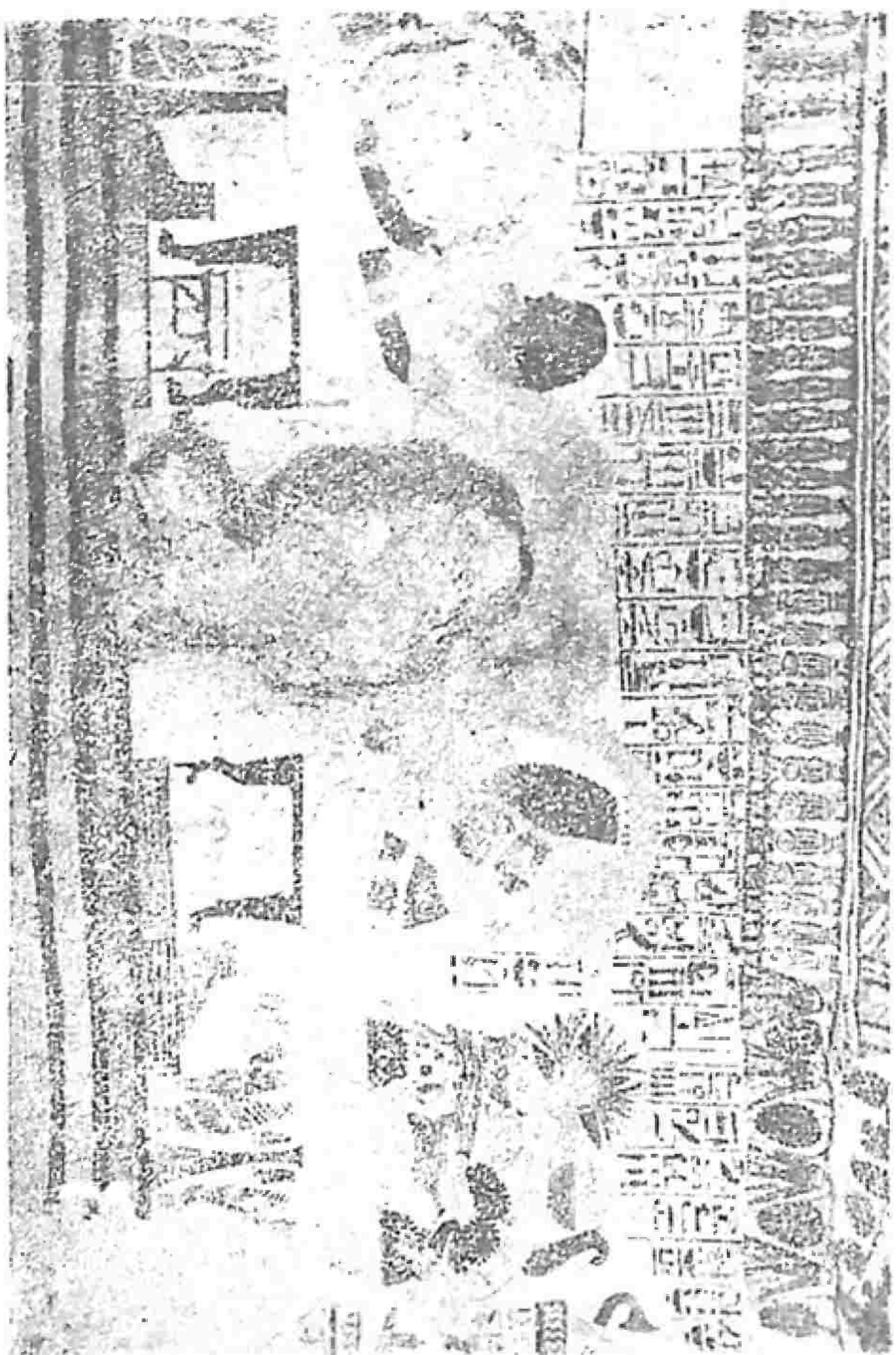
وحسبنا من دليل على ما حظيت به تلك الأرزاق من الحب والتفضيل أن بني إسرائيل بحكم إقامتهم وما اعتادوا من طعامها قد اختاروها دون سواها من خيرات مصر ، وقد قدمنا من سفر العدد من العهد القديم ، (١) ما صور حنينهم إليها : بل كادوا يضعونها مع الحرية والخلاص في الميزان .

ولم يكن ذلك كل ما كانت تنتج مصر على عصر الفراعين ، فإذا كانوا أنتجوا ما يكفيهم من الغذاء فقد أنتجوا كذلك سرايلهم من نبات الكتان الذي كانوا يزرعون ثم ينسجون ، وكانوا يتخذون منه ثياباً رقيقة وأفوافاً شفيفة كانت موضع إعجاب الناس أجمعين (٢) .

وفضلاً عن ذلك فقد كفتهم أرضهم ما كان للحضارة والفكر المصري

(١) انظر صفحة ١٢١

(٢) كتان مطرز من مصر هو شراعك (سفر حزقيال ٢٧ : ٧)



والبشرى أكبر معين ، إذ نبت فيها البردى والبوص ومنها اتخذوا القرطاس والقلم واتخذوها منهم الشعوب من حولهم إذ حملهم إليهم من مصر الفينيقيون .

وعيون

عيون الماء مصادرها سواء كانت من الآبار أو الجارى من الأنهار . وقد ورد في الذكر قوله تعالى في سورة الغاشية : « فيها عين جارية » ، وفسر النسفي « العيون » بالأنهار الجارية . ولا حاجة بنا عندئذ إلى الإسهاب فيما تمتعت به مصر من « العيون » ففيها أعظم العيون وأغزر العيون ، فيها النيل العظيم وهو اليم كما ذكر في القرآن ، وذلك أنه أقبل من قلب القارة السوداء ليدخل مصر فوق صخور الشلال الثاني ، ثم صخور الشلال الأول عارماً جياشاً ، حتى لقد خيل إلى المصريين في بعض أساطيرهم أنه إنما ينبع من كهفين في تلك البقاع في جزيرة الفنتين أسموهما قرتي ، ثم نراه من بعد ذلك يجري سهلاً ليناً حتى إذا بلغ رأس الدلتا إذا به ينساب كالمروحة أو يتفرع كالشجرة سبعة أفرع لم يبق منها اليوم إلا فرعان هما دمياط ورشيد ، وكان يقبل بفيضه كل عام فيغمر الأرض عن يمين وشمال ، فإذا بلغ حدته وطما في شدته نكص على عقبه مخلفاً وراءه كثيراً من المنافع والعياض والغدران فيكون فصل البذر وأوان الإنبات .

ومع ذلك فقد كان لاختيار لفظ العيون في القرآن مقصده ومعناه ، وذلك لأن في اللفظ من الاتساع والشمول ما يجمع على سواء بين المياه الجارية في الأنهار والمياه النابعة في الآبار ، وقد حببت مصر من هذا وذاك أجمعين ، فكان اللفظ من جوامع الكلم القرآني الذي أوفى عنى بلاغة الإعجاز بما يسوق من لفظ جامع دقيق عن تقدير وحسبان . فإن النيل ليجرى وسط صحراء شاسعة مرهقة عن يمين وشمال . ولقد اندفع المصري منذ أقدم العصور يسلك فجاج الصحراء ويطوى رمالها العطشى بجشاً عما يقيم به حياته من المواد الغفل من المعادن والصخور أو طلباً للبيع والشراء مما

وراءها من الأقاليم والبلدان ، وكان إحرازهم للنجاح بمقدار ما يجدون إليها في طريقهم من مصادر الماء . لذلك فقد حرص فراعين مصر على توفير الماء على طريق القوافل وفي بقاع التعدين في الصحراء ، وذلك بحفر الآبار وتلمس العيون ، فلقد كتب متوحيب الثاني من الأسرة الحادية عشرة أنه احتفر أربع عشرة بئراً كبيرة في وادي الحمامات ، كما روى متوحيب الثالث عن عثوره على بئر حافلة هناك ، ومن أخبار سيني الأول عاهل الأسرة التاسعة عشرة . أنه خرج إلى وادي عباد بالصحراء الشرقية ليتفقد الأرض حيث يبنى معبداً ويحتفر بئراً تكون غوثاً للمرهق ويرداً لفؤاده المتأجج في حمارة القيظ . هنالك أمر عمال الحفر فاحتفروا في الجبل بئراً نبط منها الماء الغزير ، كأنها كهفا قرني في الفتين ، حيث يتفجر — كما تخيلوا — النيل . وبذلك عاد الطريق سهلاً .

ومن أخبار ولده رمسيس الثاني أن حاكم النوبة العليا — وكان كذلك مشرفاً على وادي العلاقي — شكاً قلة الماء على طريق المناجم وما يتعرض له الناس من الهلاك عطشاً في تلك البقاع ذات الذهب الوفير ، وما يتهدد تلك الصناعة من انقطاع . فكان أن جمع الملك الأمراء فشاوهم في الأمر ثم أمر بحفر بئر هناك نبط الماء منها على عمق اثنتي عشرة ذراعاً ، وكان رجال أبيه قد حاولوا ذلك من قبل فأخطأوا الماء حتى عمق مائة وعشرين .

وكان الفراعين فضلاً عن ذلك يعينون على الآبار والعيون الخرس من الرماة والمفتشين يصوفونها ويردون عنها العابثين والمعتدين ، ويحفظون عليها نظافتها وصفاءها ، سواء كان ذلك في سيناء أو في واحات الصحراء الغربية . وكانت الواحات محاطة للقوافل حيث تجتمع البنايع والعيون ، وكانت الواحات الخارجية أكبرها وأهمها جميعاً ، وقد توفر فيها من الماء ما مكن فيها من إنبات الأعناب والكروم كما قدمنا منذ طلائع التاريخ المصري القديم .

وكان الملوك فضلاً عن ذلك حريصين منذ أقدم العصور على مشروعات الري في أنحاء البلاد ، حريصين على إيصال الماء إلى حيث لا يصل النيل .

ومن أشهر وثائق تاريخ مصر العتيق منظر بصور احتفال البلاد بشق القنوات حيث ظهر الملك العقرب الذى حكم مصر من قبل مينا مؤسس الأسرة الأولى ممسكاً بالنأس وهو يهيم بالضربة الأولى فى القناة ، كذلك كان المشرف على القناة « عيج مر » من الرضائف والألقاب الكبرى فى الدولة القديمة ، ولعل أشهر ما نعرف من مشروعات الري ما كان أقامه أمنمحات الثالث عاهل الأسرة الثانية عشرة من خزان الفيوم لتوفير الري والزرع فى منخفض الفيوم .

وكنوز

ويفسر النسفي الكنوز فى تلك الآية بأنها الأموال الظاهرة من الذهب والفضة . قال ومماها — أى القرآن — كنوزاً لأنهم لا يشقون منها فى طاعة الله . وجاء فى المعجمات عن الكنوز أنها المال المدفون ، وما أكثر ما كان فى مصر القديمة من أموال ظاهرة من ذهب وفضة فضلاً عن المال المدفون . وللمال المدفون فى مصر حديث ذو شجون .

على أننا لو أخذنا المنظور بمعناه الواسع لشمطنا بذلك مناجم الثروة المعدنية فى مظاهرها فى الأرض . وكانت هى مصادر الأموال الظاهرة إلا قليلاً مما يبيعون . ولقد كانت أرض مصر وما زالت تدخر من ألوان الحجر وأخلاط المعادن ما لا يكاد يقع تحت حصر ، ومن كنوز الحجر نصف الكريمة والمعدن الثمين الذى حبيت بوفرة منه وبسطة فيه ما عرفها وشتهرت به فى أقطار الشرق القديم .

وكان المصريون قد خرجوا منذ فجر التاريخ البعيد فى طلب الذهب إلى الصحراء الشرقية حيث تقع مناجمه الوفيرة عند النواخير فيما يلى قفط من وادى الحمادات ، وعند أم الروس عند ساحل البحر الأحمر ، ولقد كان فيما كشف من عصر فجر التاريخ من خريزات من ذهب مسط فى نقادة وأخرى من رفاقة فى المحاسنة دليل على عملاقة فى استخراجها وخبرة فى صياغته

وصناعته . كما كان في اسم مدينة أمبوس القديم (قرب قرية البلاص قبالة قنط) دليل آخر على ما تدفق عليها من الذهب الذي خلج عليها اسم نبي بمعنى الذهبية .

ومن صحراء النوبة الشرقية كذلك استخرج المصريون الذهب من بقعة من وادي العلاقي سميت يومئذ باسم إكينا . ولذلك كله فقد حرص الفراعين على بسط النفوذ المصري وإقرار الأمن في النوبة بأسرها ؛ فقد تحدث ملوك الأسرة الحادية عشرة عما بذلوا في هذه السنين حيث عينوا رؤساء التراجمة لحسن التفاوض مع الناس هناك . وتابع ملوك الأسرة الثانية عشرة حملاتهم التأديبية على تلك البقاع حيث وضعوا النظم وأقاموا عند الشلال الثاني الحصون تأمينا لها من الاضطرابات والغارات ؛ وكان خط اندفاع الأخير هناك في البجة واليفانتين . بل لقد كان سنوسرت الثالث عنيفا في حملته على الثارين بحكم إغراء الذهب والحرص على تأمين موارده في تلك البقاع . ولم يفتأ الفراعين يرسلون البعث ويوجهون الحملات والقوافل بحثا عن الذهب في مظانه من أرض مصر . فإذا عثروا عليه وبشر بمحصول وافر عمدوا إلى إقامة المخاط وتيسير الطرق إليها بما يحتضرون عندها وفي طريقها من آبار وما ينشئون عندها من معبد يكون مركز المعسكر العمالي ، وبما يرسمون لهذا كاه من خرائط تحدد مواقعها وتبين معالمها ومسالكها ؛ وقد حفظت لنا على بردية بمتحف تورين الآن خريطة تصور منطقة النواخير بمناجمها وطرقها التي يؤدي إليها وادي الحمامات وما يخرج منه بعد ذلك من طريق إلى البحر الأحمر ، وهي فضلا عما تبين من براسبي الأول و « جبال يخرج منها الذهب » وطريقين يؤديان إلى البحر الأحمر ومعبد الأمون في مركز المعسكر العمالي فهي تبين على مسافة من المعسكر « جبال حجر بخن » المحبوب الأخضر من اردواز وادي الحمامات (شكل ١٥) .

وكان سبي الأول من أحرص فراعين مصر على تعدين الذهب وزيادة الإنتاج منه ، وقد تقدم بنا كيف خرج إلى الصحراء الشرقية حتى منطقة

الجبـال يـتفـقـد مـناجـم الـذهـب ومـواظـن المـاء عـلى الطـريق ، فـسـاءه ما رآى من انعدام الماء الذى يهدد المسافر بالهلاك ويحول دون ما تردد فى خلده من عزم على استغلال تلك البقعة التى يتوقع الذهب منها ، ثم مضى يتفقد المكان بحثاً عن أصحاب البقاع التى يحتفر بئراً فيها ، فكان أن وفقه الله فيما أمر من احتفار بئر فى الجبل وإقامة معبد ومحلة يستريح فيها الناس ، وقد أسفر ذلك عن إقامة معبد الكنايس فى وادى عباد فيما يلى إدفو على بعد خمسة وخمسين كيلومتراً فى قلب الصحراء ، وتحدث ابنه رمسيس الثانى عما بذل جرياً على سياسة أبيه فى هذا السبيل ، قال إنه بلغه وهو يحصى مصادر الذهب ويضع التدابير لحفر الآبار حيث يشح الماء أن الطريق إلى إكيتا مع غناها بالذهب وفورته خال من الماء ، وأن القوافل إليها لا تعود إلا بنصف رجالها لما يتعرضون له من العطش المبير ، وأنه لم يكـد يـبلـغه ذلك حتى استدعى أمراء البلاط يشاورهم فى الأمر حيث قدم حاكم النوبة تقريره عما يعوق تعدين الذهب من ندرة الماء وما كان من جهود فاشلة بذلت من قبل على عهد أبيه . وقد أقر رمسيس لحاكم النوبة بما رأى من أمله فى انبجاس الماء ببذل مزيد من الجهد فحالفه التوفيق .

ومهما يكن من شىء ، فلقد توفر الذهب فى مصر وزادت بفضله ثروتها ، إذ يدلنا ما ذكر فى حوليات تحتمس الثالث أن مناجم النوبة السفلى وحدها قد كانت تغل على البلاد ما يقدر فى المتوسط بمائتين وسبعة عشر كيلوجراماً من الذهب كل عام . ولقد مكن الذهب للمصريين كثيراً من شئون الحياة . إذ استطاعوا به فى التجارة والاقتصاد شراء ما عز فى بلادهم واضطروا إلى استيراده مما حولهم من الأمم والأقطار ، فتمتعت مصر بفضله بالرفاهية وخفض العيش ، بل لقد تمتع كثير مما وقع تحت حمايتها من ولايات آسيا بمثل رخائها ورفاهيتها بفضل ما تنفق فيها من أموال . وكان ميناء جبيل مثلاً حياً ناصعاً لذلك ، يدل عليه ما عثر عليه فى مقابر أمرائها من حلى الذهب وأوعية السبج ذات الحواف الذهبية ، وكانت من



(شکل ۱۰)

هدايا فرعون للأمبر حين تقليده منصبه هناك . وكذلك أسلحة صنعت في جيبيل على الطراز المصرى عليها نصوص مصرية .

كذلك استطاع المصريون بالذهب أن يحرزوا من النفوذ والمنزلة السياسية والسلطان ما لا تكاد الجيوش المحاربة تحزره بالغارة والعدوان . فاستند بفضلهم نفوذهم حيث لم تستطع الجيوش الوصوف فيما وراء مناطق نفوذهم الطبيعية مما جاور مصر من البلاد . فكان أن تولى الذهب مكان الجيش سبيل السياسة وإحراز النفوذ . وأصبح المصريون يشتركون به الخلفاء في آسيا منذ عهد تحتمس الرابع وإن فشلت تلك السياسة أو أخر عهد ابنه أمنحتب الثالث ، وذلك لما أبداه الأمراء من جيران مصر من جشع تحت ضغط الغزو الحيثي من ناحية . ولما كان من سياسة أختاتون وتخاذله عن نصرة حلفاء مصر هناك من ناحية أخرى . بمعنى أن سياسة الذهب وحدها خليقة أن تفشل إن لم تكن وراءه قوة تسنده . وأن الإغراء والإرهاب لا ينفصلان في السياسة أبداً . ومع ذلك فقد كانت خزائن مصر يومئذ تمتلئ بالذهب برغم تسرب الفساد وسوء الإدارة إلى حكومة أختاتون ، حيث دأبت شهرة مصر بأنها أغنى دولة في الشرق القديم .

ولقد حفظت لنا من رسائل ملوك ميتاني وأشور وبابل على عهد أمنحتب الثالث وابنته أختاتون أطراف مما كانوا يكتبون طلباً للذهب من مصر ، بل استجداءه منها . من ذلك ما كتبه توشراتا ملك ميتاني إلى زوج ابنته أمنحتب الثالث يقول :

« أخى أرجو أن ترسل ذهباً بكميات عظيمة جداً وبقدر لا يحصى ، أرجو أن يرسل أخى ذلك وأن يرسل من الذهب أكثر مما حصل عليه أبى ، أليس الذهب في بلاد أخى كالتراب كثرة ؟ » .

كذلك ضربوا في بطاح بلادهم ووديانها من النوبة إلى الصحراء الشرقية يطلبون فضلاً عن الذهب فنوداً من الأحجار نصف الكريمة وألواناً من الصخر الجميل ، حيث استخرجوا منها الزبرجد والجمشت والعقيق واليشب

وأمر وازجاج الصخري وأحجاراً خلبت بألوانها وصلابتها عقوهم منذ أقدم
العصور . فاتخذوا منها كثيراً من أعمال الصناعة وآيات الفن ، وكان
يحجبهم منها بخاصة نوع من اردواز ضارب إلى الخضرة يكاد من صقله
ينضىء كالمرآة ، وذلك فضلاً عن الألباستر وصخور الجرانيت الأسود والأحمر
والديوريت المتين . وكان وادي الحمامات في الصحراء الشرقية من أهم
سبلهم إلى حيث يستخرجون من ذلك ما يشاءون ، وقد كان يغري بسلوكة
والرحلة إليه ما يمتاز به عن سائر الوديان من كثرة يخفيها في حناياه من
البقاع الخضراء والعيون .

وكانت سيناء كذلك مستودعاً غنياً بالنحاس ، ومن كريم الحجر
بالفيروزج بنوع خاص . وكانت لذلك ميداناً لنشاط اقتصادي خصيب
حرص ملوك مصر منذ طلائع الأسرة الأولى على رعايته وحمايته ، حيث
تكثر مناجم الفيروزج في وادي مغارة وصراييط الخادم ، وحيث أقيم معبد
للآلهة حتحور ربة الفيروزج منذ عصر الدولة الوسطى التي عملت على
استغلال تلك المنطقة بانتظام كبير . وما زالت تلك البقاع من سيناء تحفظ
على صخورها آلافاً من نقوش المصريين ممن كانوا في تلك البقاع
عاملين .

أما المال المدفون فإن في نظرة واحدة فيما تحفل به متاحف الأرض
اليوم من آثار مصر . وفي كلمة بسيرة عنها الكفاية وفوق الكفاية . فلقد عثر على
أكثر التحف في القبور ، وكان المصريون يكتزونها للحياة الأخرى ويشيعونها
مع المتوفي ذخيرة له ليوم البعث والنشور . وما زالت كنوز توت عنخ آمون
تروعنا وتروع العالم كله بما فيها من أثاث ومتاع وما تحفل به من الحلوى
والذهب ، ومع ذلك فلم يكن توت عنخ آمون هذا من عظام الملوك ولا أشباه
عظماؤهم ، ولا كانت مصر على عهده تتمتع بمثل ما كانت تتمتع به على
عهد أسلافه من أمثال الملكة حتشبسوت وتحتمس الثالث القائد المغوار
أو أمنحتب الثالث ، من القوة والثروة والاستقرار . أوفى عهد أخلافه من أمثال

سبى الأول ورمسيس الثانى . لم تتمتع مصر بشىء من هذا على عهد .
 بل كان فى حدثاً لم يحكم سوى تسع سنين كانت مائة بالاضطراب السياسى
 والاجتماعى ، فإذا كان الذى نراه لتوت عنخ آمون بهذا القدر على صغر قبره
 وبساطة حليته ، فإذا عسافاً أن نجد لو كانت سلمت من النهب والسلب
 قبور من ذكرنا من الملوك . ومنها ما بلغ فى امتداده واتساعه تحت الأرض
 مبلغاً عظيماً ، وذلك مع ما يدل عليه من أنيق حليته ووسامة زخرفته أن
 كان خليقاً أن نجد فيه بالنسبة إلى ودائع توت عنخ آمون ما يبهر العميون
 كثرة وبراء . ولقد عثر لغيره على أمثلة متفرقة عبر عصور مصر القديمة
 بما يشهد لها من غير شك أنها ذات مال وكنوز ، فمنها ما هو من قبر جر
 عاقل الأسرة الأولى ، ومنها ما هو لحب حرس أم خوفو ، بل لقد انتهى إلينا
 من آيات الصياغة من عصر الدولة القديمة ما لا يقل جمالا عما نرى اليوم
 من حلى ، وذلك فضلاً عن حلى الدولة الوسطى من نيجان وخناجر وعقود
 وقلائد ، ومن حلى الأسرة الثامنة عشرة من آثار يوعج حنب إلى آثار زوجات
 تحتمس الثالث ، ثم ودائع پسونس عاقل الأسرة الحادية والعشرين .
 ومع ذلك فليس يخلو من مغزى عميق فى هذا المقام أن نذكر عن المصريين
 تسميتهم لغرفة الدفن حيث تحفظ جثة الملك فى تابوته : كانوا يسمونها
 برنوب بمعنى دار الذهب .

ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين

وتلك شهادة فيما خلق ووهب العليم الوهاب . وحسبها من نعمة أن
 تشرف من وصف الله بما وصف بها جنته التى أعدت للمتقين . ولنقرأ قوله
 تعالى فى سورة الدخان :

« إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون » . (٥١ - ٥٢) .

ومن يس قوله :

« إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون » . (٥٥) .

ثم لنقرأ في فرعون وقومه قوله تعالى في سورة الدخان :

« كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين » . (٢٥ - ٢٧) .

كذلك كانت مصر وما زالت كذلك .

وستظل إن شاء الله حتى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون .
ونو مشينا في مناكبها وبحشنا وعملنا لوجدنا فيها غزيراً من نعمائه وخرج علينا من أرضها كل يوم جديد ومزید . لأنه حكم رباني وقضاء إلهي ببقاء الزمان وليس له في الأحقاب والدهور حدود .

ففيها من العيون ما يجري به النيل وما يتفجر تحت أقدامنا في الوادي الحديد ،
وفيها من الكنوز ما يعلم الله وما يعدل الذهب من النفط والحديد ، وما ندري لعل فيها من منطلقات النواة والذرة ذخائر من بأس شديد .

ومع ذلك فما كانت الأرض لتدر علينا من رزقه بغير بذل الكادحين وعمل العاملين .

بذلك - مقبلين غير معرضين - يكون لنا فيها المقام الكريم ونعمة نكون فيها فاكهين .

ونقد قصت إرادة الله أن يحفظها وأن تظل بئامن من كل سوء : إذ كرمت على الله حين تأذن بعقاب فرعون وملئه فلم ينزل عقابه بغير المارقين وما لهم من ناصرين ، ولم يأخذ أهلها إلا بما يكون بلاءً للمؤمنين : « بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » . ونخص فرعون وقومه بما صنعوا .

« ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » وشتان - ولنعبر ولا نأمن مكر الله - بين ما نزل بها ، وما حاق بعاد وثمود وما وقع لسبأ وقوم تبع وأصحاب لوط .

ثم لنتعبر بقوله تعالى :

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل
مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا
يصنعون » . (النحل ١١٢) .

٨

حُكْمًا وَعِلْمًا

أقام بنو إسرائيل أمداً قدر في التوراة بخمسة وسبعين وأربعمائة عام ، ظلوا فيها يعمدون للمصريين ويتكلمون لغتهم ويتداولون فكرهم . ثم خرجوا يحملون . مع ما سلبوا من ثياب وحلى ، من ثقافة مصر وحضارتها وآدابها الكثير . وذهبت الحقائق بما أورثتهم مصر في نظمهم وآدابهم وعقائدهم مذهب ابتدائه التي لا تقبل الجدل ولا تفتقر إلى دليل ، ولا يكاد يذكر ذلك أو يتردد فيه إلا صهيوني أعماه التعصب والحقد عن حقائق العلم ونور اليقين . أو عميل يستطعم الصهيونية ، أو ضعيف يخشاه فيجاملها وهو في حرج وتنازع في نفسه بين باطل يتملقه وحق في أعماقه يؤمن به ويخفيه .

واقفد كان استقرار يوسف في مصر كما قلنا مكانة مكنه الله منها ، ولو وقع ذلك في ظل العبودية ونخاسة الرقيق ، لأنه إنما أقبل على قدر الله ليعلمه من تأويل الأحاديث . وكذلك نشأ موسى في قصر فرعون ليؤثر من التربية والعلم والحكمة على أيدي المصريين ما يؤهله لرسالة الله بعد حين . وبذلك اعترفت التوراة التي جعلت من حكمة المصريين نموذجاً ينفرد من حكمة أهل المشرق ونخصته بالذكر وجعلت في تجاوزه حد المبالغة والتبريز ، وكانت مقياساً لأرفع آيات الحكمة وفصل الخطاب ، إذ تحدثت عن سليمان في سفر الملوك قالت :

« وفاق حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر »

(الملوك الأول ٤ : ٢٠)

ومع ذلك فلسوف نرى مصدر حكمة سليمان وأتى أتى بها ، وقد كانت مصر مضرب المثل في أحاديث سليمان وأناشيده . وهل من صورة أروع من إعجاب سليمان بمصر وأنهاره بحضارتها ونعمتها من قوله في نشيد الإنشاد :

« لقد شبهتكَ يا حبيبتي بفرس في مركبات فرعون » (١ : ٩)
 وإنما يكون التشبيه بالمثل الأعلى الذي يراه المشبهون ، وكان سليمان ملكاً له من أبهة الملوك وزخرف الثراء ما يتبوأ منها حيث يشاء ، بل لقد كان في قصره الأسراب الكثيرة من حسان النساء . ولكنه لم ير تشبيهاً لحبيبتة أحسن غضارة ورونقاً ونعمة ونعيماً ولا أجمل من فرس من عداد خيل فرعون ، تعيش في حظائره ولا تعيش في قصره . وحسب مصر دليلاً على فضلها وإشعاع حضارتها أن تكون قبلة يتطلع إليها بالإكبار والإعجاب النواهل والملوك .

كان سليمان حكيماً عالماً ، ومن قبله كان أبوه داود عليهما السلام ولقد أثر عن داود وسليمان ما حفظ في العهد القديم من مزامير داود وأمثان سليمان :

« ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » . (النمل ١٥)

ولكن الحكمة إنما تسبقها الخبرة وحصيللة التجربة والتعليم ، وهذه الحكمة من غير شك منابع وأصول . وقد كان لهما من غير شك وسائل وسبل قدرها الله كي تصل إليهما . ولئن كان داود وسليمان قد عاشا في فلسطين . فلقد تعلمتا عن المدرسة التي أخذ عنها وعلمت من قبل يوسف ثم هارون وموسى . إنها مصر التي شاعت في فلسطين حضارتها وثقافتها ووقر في النفوس علمها وحكمتها . وكذلك فما ينبغي أن تغفل من الحسان ما كان بين سليمان ومصر من علائق وثيقة وشائج متبنة نوجت بالمصاهرة بينهما .

« وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حواشيها »
(الملوك الأول ٣ : ١ - ٢)

١. صعد فرعون ملك مصر وأخذ جازر وأحرقه بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاهم مهراً لابنته امرأة سليمان .

(الملوك الأول ٩ : ١٦)

كان لمصر بحكم تلك العلاقات القديمة تأثيرها في حضارة الشرق القديم وثقافته . ومع ذلك فقد شاء الله أن يتكشف الدليل الذي لا يأتيه الباحثان من بين يديه ولا من خلفه للعالمين . وأن يتبين مقدار ذلك التأثير العميق : حين تأذن فوفقمهم إلى قراءة طلاسم الهيروغليفية والهيراطية في القرن الماضي : وحين ظهر الناس على أناسيد أختاتون وسلطت أضواء الدراسة والبحث على ما كان عثر عليه من قراطيس البردي ، ومنها ما ظل حبيس المتحف البريطاني فلم يعرف محتواه إلا منذ أقل من نصف قرن من الزمان . هنالك عرف علماء الحضارة المصرية اسم بتاح حتب وأمن م أوبت وقرأوا حكمة هذا وذلك وراعهما ما وجدوا بينها وبين مزامير داود وسفر الأمثال من شبه مذهش غريب ، فهما لا يتفقان : معنى وروحاً فحسب بل إنهما ليتفقان في المعنى واللفظ جميعاً . وعاد العلماء إلى دراسة الكتاب المقدس وإمعان النظر فيه ليخرجوا من الدراسة والنظر إلى رأي قاطع وقول صريح . فقررُوا أن كاتب العهد القديم إنما كانت تحت يده ترجمة عبرية كاملة للكتاب الذي وضعه أمن م أوبت المصري وأنه كان ينقل منها بغير تحفظ ، بل لقد مضت بهم الدراسة بفضل النص المصري إلى تصحيح ما كان مشكوكاً فيه من ألفاظ النص العبري من سفر الأمثال وإلى ترجيح معنى من معنيين لهما في العبرية لفظ واحد

أو لفظان متجانسان (١) .

ولو قد تعقبنا آثار الفكر المصري في العهد القديم لما اتسعت ظا تلك الصبغات والفصول . والذي لا شك فيه اليوم أن الديانة العبرية لما بلغت مرحلة تحتاج فيها إلى أساليب القول وأدوات التعبير قد تلمست فيها حوها من آداب الأمم الأخرى ما يكفى طلابها ويسد حاجتها ؛ حيث وقعت بحكم موقعها الجغرافى وأقدار التاريخ فى فلك مصر الثقافى (٢) فضلا عن السياسى ، وما كان من التحام فلسطين بمصر منذ أقدم العصور ودخولها الإمبراطورية المصرية على عهد الدولة الحديثة حيث عمد العبرانيون إلى الأخذ والاقتباس عن مصر والمصريين . وإذا بنا نجد فى العهد القديم فصولا عبرية منقولة عن فصول مصرية أو عبارات وأخيلة مصرية متغلغلة فى نضاغيف النصوص العبرية وآيات العهد القديم . وسنضرب الأمثال من هذا وذاك ونبدأ بمقارنة فصول من المزامير بأخرى من أناشيد أختاتون ومن بعدها مقارنة سفر الأمثال بحكم أمنم أوبت :

فشيده أختاتون

فإذا غربت فى الأفق الشرقى صارت
الأرض فى ظلام كأذه الموت
وكل أسد يخرج من عرينه .

مزامير داود ١٠٤

تجعل ظلمة فيصير ليل

فيه يدب كل حيوان الوعر
ولتلتمس من الله طعامها

(١) انظر : فجر الضمير تأليف جيمس هنرى برستد وترجمة سليم حسن صفحة ٣٩٨ وما بعدها حتى صفحة ٤٠٧ وكذلك انظر Gardiner, Writing and Literature in Glanville, The Legacy of Egypt (1947), p. 66 - 79.

(٢) Ronald J. Williams, Some Egyptianisms, in the Old Testament in Studies in Honor of John A. Wilson (Chicago 1969), p. 93 ff.

مزامير داود (١٠٤)

تشرق الشمس فتجتمع وفي
مآربها تربض
للإنسان يخرج إلى عمله وإلى
شغله إلى المساء
ما أعظم أعمالك يارب
كلها بحكمة صنعت
ملائكة الأرض من غناك
هذا البحر الكبير الواسع
الأطراف
هناك دبابات بلا عدد
صغار حيوان مع كبار
هناك تجرى السفن

نشيد أحناتون
وفي الصباح . إذا أشرقت في
الآفاق انكشف الظلام
وإذا الناس يقومون على أقدامهم
في العالم . كله يؤدون أعمالهم
ما أكثر أعمالك
إنها خفية على أنظار الناس
خلقت الأرض كما نشاء .
والسفن تجرى في النهر هاعدة
هابطة على سواء .
والسمك يشب في النهر أمامك
ونورك ينفذ إلى قلب
الأخضر العظيم (البحر)

وورث سليمان داود . ولكنه ورث فيا ورث حكمة المصريين التي
وجدوها عند أبيه ومن أوتي العلم في فلسطين . وقد تجاوز سليمان الأناسيد
وللمزامير إلى الموعظة الحسنة وضرب الأمثال ، فإذا ما قرأناه لم نجد عن
تذكر حكمة أمن م أوبت مصرفاً .

سفر الأمثال لسليمان

أمل أذنك واسمع كلام الحكماء
ووجه قلبك إلى معرفتي
لأنه حسن إن حفظتها في جوفك
إن ثبتت جميعاً على شفئك
ألم أكتب لك ثلاثين فصلاً
من جهة مؤامرة ومعرفة

حكم أمن م أوبت ونصائحه

أمل أذنك واسمع كلامي
ووجه قلبك إلى فهمها
لأنه مفيد إن حفظتها في جوفك
واجعلها مستقرة في صندوق جوفك
تبصر لنفسك هذه الثلاثين فصلاً
فلما دسرة وتعليم :

سفر الأمثال لسليمان

لأعلمك قسط كلام الحق
لترد جواب الحق للذين أرسلوك
لا تسلب الفقير لكونه فقيراً
ولا تسحق المسكين في الباب
لا تستصحب رجلاً غصباً
ومع رجل ساخط لا تجيء
لا تنقل التحم القديم

أرأيت رجلاً مجتهداً في عمله
أمام الملوك يقف

إذا جلست تأكل مع متسلط
فتأمل ما هو أمامك تأملاً
وضع سكيناً لخنجرتك إن كنت شرها
لا تشته أطايبه لأنها خبز أكاذيب

لا تتعب لتصير غنياً
كف عن فطنتك

حكم أمن م أوبت ونصائح

معرفة كيف تعجيب الذي يتحدث
وكيف ترد على تقرير لمن أرسله
احذر أن تسلب الفقير
وأن تظلم المحزون
لا تستصحب غصباً
ولا تنقل عليه في حديث
لا تنقل العلامات من تخوم
الحقول ولا تكن شرهاً نحو
ذراع من أرض ولا تعند على
حدود أرملة
إن الكاتب الماهر في وظيفته يجد
نفسه جديراً بأن يكون من رجال
البلاط

لا تأكل خبزاً أمام عظيم
ولا تكشف فاك أمامه
وإذا أشبعتك لقمة حرام فإنما
هي لذة ريقك . انظر إلى
الوعاء الذي أمامك وعليك أن
تجعله يكفيك .

لا تشعب طلباً للمزيد
إذا كفيت حاجتك
فإذا جلب إليك بالسرقة لم
يبث معك
وفي الفجر لا يكون في بيتك

سفر الأمثال لسليمان

حكم أمن م أوبت ونصائحه

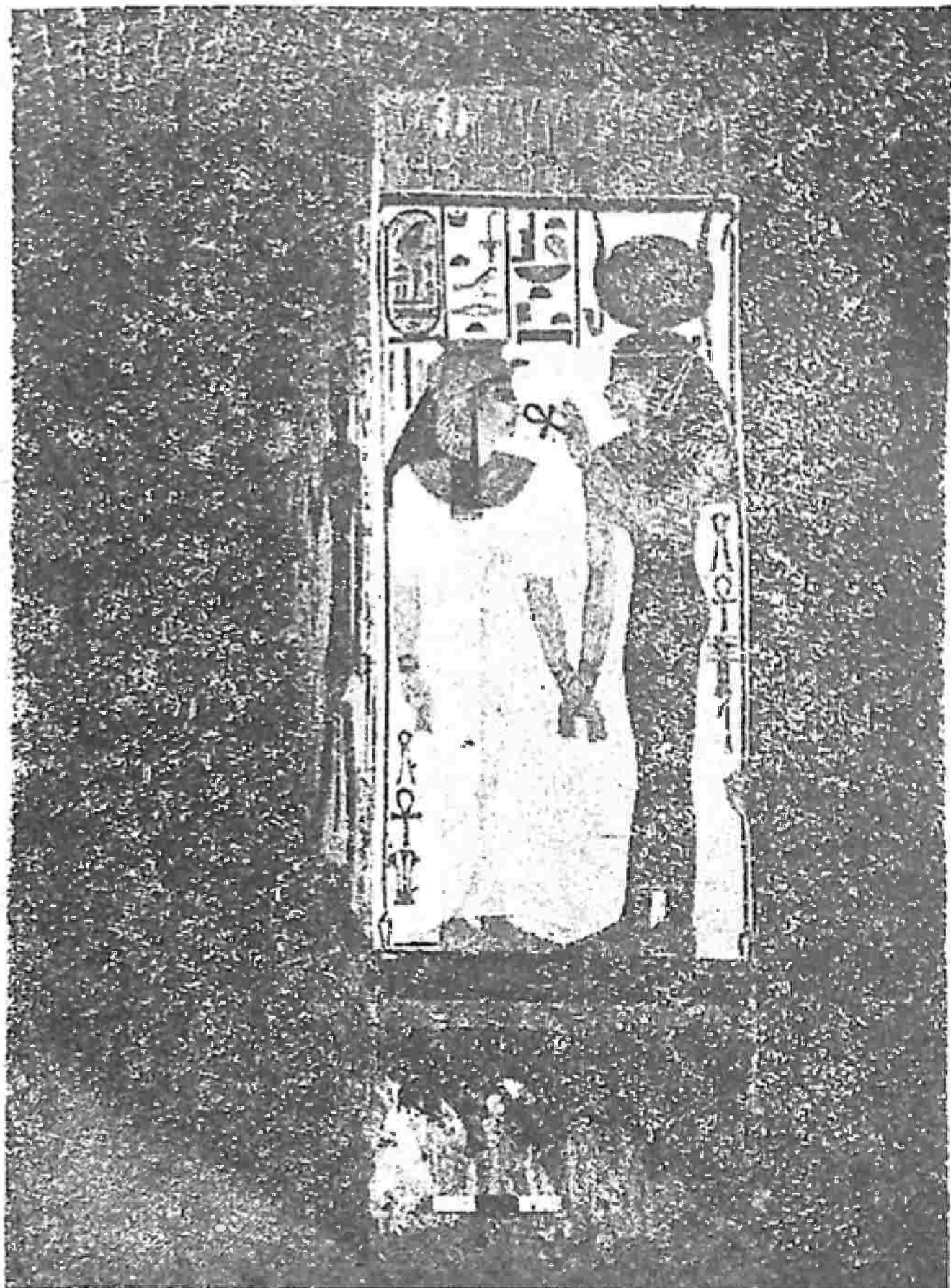
هل تطير عنيك نحوه وليس هو
لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة
كالنسر يطير نحو السماء

انظر مكانه وأيس هناك
لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة
كالإوز يطير نحو السماء

ومن العبارات والأساليب البلاغية المصرية التي انتزعت من بيئتهم وعقيدتهم ما نجدتها كثيرة عند العبريين . من ذلك ما نجد في سفر الخروج (١٣ : ٢) من وصف بكر البنين بأنه فاتح رحم أمه « لقدس لى كل بكر كل فاتح رحم من بنى إسرائيل » وهي عبارة من أقدم العبارات المصرية التي وردت في نصوص الأهرام ، وما نجد في مرثى أرميا (٤ : ٢) من وصف فريد للملك صديقاً بأنه « نفس أنوفنا » وهي عبارة مصرية شائعة في اللغة والفن ، نجدتها مثلاً فيما ورد عن أخناتون من أنه « نفس كل الأنوف التي يتنفس بها الناس » ولا شك أن مثل تلك العبارات التي تنطق عما كان لفرعون في عقيدة شعبه من طبيعة إلهية تجعله مصدر حياتهم وسعادتهم ، وقد كانت وجدت سبيلها من قبل على عهد الإمبراطورية إلى فلسطين : إذ كتب « ابيا لكى » وإلى مصر على صور إلى مليكه أخناتون يقول ممتدحاً : « ماذا تكون حياة امرئ لا تأتيه الأنفاس من فم سيده الملك » . وفي رسالة أخرى كتب بصور فرعون بأنه رب الشمس « الذى يمنع الحياة بنفسه الحلو » . كذلك كان من المذائح التي حظى بها رمسيس الثانى بأنه « نفس الحياة للناس أجمعين » وفي نصائح « لمريكارع » عن أبيه من عصر الفترة الأولى ورد عن إله الشمس رع : « إنه خالق الريح حتى تحيا أنوفهم » وفي ترنيمة لرب الشمس « إنك تمنح النسيم لأنوفهم » ، وذلك فضلاً عما نرى في التصاویر المصرية من مناظر الآلهة وهي تقرب رمز الحياة من أنف الملك (شكل ١٦) . وكذلك جاء في سفر التكوين (٢ : ٧) « وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً

حية ، كما روى عن أيوب قوله (٢٧ : ٣) . . . ونفخة الله في أنفى .
ومن مألوف العبارات المصرية الخالصة التى تدل على ما يتخذ
الإنسان من أسلوب حياته ما جاء فى مرثى أرميا من قوله (٣ : ٦٣)
« انظر إلى جلوسهم ووقوفهم » وفى مزامير داود (١٣٩ : ١) « يا رب
قد اخترتني وعرفتني ، أنت عرفت جلوسى وقيامى ، فهت كل فكرى
من بعيد » . وهى عبارة واردة فى نصوص الأهرام (٢١٩٨) أقدم مصادر
الأدب المصرى الدينى . حيث يتادى الملك : « أيا ونيس عش قبالة فؤادك
مثل أنويس ، قم واقعد على الف من الخبز والحنة » وعن كانجمنى من
الدولة القديمة أن أولاده بعد أن تلقوا نصائحه « قاموا وقعدوا عليها » أى
اتبعوها وساروا على منهجها . وفى نصائح بتاح حتب من الدولة القديمة
كذلك قوله : « قم واقعد على مكانتك » بمعنى اتبع من السلوك ما يتفق
ومكانتك » وعن رخميرع وزير تحتمس الثالث أنه قال « قمت وقعدت على
الأمامى والحنى من أمراس السفينة » بمعنى أنه أنفق شطراً من حياته سفاناً .

وما ورد فى العبارات المصرية فى أسفار التثنية وأشعيا ما حير
المفسرين ممن لم يثنوا إلى مصدرها الأصيل حتى كادوا برغم صحتها اللغوية
يتلمسون لها التعديل^(١) والتصحيح . إذ جاء فى سفر أشعيا (٤٥ : ١٥)
قوله « حَقّاً أَنْتَ إِلَهٌ مَحْتَجِبٌ يَا إِلَهَ إِسْرَائِيلَ الْخَلَصِ » وقد كان مبعث
الصعوبة والخيبة تفرد معنى العبارة فى هذا الموضع من العهد القديم
واختلافه عما ذكر فى المزامير مجازاً من أن يهوه يحجب نفسه (١٠ : ١) ،
(٤٧ : ٨٩) وذلك بمعنى امتناعه عن بذل العون إذا ما دعى ، حيث
نجد عبارة المزامير أدنى إلى الشكوى من أن الرب قد حجب وجهه عن
الشاكى ، ولذلك فإن المعنى من عبارة أشعيا إنما ندركه من
النظر فى الأدب المصرى حيث تسود عقيدة الحنى الغامض ، وكان آمون
عند المصريين إلهاً خفياً ويعنى اسمه « الحنى » وقد ورد عنه فيما ورد



(شکل ۱۶)

من أنشودة بمتحف القاهرة أنه « الخفى اسمه عن بنيه فى اسمه هذا آمون »^(١). وفى بردية من منتصف القرن الثالث عشر من قبل مولد المسيح يمتدح آمون من حيث هو قوة خفية تسود كل شىء « آمون الوحيد الذى يخفى نفسه عن الأرباب ولا يعرف امرؤ طبيعته . هو أبعد من الشمس وأعظم من العالم السفلى »^(٢). وكذلك جاء عن رع فى تعاليم مريكا رع : « لقد أخفى نفسه العلیم بالخلائق » .

وجملة فريدة أخرى من سفر التثنية وأشعيا (٥٤ : ٢) واضح أنها مستمدة من الأدب المصرى أن « أوسعى مكان خيمتك » إذ هى من العبارات المألوفة المعروفة فى المصادر المصرية منذ الدولة القديمة كما جاء عن كاجمنى قوله « واسع مكان السعيد » كناية عن حرية السعيد فى الوصول حيث يشاء وقول بتاح حتب « رجب مكان المدعو » . ومن عصر الدولة الوسطى عن سانوهى فى منفاه أنه قال « رجب مكاني » بمعنى حريرته فى التنقل حيث يشاء ومن عهد حاتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة عن موظف صغير اسمه سمنى عنخ قوله « رجب المكان فى بيت الحياة » أى أن له حرية الوصول إلى بيت الحياة . ويؤكد تحتمس الثالث فى نصوص تتويجه أن « آمون قد منحنى الملك حتى أوسع أمكنة خالتي » وقريب من ذلك التعبير البلاغى عبارة « وسيع الحطى » بمعنى حرية الحركة والتقدم والنصر . وقد ورد أقدم مثل لذلك فى متون الأهرام فى وصف الولد على سبيل المثال بأنه وسيعه خطاه^(٣) ، وفى أبيدوس يتوجه رمسيس الثانى بالخطاب إلى أبيه سبتي فيقول « خطاك وسيعه فى العالم السفلى »^(٤) . وذلك فضلا عما نجد فى بردية انسطاسى

ibid.

(١)

ibid.

(٢)

Pyr. 886 c; cf. 2123 c, 917 c.

(٣)

H. Gauthier, La Grande inscription dedicatoire

(٤)

d'Abydos (Le Caire 1912), I. 91.



(شکل ۱۷)

من الدولة الحديثة من عبارة « وسيع الخطى في المكان السرى »^(١)، ومن العصر البطلمي قولهم : « كانت خطاى وسيعة من أجلك في القصر »^(٢) وقد وجدت هذه العبارة ببصمها سبيلا إلى آداب الكتاب المقدس ، فيقول مزمور يتردد مرتين في العهد القديم « توسع خطواتى » (٨ : ٣٦) وفي آخر « أقمت في الرحب رجلى » (٣١ : ٨) على حين ورد المعنى معكوساً في سفر الأمثال (٤ : ١٢) « إذا سرت فلا تضيق خطواتك وإذا سعيت فلا تعثر » وفي سفر أيوب (١٨ : ٧) « تقصر خطوات قوته وتصصره مشورته » .

وبعد فما زال في العهد القديم من مثل ذلك كثير ، وذلك فضلا عما فيه من عبارات أخذت عن الحياة الدينية في مصر وتصاويرها . من ذلك ما جاء في سفر الأمثال (٢١ : ٢) « والرب وازن القلوب » وهي عبارة لا شك في صدورها عن الديانة المصرية ، يوم انفردت في الشرق القديم من دون ما كان فيه من عقائد بقولها إن الإله يزن قلب الإنسان ، وقد كان ذلك يجري بين يدى أوزيريس في الآخرة حيث حفظت لنا من مناظر التبور وتصاوير كتاب الموتى أمثلة كثيرة كان قلب الميت فيها يوزن لقاء ريشة الحق والعدل « ماعت » وذلك تحت إشراف رب الحكمة جحوتي (شكل ١٧) . ثم عبارة أخرى وردت في سفر ملاخي (٤ : ٢) لا شك في صدورها عن أصل مصرى : « ولكم أيها المتقون اسمى ، تشرق شمس البر ، والشفاء في أجنحتها » .

وتلك صورة لا حاجة بنا إلى الإفاضة في الحديث فيها بالنسبة إلى صورة الشمس المجنحة وكانت من الرموز المصرية التي لا يكاد يخلو منها أثر من آثار الدين في مصر ، فإذا كان لنا أن نضيف فإنما نتحدث

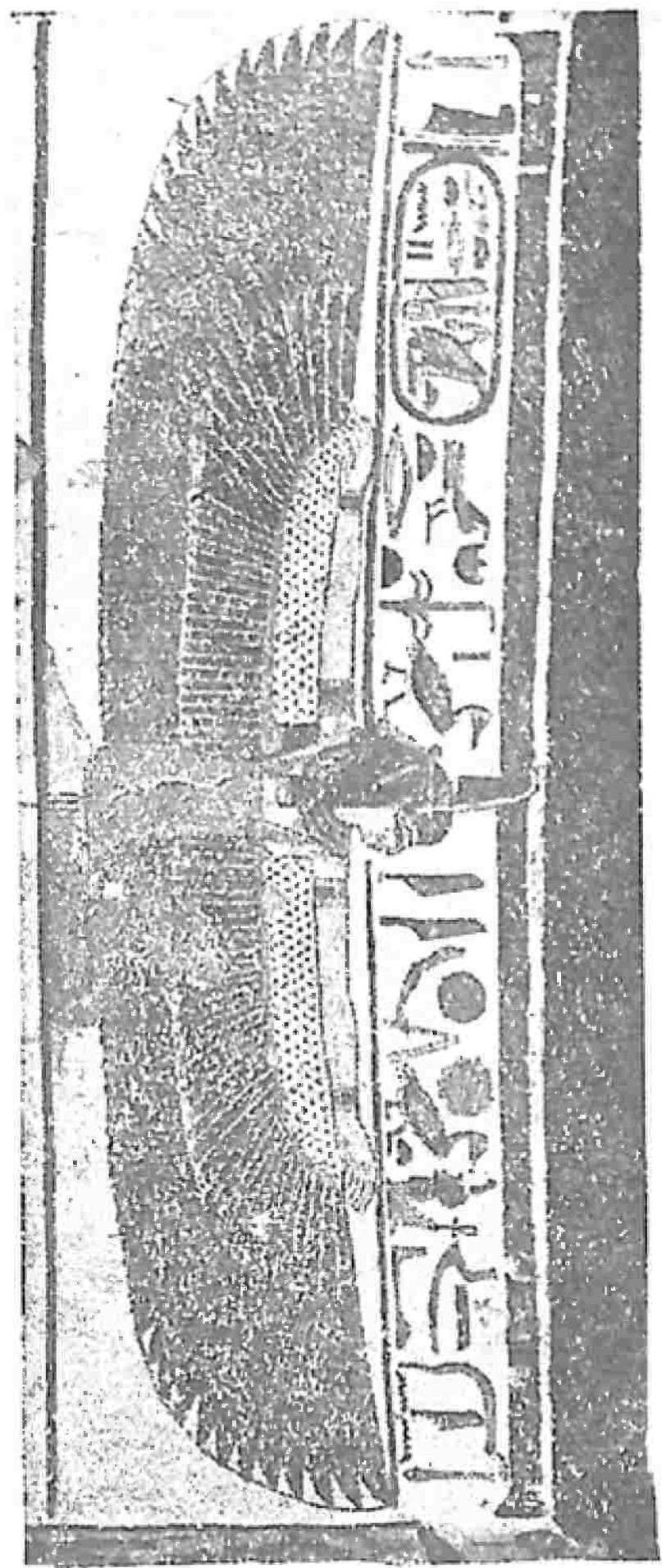
Pap. Anastasi III; 2.

(١)

Sethe, Urkunden II 3 l. 12.

(٢)

(شکل ۱۸)



عن « البر » في تلك الآية . وقد وردت في الترجمات الإنجليزية ^(١) والفرنسية ^(٢) والألمانية ^(٣) بمعنى الحق والعدل والقانون والمساواة وهي المعاني التي شملها كلها اسم الإلهة المصرية القديمة ماعت رمز تلك المعاني وربها جميعاً (شكل ١٨) . وقد كانت بنت معبود الشمس في مصر ، ولذلك فإن الحديث في العهد القديم عما تفيض شمس العدالة من شفاء وما لها من أجنحة تشرق بها إنما هو لا شك مستنير بما كان في الحياة المصرية والديانة المصرية لا مرأى .

ومع ذلك فقد تأيد ما كان شائعاً في بني إسرائيل من تلك التصورات المصرية بما عثر عليه في السامرة من تصاوير فلسطينية الصنع مصرية النمط والموضوع ، وذلك في خرائب قصر الملوك من بني إسرائيل ، حيث كشفت الحفائر عن بعض ما كانت تطعم به قطع الأثاث من ألواح العاج المنقوشة ، فترى في أحدها صورة لرب من أرباب الشمس بجسم الإنسان ورأس الصقر راکعاً يقرب في كفّه رمز الحق والعدل ماعت ، وفي الثانية صورة حورس الطفل أو حربوخراد منبعثاً من زهرة من زهور السوسن ، وأما الثالثة فتصور إيزيس ونفتيس في هيئة الطير تكتنفان أخاهما أوزيريس (شكل ١٩) .

ولقد بلغ من شيوع تلك العبادات والعقائد الوثنية منذ عهد باكر في بني إسرائيل وتغلغلها فيهم ^(٤) أن صاحب سفر الملوك الثاني قد نسب إلى موسى صنع حية من نحاس ظل بنو إسرائيل يقربون لها ويوقدون بين يديها حتى أزالها وسحقها حزقيا ابن آحاز ملك يهوذا .
(الملوك الثاني ١٨ : ٤) .

righteousness.

(١)

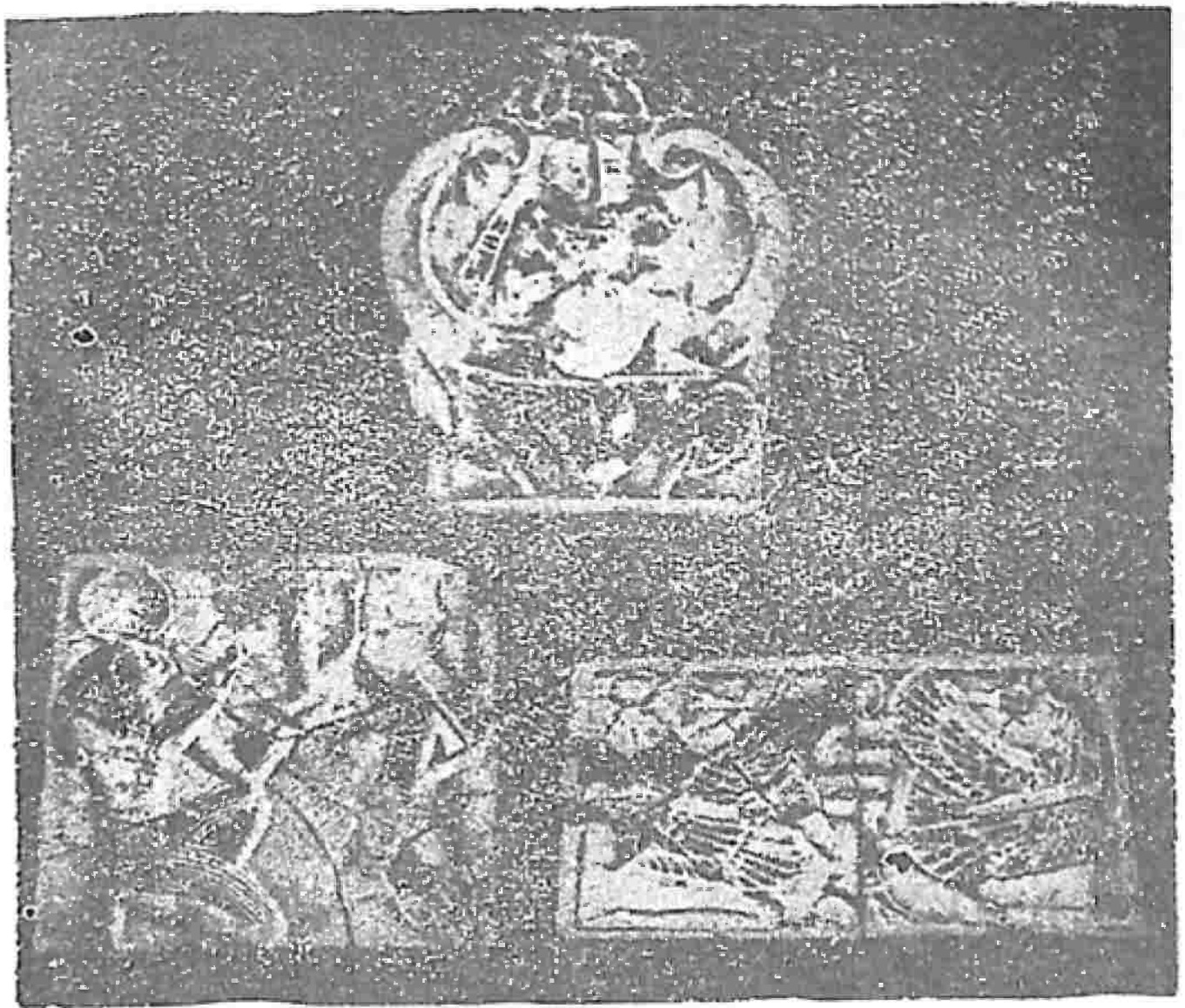
justice.

(٢)

Gerechtigkeit.

(٣)

(٤) سفر الملوك الثاني : إصحاح ١٧ : ٧ - ٢٣



(شکل ۱۹)

ولا حاجة بنا إلى القول أن الحية كانت من مصر ، حيث اتخذت صورة الحية لكثير مما قدس المصريون من معبودات .

على أن أجل ما يستحق الذكر عادات مصرية خرج بها بنو إسرائيل من مصر فتحولت شعائر مقدسة في ملة اليهود . إذ خرجوا بعادة الختان والغسل من الجنابة وتطهر الوالدة بعد أن تضع حملها ثم المحرقات أو تصعيد ذبائح القربان بالحريق .

أما الختان فكان معروفاً منذ أقدم العصور حيث كشف عما يدل عليه مما عثر عليه في جبانات فجر التاريخ من قبل أربعة آلاف عام من قبل مولد المسيح ، وذلك من رسوم بلغ من حفظها أن أمكن فحصها والاستدلال على اتباعهم الختان ، وذلك فضلاً عن صورة من الدولة القديمة في قبر عنخ مع حور من أطباء الأسرة السادسة وأخرى من الدولة الحديثة بالكرنك . وظاهر من أخبار التوراة كذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يختن إلا بعد عودته من مصر وإنجابه إسماعيل . ومن طريف ما ورد في خبر الختان في التوراة أنه كان يجري بأداة من صوان ، وكان المصريون قد بدءوا صنع أسلحتهم وسكاكينهم من صوان وكانوا يسمونه « دس » ثم لم تلبث السكينة نفسها ولو كانت من المعدن أن سميت دس ، وإن كان كتاب التوراة قد ظلوا يترجمون عن المصرية ما يدل عليه اللفظ من معنى أصيل .

وأما الغسل من الجنابة فقد دل عليه ما روينا من قصة الكاهن الذي تربص لعشيق زوجته وهو يغتسل في البحيرة^(١) . وكان المصريون يحرسون أشد الحرص على الاغتسال قبل دخول المعابد أو القبور ويحذرون من دخولها أقصى غاية الحذر على غير تطهر . وكذلك كان على المصرية التطهر إذا وضعت حملها بعد أربعة عشر يوماً من الوضع ، كما تحدثت بذلك بردية وستكار عن تطهر رددت في أعقاب وضعها توأمها

الثلاثة^(١) ، وكذلك فعل العبريون لولا أنهم نزلوا بتلك الفترة إلى النصف إذا وضعت غلاماً :

« إذا حينت امرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام : كما في أيام طمث عاتها تكون نجسة ، وفي اليوم الثامن يحنن لحم غرلته : ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوماً في دم تطهيرها . كل شيء مقدس لا تمس وإلى المقدس لا تجيء حتى تكمل أيام تطهيرها . وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما في طمثها . » (لاويين ١٢ : ٢ - ٥)

وفي سفر الخروج توصية من موسى - من قبل نزول الشريعة - « وقال للشعب كونوا مستعدين لليوم الثالث لا تقربوا امرأة » (خروج ١٩ : ١٥) وكذلك في سفر صمويل الأول (٢١ : ٤ - ٥) نجد داود وهو يتساءل عن إمكان أكله من الخبز المقدس فيقول : « ألم نتجنب النساء منذ ثلاثة أيام . . . فكل رجالى طاهرون » .

أما المحرقة أو الصاعدة فكانت من أهم ما أخذ اليهود عن المصريين من شعائر ، وكان المصريون يصعدون قربان في شعائرهم الجهرية^(٢) أو شكراً إذا خرجوا إلى سفر ويسمونه « سب ن سجت » وقد قدم البحار الغريق الذي حطمت الأنواء سفينته ثم ألقته الأمواج على شاطئ جزيرة منعزلة في البحر الأحمر ذلك فأقام محرقة^(٣) : كما عهدنا تلك الشعيرة في قبر سنبل بالجيزة وفي قبر منا بالأقصر . وكانت شعائر المحرقة عند اليهود تقضى بتقديم ذبيحة تحرق في الصباح وأخرى في المساء^(٤) وكذلك كان المصريون من قبل يفعلون .

op. cit., p. 89.

(١)

Junker, Das Brandopfer in Totenkult in Miscellanea

(٢)

Gregoriana (1941) p. 109 - 119.

Lefebvre, op. cit., p. 34.

(٣)

(٤) الفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه للدكتور حسن ظاظ (انقارمة

في سنة رسول الله

شرفت مصر من محمد صلى الله عليه وسلم بدعوته إلى الإسلام ،
إذ كتب إلى المقوقس وإلى الروم عليها كتابه المشهور إذ يقول :
« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى
المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني
أدعوك بدعاية الإسلام فاسلم تسلم . يؤتلك الله أجرك مرتين ، فإن توليت
فعليك إثم كل القبط » .

« يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله
ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ،
فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وقد رد المقوقس فبعث إلى رسول الله جارية هي مارية القبطية
التي أنجبت له ابنه إبراهيم .

ثم كان لرسول الله في مصر وأهل مصر من أحاديثه الشريفة من
جوامع الكلم ما قدر لها ولهم من الفضل والكرم ما نقله هنا عن جلال
الدين السيوطي من كتابه حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة قال :
قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في فتوح
مصر ، حدثنا أشهب بن عبد العزيز وعبد الملك بن مسلمة قال حدثنا
مالك بن أنس عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك
عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا افتتحتم
مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً .

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط
فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً » .

وأخرج ابن عبد الحكم من طريق بجير بن داجر المغافري

عن عمرو بن العاص عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لكم منهم صهراً وذمة .

وأخرج الطبراني في الكبير وأبو نعيم في دلائل النبوة بسند صحيح عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى عند وفاته فقال : الله الله في قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله .

وأخرج أبو يعلى في سنده وابن عبد الحكم بسند صحيح من طريق ابن هانئ الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجليلى وعمرو بن حريث وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم خيراً فإنهم قوة وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله ، يعنى قبط مصر .

وأخرج ابن عبد الحكم من طريق ابن سالم الجليشاني وسفيان ابن هانئ أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنكم ستكونون أجناداً وخير أجنادكم أهل المغرب منكم فاتقوا الله في القبط لا تأكلوهم أكل الخضر .

وأخرج ابن عبد الحكم عن مسلم بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : استوصوا بالقبط خيراً فإنكم ستجدونهم نهم الأعوان على قتال عدوكم .

وأخرج ابن عبد الحكم عن موسى بن أبي أيوب الياقني عن رجل من المريد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرض فأنعمى عليه ثم أفاق فقال : استوصوا بالآدم الجعد ثم أنعمى عليه الثانية ثم أفاق فقال مثل ذلك فقال القوم لو سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآدم الجعد فأفاق فسألوه فقال قبط مصر فإنهم أخوال وأصهار وهم أعوانكم على

عدوكم وأعوانكم على دينكم ، فقالوا كيف يكونون أعواننا على ديننا
يا رسول الله فقال يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة فالراضي بما
يؤتي إليهم كالفاعل بهم . والكاره لما يؤتي إليهم من الظلم كالمستتره
عنهم .

وأخرج ابن عبد الحكم عن ابن خزيمة قال حدثني عمر مولى عفرة
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الله الله في أهل الذمة أهل المدرة
السود السحيم الجعاد فإن لهم نسباً وصهراً . قال عمر مولى عفرة صهرهم
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى منهم : ونسبهم أن أم إسماعيل
عليه السلام منهم فأخبرني ابن خزيمة أن أم إسماعيل هاجر من
أم العرب .

وقال إمام بن عبد الحكم حدثنا عمر بن صالح أخبرنا مرداني
القصاص قال : صاهر إلى القبط من الأنبياء ثلاثة : إبراهيم عليه الصلاة
والسلام تسرى هاجر ، ويوسف عليه الصلاة والسلام تزوج بنت صاحب
عين شمس ورسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى مارية .

وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب أن المقوقس
أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم عسلاً من عسل بنها فأعجب
النبي صلى الله عليه وسلم فدعا في عسل بنها بالبركة . مرسل حسن الإسناد .
وأخرج ابن عبد الحكم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا
فيها جنداً كثيفاً فذلك خير أجناد الأرض ، فقال ولم يا رسول الله ؟ قال
لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة .

القبط

تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم — كما تحدث مؤرخو
عصره عن المصريين باسم القبط والأقباط : ومن ذلك اللفظ كان

اسمها الذي عرفت به عند الإغريق والرومان ، ثم عند الأوربيين ، من بعد ذلك ، أجمعين . ولم يكن لاسمهم هذا من دلالة على ما كانوا ينتحلون من ملة أو يعتنقون من دين . فكل من فيها إذن قبط وأقباط . ولم يكن ذلك اللفظ إلا تصحيفاً لاسم من أسماء مدينتهم منف التي كانت في مصر عاصمة كبرى من عواصم الدنيا والدين ، حيث نشأ فيها لمعبودهم بتاح معبد عظيم عرف باسم حت كا بتاح بمعنى دار روح بتاح : بلغ من الشهرة والعظمة بين المصريين ومن ساكنهم من الجاليات الأجنبية الكثيرة أن أضنى اسمه على المدينة كلها ثم على البلد كله . فإذا بمنف ثم مصر كلها تعرف باسم حت كا بتاح ، ومنه كان إنجيتوس وقبط ثم إنجيت EGYPT ، فالمصريون بذلك قبط وأقباط من قبل الإسلام ومن بعد الإسلام . وهم كذلك ، سواء من أقام على ملة المسيح أو دخل في ملة الإسلام ، ولا فرق بين أن يقال مصري وقبطي إلا كالفرق بين القول شامي ودمشقي أو إنجليزي وبريطاني أو كالفرق بين النسبة إلى العراق والنسبة إلى اسمها القديم بابل أو بلاد النهرين Mesopotamia

وهما يكن من سند ما أوردنا من أحاديث رسول الله في أهل مصر ، وهي عن رجل من كبار علماء المسلمين المفسرين ، فهمي تناول أموراً ثلاثة نجد مصداقاً لما بين أيدينا منها ، من أحداث التاريخ وأحوال أهلها .

الأول : أن للعرب فهم صمراً وذمة .
 الثاني : أنهم يكونون قوة وبلاغاً إلى عدوهم .
 الثالث : أنهم خير الأجناد وأنهم يكونون نعم الأعوان على قتال عدوهم .

وهي من الحقائق الناصعات التي صدقتها وقائع الأحداث ، وثبتتها التاريخ على مر القرون والعصور .

فهم - فيما روى عنه صلى الله عليه وسلم للعرب أحوال وأصهار ،
فمنهم هاجر - أو - هاجر - أم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ،
ولا حاجة بنا إلى التفصيل فيما أسلفناه وفصلناه ، ومنهم كانت مارية
القبطية التي تسراها وأنجب منها إبراهيم محمد رسول الله .

ومع ذلك فلم يكن المصري قصى العرق من العربى فى غابر الأعوام
ولا حاصر الأيام . فلقد شهدت العصور الأولى من فجر التاريخ شعوباً
وبطوناً عربية تنطلق من قلب الجزيرة العربية كل منطلق إلى
مواقع الحصب والاستقرار . فمنهم من استقر فى أرض الفراتين فكانوا
من أصول العراقيين ، ومنهم من استقروا فى أرض الشام فكانوا من أصول
السوريين واللبنانيين وغيرهم عبر سيناء إلى أرض مصر على ضفاف
النيل ليكونوا مصريين . وآخرون استقروا فى أقصى الجنوب من
الجزيرة أو أقصى الشرق منها يمانيين وحضارمة وعمانيين . أولئك
وهؤلاء كانوا شعوباً وقبائل سامية تتفرع من أصل واحد ترد نسبته
إلى سام بن نوح ، ويتكلمون لغات نبطت من معين واحد وإن بعدت
فيما بينها الشقة من بعد التفرقة والانشعاب حيث كان التوطن والاستقرار .
ولم يكن لقبيلة يومئذ أن تؤثر نفسها وكلها من أصل واحد
بصفة العروبة دون غيرها من أهل تلك الأمصار أو هذه الديار ،
فلم يكن معنى العروبة قد نبت بعد إلى الوجود ، ولقد أتى على العرب
حين من الدهر كانوا يتكلمون فيه لغات وفججات شتى لا يكاد يجمعها
إلا العرق والدم برغم عسر التفاهم بل عسر التقارب والوثام ، ولم تكن
لغة السبئيين والحميريين فى أقصى جنوب الجزيرة العربية بأقرب من
المصرية إلى النبطية والآرامية فى أقصى شمالها^(١) .
ولقد كانت اللغة المصرية القديمة لغة ذات صبغة سامية فى

(١) التاريخ العربى القديم تأليف ديتلف نيلسن وفريتز هولم ول .
رودر كاناكس ادولف جرومان . ترجمه واستكملة د. فؤاد حسنين على ص ٢٧ .

بنيتها وكثير من ألفاظها : فهي تقوم على الفعل الثلاثي الذي يصرف
ويشتق منه اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة ، وتنشأ فيها
الضمائر المنفصلة والمتصلة بنظائرها في العربية والعبرية والآرامية
والآرامية والحعزية الحبشية والسبئية ، ويثنى فيها الاسم فضلاً عن جمعه
بل جمعه بالواو . كل ذلك فضلاً عن شبه لا يكاد يقع تحت حصر
في ألفاظ اللغة وكلماتها ، فمنها ما يبدو صريحاً لا لبس فيه ومنها
ما هو مستخف من وراء القلب والتصحييف أو تبدل المتشابه من الحروف (١) .
فلما تأذن ربك بفتح مصر تحت راية الإسلام إذا بها . عن تغلغل
فيها من العرب وأقبل عليها من أنصار القرآن تنصر بصهرهم وتستحيل
عربية صريحة بقلبها ولسانها ، وإذا بها تنقاد لقدرها المقدور فتكون
الإمام والزعيم .

على أن زعامتها لم تكن فريسة غصبتها ولا غنيمة افترصتها
من دون الآخرين . بل كانت أمراً منطقيّاً تداعى إليه وقائع الأحداث
والتاريخ ، كأنها حقائق العلوم وأفلاك النجوم . لذلك كانت وتكون
في تلك الرقعة من الأرض الزعيم وصانع الزعماء ، ثم تكون وأهلها كما روى
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم الأعوان . ولئن كان صلاح
الدين الأيوبي زعيماً وبطلاً في العرب والمسلمين فما كان لزعامته أن تستقيم
ويورى زنادها بغير مصر . وما كان لمحمد عليّ أوائل القرن الماضي
أن يبلغ ما بلغ بغير مصر . ومن قبله أدرك المخز لدين الله من عرشه في
المغرب ألا غناء — فيما أراد لنفسه وللدولة — عن مصر ، ولقد كان
قوله في خطبته عند إفتاده جوهرًا لفتحها قولاً عن بصر وبصيرة
وعن تقدير وتدبير إذ قال : « ولسوف يفتح جوهر مصر ويبنى هناك
مدينة تفهم الدنيا » .
وقد فتحها وأنشأ القاهرة .

ومع ذلك فلم تكن تلك الزعامة ادعاء منها فرضته أو ادعته على خلاف المنطق من الوقائع والأحداث . وحسبها من ذلك أن يرشحها لذلك الأعداء ويقرروا لها به فيما صدروا عنه من فعل لمصلحتهم هم لا لمصلحتنا هي . فلقد أدرك الصليبيون أن لا مستقر لهم في الشرق باستقرار مصر ، ولا نصر لهم يحقق المطامع وفي مصر عرق ينبض بالمقاومة والصراع فلم يبالوا أن تتحول حملاتهم عما خرجت له من بيت المقدس إلى مصر . لأنهم أدركوا أن لا مناص لهم من تحطيم الرأس والقضاء على الروح المحرك والقوة الدافعة (١) أو أنهم أدركوا أن في أهلها - كما روى عن رسول الله صلوات الله عليه - قوة وبلاغاً إلى عدوهم . فتصدت هجوماتهم بقيادة جان دي برين على عهد الملك العادل الأيوبي وخليفته الملك الكامل ، ثم استقبلت حملة السلام التي جاء بها الإمبراطور الألماني فردريك الثاني ؛ ثم عادت فتصدت لحملة لويس التاسع المشهورة على عهد الصالح أيوب وابنه توران شاد . فبذلت لكل منهم مثل الذي أراد . فجنحت مع من جنح إلى السلم وأذاقت الهوان من أراد بها الهوان .

بل لقد ظلى إقرار الأعداء بتلك الزعامة واستشعارهم ما في طاقتها من قدرة قائماً في عصور ضعفها ومحنها واضطرابها إلى الاستكانة - حيناً - لحكم غاصب دخيل . فما خضعت لسلطان إلا وضع لحكمها نظاماً متميزاً يخيل به لنفسه أنه يحول بينها وبين التحلل من قيوده والتحرر منه أولاً ، ويحول بينها وبين الامتداد إلى جيرانها بالعون والتأييد ثانياً .

كذلك فعل الرومان ، وكذلك فعل الترك من آل عثمان . ومع ذلك فهيهاات هيهاات ، مهما طال الأمد أو بعدت الشقة ،

Lanc-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, (١)

(London 1914) p. 218.

أن يعرقل برية الخالق إنسان ، أو يعطل مسير الزمان . فلقد ظلت
وستظل من العرب بمثابة القلب والمقتل من الجسم لمن أرادهم بمكروه ،
من أصابها أصابهم ومن عزلها عنهم فكأنما عزل عن الجسم الرأس وشل
مراكز الأعصاب .

وكذلك دبرت وتدبر دول المطامع في العصر الحديث .
وكذلك أقامت بينها وبين أخواتها العربيات حائلا من أحقاد
الصهيونية وأطماعها .

ولكن هميات هميات - مهما طال الأمد أو بعدت الشقة - أن
يعرقل برية الخالق إنسان أو يعطل مسير الزمان ،
ومع ذلك فهل يدرك الإخوة العرب اليوم أن الأوان للعمل قد آن ؟
وما أصدقها من قولة لعظيم من عواهل العرب المحدثين هو « الوثائق
بالودود عبد العزيز آل سعود » قال :

صلاح العرب بصلاح مصر .

إذا استقامت أمور مصر استقاموا

وإن أصابها - لا قدر الله - العوج ضلوا الطريق ^(١) .

وفضلا عن ذلك فلم يبعد بنا العهد عام ١٩٥٦ بمن قال من
ساسة فرنسا يومئذ ، إن معركة الجزائر إنما تقاتل في القاهرة . فتلك إذن
حقيقة الحقائق لا ريب ولا مرأ .

وحسبها وقد اختلطت بالعقول والأحاسيس والمشاعر أن يقول بها
حكيم من عواهل الشرق وأريب من ساسة الغرب ، ويقول بها على لسان
مصر شاعر ترجم بها عن حس كل عربي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق :
أنا إن قدر الإله مماتى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
ولقد لقيت مصر ما لقيت بحكم ما احتملت من كفالة فرضت

(١) مقال بصراحة لمحمد حسنين عيكل بصحيفة الأهرام يوم الجمعة

عليها بما جبلت عليه من خلقها وخليقتها : ولم تجد عنها - شهامة
والتراماً في سبيل أخواتها - مصرفاً : وإدراكاً منها مع ذلك أنها
وأخواتها كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد
بالسهر والحسنى .

وصدق رسول الله بما روى عنه من قوله فيها :
« فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك خير أجناد الأرض »
« فإنكم ستجدوهم نعم الأعوان على قتال عدوكم » .
« ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله » .

ولقد مكن الله ذلك بما توفر لها من أموال وبنين وبما حباها به من
جنات وعيون وكنوز وزروع ومقام كريم ، فطرح لها المدد بل الأمداد
من الجند الكثيف : وما زال في طوعها بالتنظيم والتسليح تجنيد خمسة
آلاف ألف من المقاتلة مدججين ، أولئك ينبعثون من أرض فرضت عليهم
- مع سخائها - الدأب والمثابرة والكد والكفاح : حيث نشأ المصري
عاملاً بطبعه منشئاً بفطرته على مدى تاريخه القديم والحديث : من الحرم
العالى إلى السد العالى ، ومن كفاح مع المكسوس في هواره وشاروحن إلى
معارك خمس الثالث في مجدو وقرقيش ومعارك ابنه أمنتب الثاني في
شمش أدوم والأررونت والنهرين ، ثم معارك ومسيس الثاني في قادش ودابور
وتونب وحلب ، ثم كفاح مع الصليبيين والمغول ثم الترك والفرنسيين والإنجليز
والصهيونيين . كفاح للرزق مع الأرض وكفاح العدو من أجل الأرض :
واختلاف الأيام عليها بالنحوس والسعود وبالخرقة والانتصار ، ولكنه في
هذا كله جلد دءوب قوى صبور . فما تغشاه من محنة إلا تغلب عليها
واجتازها وفرض نفسه عليها . ولقد أقبل على مصر البطالة فحكموها
وجرموا أهلها الجندية إلا خدماً معاونين ، فلما اضطرب فيلويپاتور إلى
تجنيدهم حين اشتدت عليه وتأزمت الأمور إذا بهم برغم طول عزلة عن
الجندية يخوضون عام ٢١٧ ق . م معركة هائلة في رفح انزعوا فيها من
السلوكيين النصر المبين ، وأثبتوا ما في أعماقهم من قوة كامنة تنطلق

ما أتيح لها التفجر والانطلاق .

لقد صدق رسول الله فيما قدر لأهل هذا المصر من مصير . كفاح لم ينقطع ولن ينقطع ما دام في الأرض — يضطرب فيها بغرائزهم ونزعاتهم الناس من أخوة قابيل وها بيل ، ولذلك فهم كما قال « في رباط إلى يوم القيامة » ولا غرو يكونون لذلك خير أجناد الأرض . وهم مع ما جبلوا عليه من القوة والنداب قد امتازوا كذلك بقوة تهب معها قوة العضل وبأس الحديد . تلك هي .

قوة الإيمان

إيمان بربه هون عليه الموت حيث أنكر الموت فما رآه إلا مجازاً إلى حياة الخلود .

إيمان أقام في نفسه على اختلاف الملل والنحل على مر القرون والعصور : من نخلة أوزيريس وحورس بن إيزيس إلى ملة عيسى بن مريم إلى دين الإسلام . فهو صائر بنص هذه أو تلك إلى حقول بارو أو الحياة الأبدية أو جنات عدن تجري من تحتها الأنهار .

ثم إيمان بوطنه الذي تخيل فردوس الآخرة على عبورته ، أو إيمان بأن بلاده « أم الدنيا » . ولذلك فهو يلقى مصيره وأقداره مقبلاً غير مدبر ، ولذلك فهو وآنه من قبل في رباط ، وصادق رسول الله « ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم » . فما تنزل من محنة يتعرض لها العرب إلا كانت مصر صاحبة الكفل الأعظم فيما تحتمل من تلك المحنة ثم صاحبة السهم الأكبر فيما تبذل لإبلاغهم النجاة والخلاص .

كانوا هم الصخرة التي تحضمت عليها أمواج المغول وجحافل المغول في عين جالوت . حين ندافعوا كالسيل انعزم على العراق يدمرون ويخربون . حتى « احمرت الأرض من دم العباد واسود ماء دجلة من

المداد» .. إذ كانوا هم القوة التي أنقذت حضارة الإسلام من جند هولاء
ثم جند غازان.

وكذلك خاضت ما شاء الله من معارك ضد جحافل الصليبيين .
حيث شاء الله لها وبید بنیها أن تخلى المشرق ممن تسروا بالمسيح واعتصموا
بأضماهم من وراء النصبان ، وشهدت لها صحائف الأيام بما بذلت
في أرسوف وحطين وفي المنصورة وفارسكور ثم في عكا وأرصاد .

لذلك فقد كتب على المصريين بحكم موقعهم كما قدمنا وتكرر
أن يكونوا كما قال رسول الله في رباط ، أو كما نقول نحن في تأهب
واستعداد . ولقد علمهم التاريخ وما ينبغي أن ينسوا أنهم منتصرون ما أقاموا
في رباط متأهبين ، ممسكين أسلحتهم متمسكين بالأخلاق ساهرين ،
وأهم أذلة صاغرون إن أعرضوا وتركوا السلاح أو أهملوا النضال ولكفاح .

والله إنها لهم وللعرب بدر أو أحد أو هي الأحزاب أو حنين
لا اختلاف مهما بعدت الشقة أو تقلب الزمان .
إيمان ونظام يحفظ القوة ويأتي بالنصر .

أو أطماع ومغانم وغرور وتهريج تجر الهزيمة وتستتبع الهوان .
وما أرى رباط اليوم بغير العلم الذي لا غناء عنه فهو اليوم صنو
الحياة والأنفاس .

ولا رباط اليوم بغير سلاحنا نصنعه مهما غلا فلا نتكفف في سبيله
وعوداً قد لا نتجاوز الشفاه .

لقد كانوا وما زالوا خير أجناد الأرض منذ عصور الفراعين حتى هذا
الحيل من أبنائها المحدثين .

وقد أثبتوا للبطالة في موقعة رفح بعد طول حرمان من الجندية أنهم
جنود محاربون ، وأثبتوا تحت محمد علي كيف يغلبون الترك ويبهزون
الأوربيين ويروعون .

ومع ذلك فقد لا تبدو شجاعة الشجاع ولا صلابته في معارك الظفر

والانتصار ، بقدر ظهورها في محن الخزيمة والانكسار ، وسوف يعلن التاريخ كيف قاتل القلة من أبنائنا في بعض بقاع سيناء عام ١٩٥٦ وكيف قاتلوا برغمه حول النكسة عام ١٩٦٧ . وهاهم ينتصرون ويروعون عام ١٩٧٣ .

هم خير أجناد الأرض مطبوعين فلتتعهدهم بالتربية والتعليم صانعين . ولنعد إلى ما روى من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته في أهل مصر: « فإنهم قوة وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله » . ولقد اختار عليه الصلاة والسلام هذا الوصف بأنهم هم القوة لأن القوة جوهر في ذاتها تتمثل فيهم وليست صفة عارضة تنسب إليهم يوماً وتنتفي عنهم في غيره من الأيام . ولقد كان المصريون قوة تفجرت عنها وانطلقت منها ما تسامعت به أجيال من بعد أجيال . على أن المتأمل لا يحتاج إلى النظر وإمعان التفكير في قوة القوى إذا قضى أو أراد . وإنما تمتحن القوة إذا اعتورتها المحن الملهمة والمصائب الشداد ولقد عرفت في المصريين القوة بما ركب في ضميرهم ورسخ في أعماقهم من قدرة على المقاومة والصمود .

هم قوة بما جبلوا عليه من المصابرة والعناد . فلا مبدل لإرادتهم بغير إرادتهم ولو وقع الإكراه من أهل التجبر ولطغيان .

فلم يستطع أخناتون حملهم على التوحيد من حيث رفضوه . كما لم يستطع دقيان حملهم على الكفر لأنهم كرهوه واستنكروه . ولم يبالو مع الأول تعرضهم لعسف واستبداد . ولا مع الثاني لقتل واستشهاد . وربما هادنوا الضغيان تحبباً للصدام والصراع . وسأبروه سخرية على غير طاعة ولا انصياع . أقبل عليهم المكسوس فأقاموا فيهم نيفاً وقرناً من الزمان متسلطين فاتحين ، وأقام المصريون بتحسين الفرصة أبقاظاً ساهرين .

فلما آن الأوان خرجوا عليهم نخرج العازم المنتقم الذي لا يرضى بغير الحرية أو الحمام . ووقف الشعب من وراء حماته وأجناده يبذل عن طواعية وسخاء . ولا يبالي بغير غايته ومبتغاه .

ولم يخذلهم البطالة عن أنفسهم ولا دينهم فأقاموا على المقاومة والثورات ولم يطمئنا إلى دين خرجوا به وابتدعوه ، بل ظلوا بترأسهم مستمسكين وعلى عادتهم عاكفين . وأقاموا على إنشاء المعابد ورعاية الهياكل والمحاريب . بل لقد شكنا هيرودوت من المصري اشمئزاه من الإغريق أن يقبله أو يصطنع أدواته أو يشرب من إنائه . وفي ذلك مظهر من أشد مظاهر المقاطعة للطاري والترف على السخيل . ومع ذلك فقد أخذت حضارة الغالب عن حضارة المغلوب . واعترف فلاسفة الإغريق بحكمة المصريين . وغزا دين المصريين قلوب اليونانيين والرومان أجمعين .

وأقبل الفاطميون يحملون مع الإسلام مذهباً في التشيع م يرضوه ولم يسيغوه ، ثم زالت سلطنتهم وانحسرت دولتهم فما تركوا في مصر من شيعي واحد . وقد تبين صلابة المصريين وعنادهم مما اتبع الفاطميون في سبيل نشر المذهب قرنين كاملين من دعوة منظمة تولاها مع داعي الدعاة سيف المعز وذهبه وتولته بطانته وأنصاره . وتغلغلت الدعوة في المجتمع مواكب وأعياداً ومآدب وحفلات ، وأخباراً كثيرة عن كرامات ومعجزات . بل كان للدعوة مدخلها المقبول اللطيف إلى نفوس الناس وهي تدعو إلى إجلال آل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد أغرم المصريون وما زالوا بآل البيت وإجلال آل البيت ، بل إن حب آل البيت لمقيم في النفوس راسخ في القلوب . وما زال من المصريين من يشرف ويفخر بنسبه إلى ابن بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام .

على دين واحد كان الحاكم والمحكوم .
وعلى رأي واحد في حب آل البيت وإجلال آل البيت كان الحاكم والمحكوم ، فأما أن يتعدى الحب والإجلال إلى ما ليس له به علم فتلك

حدود الصدوف ومواقع الوقوف .

لأنه إنما يدرك بما رسخ في أعماقه من دقيق الحس والشعور وما منح من ذكاء فطري يميز به - مظان الحلال ومواطن الخلاف ، وإذا بالأزهر الذي أسس لدراسة المذهب الشيعي يتحول إلى أكبر مدرسة لتعليم الدين على مذاهب أهل السنة والتابعين .

ثم أقبل على مصر الترك من آل عثمان .

اولئك حملوا راية الإسلام على مذهب السنة فلا خلاف في المذهب ولا خصام .

وجاء السلطان فحشر فنادى ، فقال أنا سلطان البرين وخاقان البحرين ، وأنا حامى حمى الحرمين ، وأنا أمير المؤمنين وخليفة المسلمين .

وأقبل الترك على المصريين أفواجاً يزعمون لأنفسهم تفوقاً لا أدري - بغير الفتح والغلب - كيف كسبوه إن كانوا بالحق برهنوه وما برهنوه . فكل رفيع ممتاز عندهم تركي وعثماني وإسلامبولي أو اسطمبولي . وغير التركي في عينهم « فلاح » أو من فلاح « خيرسيس » .

هنالك تجلت قوة المصرية في المصريين كأروع ما تكون قوة الإحساس بالنفس والإحساس بمكانته من حضارة الإنسان من قديم الزمان . ذلك أنه قادر على أن يميز الطبل الأجوف ولو دوى دوى الرعود ، والومض الحلب ولو كاد سنابرقه يذهب بالأبصار . أقبل التركي باسم الخلافة والإسلام ولكن المصرى بحسه المدهف وحكمته العريقة قد فرق بين دعوة الإسلام السمحة وبين التسلط المرفوض في الحكم المرفوض . واتخذ سياسة من أدق ما اتخذ إنسان من سياسة وأبرعها مسلكاً . كره التركي في تسلطه واستعلائه وخالفه وقاومه . ولكنه حالفه على قوى البنى الأوربي واستعمار الغاصبين .

لذلك فما تلبث تلك الأفواج التركية أن تدخل فيمتصهم كعادتهم المصريون ، ويهضمهم المصريون . يمتصونهم بشراً وإخوة ويهضمونهم نسباً وصهرراً بغير سيادة مقحمة أو استعلاء مزعوم . ويقم المصري على

اعتزازه بنفسه وتقدير ثقافته وحضارته . فلا يثير استعلاء التركي منه إلا السخرية المريرة والضحك العريض ، فلماذا زال السلطان التركي لم يترك في المجتمع المصري إلا ما يتركه الماء الصافي على الجلاميد الملساء فلا تركية ولا عثمانلية .

وقد شاء نابليون أن يوطئ لأحلامه في مصر بما شاء أن يزعم ويدعى من المزاعم والدعابات . فما كان جواب قومها إلا ثورة القاهرة الأولى وثورتها الثانية ثم مقتل كليبر خليفته فيها وضابطه الكبير .

وقد يبدو للمخدوع وصاحب النظر السطحي كأن المصريين يخدعون عن أمرهم حيث يراهم كأنما أبادوا السلطان الجائر ونصروه ؛ وتعشو عينه عن سلاح عجيب من أسلحة الخذلان والتضليل عرفوه واتبعوه ؛ ذلكم هو سلاح النسبية والإهمال وما غير عنه شوقي رحمه الله في قوله :

لقد أنشئت أذنًا غير واعية ورب مستمع وأقلب في صمم

ولعل في الدارج من أمثلتهم ما يصور أساويهم وطريقتهم إذ يقولون : « خليك مع الكذاب لحد باب الدار » . وهم يعلمون ألا مصير للكذاب إلا الخذلان والبهوار . وهي السياسة التي عبر عنها داهية العرب معاوية بن أبي سفيان في قوله لابنه « كل من حاول أن يخدعك فتخادعت له حتى بلغت منه مأربك فقد خدعته » . لذلك فلا حرج عندهم في الأخذ بما أشاع الفاطميون من المواكب والأعياد ، ثم لا خوض فيما وراء ذلك من الدعاوات والغيبات ، ومن عجب أن يتخذوا يوم عاشوراء وهو يوم حزن عند الشيعة . عيدا يأكلون فيه الحاروي وأصايب الطعام .

ومع ذلك فقد ركب في طبعهم ما لا أدري أيحسب للمصريين أم يحسب على المصريين ، ذلكم هو طول الصبر وامتداد الأناة ، كأنما طبع نار يخهم الطويل في أنفسهم مقاييسه البعيدة الضاربة في أعماق القرون والدهور . ولقد احتل الإنجليز مصر كما احتلوا غيرها من أمصار العرب سنين . وفتحت أبوابها معهم لشذاذ الآفاق وطلاب الثراء وانهازين ، وامتلات

بأجناس اليهود والإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والأرمن واليونانيين والمالطيين ومائت إليهم طبقة من المتمصرين والمشرنجين مقلدين ، واندفعوا إلى ما ذؤلاء من مدارس لم تستقبل أبناءهم لوجه الله ولا لوجه العلم والحضارة مخلصين . : وإنما الأعمال بالنيات .

قامت في القاهرة والإسكندرية ومدن القناة أحياء ونواد بدت كأنها وتكاد تحرم على المصريين . بل كان على المصرى إن شاء أن يدخلها - وسمح له - أن يلوى لسانه بلغة غير لغته ويتكلف غير طباعه أو تنوشه - على الأقل - العيون ، ثم لا طعام ولا شراب إلا باسمه الأجنبي وإلا تعرض المسكين للهوان وعد من أسفل سافلين .

ثم امتلأت مصر بالآلاف من جنود الحلفاء في الحرب العالمية الثانية بين عام ١٩٣٩ وعام ١٩٤٥ . ونطق الخدم والباعة والعمال والتجار بالإنجليزية لا يكاد يخلو رفاق في مصر عنها ، ومع ذلك فقد بنى كله زبداء على السطح لا يغوص أبداً إلى الأعماق ، لأن في أعماق المصرى من حضارته وثقته بنفسه ما يغنيه .

ثم انحسر حكم الأجنبي وتقاص نفوذه ، وإذا بمصر على ديدنها وعهدتها تحمل لواء الثقافة العربية والنهضة العربية في أرض العرب من الخليج إلى المحيط . وإذا بها من قوة الروح تتعقب آثار التسلط الأجنبي فلا تبقى عليها ولا تذر ، وتعود اللغة العربية والنفس العربية فيها خالصة صافية ، فلم تصف اللغة من تأثير الأجنبي في قطر عربي بقدر ما صفت في مصر ، فلا يتخذ المصرى لفظاً من ألفاظ الحضارة الحديثة وعنده عنه من لغته ما يغنيه ، ولا يكاد يجد في لغته عن الأجنبي بديلاً مقبولا حتى ينصرف إليه . فنقد فضل لفظ السيارة والعربة على الأتوموبيل أو الموتر ، وفضل التلاجة على الثريبيدير والتكليف على الكنديشن .

وأولى به لذلك ألا ينصرف عن لفظ عربي يعرفه إلى لفظ أعجمي دخيل . فلم يجر لسانه - كما يجرى في غير مجتمعه لفظ جلاس أو قلاس بديلاً عن الكوب على سبيل المثال . فإن أعوزه اللفظ الحديث للمسمى الحديث فإنما ينطق أو يأخذ عن الأجنبي أخذ المريد القادر لما يشاء من بضاعة ينتقى منها ما يرضى ويختار . ولو قد تعاوت الصحافة والإذاعة وكتب المدارس مع المجمع المغوى لصفت اللغة العربية وتلخص اللسان العربي في أقل من عشر سنين مما ينبو عنها من غريب الألفاظ .

وفضلاً عن ذلك فقد أصبحت لهجة مصر العربية قياساً ونموذجاً للعرب المحدثين في الإسلام كما صارت لهجة قريش قياساً ونموذجاً لعرب الجاهلية قبل الإسلام .

وبعد فذلك لهجة من مصر ومن أهل مصر . فهل أتاك حديث مصر ؟ صلابه وقوة لا تدركها جهالة الحاكم في صلاقة التجبر والغرور . إذ لا مبدل لإرادتهم بغير إرادتهم ولو سلك سبيل الحيلة وبدأ في مسح الرهبان .

ولا مبدل لإرادتهم بغير إرادتهم ولو سعى إليهم بالمنصب الجذاب أو البارق من القناطير المقنطرة من الورق والعقيان .

وتمضي عجلة الزمان ويكونون اليوم نعم الأعوان .
كما كانوا في غابر الزمان .

وهم اليوم إنما يبذلون عن طوعية وإقبال ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . إذ يبذلون من علمهم وخبرتهم لإخوتهم ما عندهم وما يستطيعون ، حيث تفتح مصر أبوابها لمن أقبل عليها يطلب العلم أو الدين أو يطلب الملجأ الهادي أو المستقر الأمين ؛ أو ترسل أبناءها بالعلم والخبرة ملين مسرعين ، مهندسين ومعلمين ، وقراء للقرآن أو عمالاً وصانعين ، لأنهم آمنوا منذ القدم بعون إخوتهم وأشقاوتهم مخلصين .

ولقد أقبلت على مصر الشعوب في عصور قوتها وعصور ضعفها على

سواء : لأنها كانت دائماً صاحبة شيء تعطيه أو شيء يراد ، فليكن لدينا
أبداً ما نعطيه وعندنا — مع العزة والثقة ما يراد — ولا محالة كي يراد أن يبرأ
من شبهة الزيف وينتزه عن مظنة التعمية .

ختام :

وبعد . . .

فتلك هي مصر وهذا شأنها وحظها من كتاب الله ومن سنة رسول الله .
وخلق بها لذلك أن يظل اسمها يعمل أبنائها خفاقاً في العالمين
جذاباً للأقربين والأبعدين ، لأنه اسم شاء الله أن يكون له مكانه من كتبه
ومتزلته من أنبيائه ورسله .

وتخفق له قلوب الناس على اختلاف الملل والنحل في المشرقين والمغربين
كلما قرءوا ما نزل من كتبهم أو سمعوا نسيرة من سير أنبيائهم . بل إن
المورمون في أمريكا ليردون عقيدتهم إلى ما أوحى إلى نبيهم جوزيف سميث
عن البردى المصرى باللسان المصرى .

وإن الشعوب لتبذل النفس والنفس وتنفق جليل الأموال في سبيل
إداعة أسماء بلادها وبثها في العقول والأفئدة والشفاه .

فكيف بنا وأصر من جذور العقيدة سهم ينفذ إلى سواد القلوب وحنايا
الصدور .

ولنا من ذلك رصيد لا شك ينمو ويتعظم إن تعهدناه وخلصناه من
الشوائب ورعيناه .

تلك هي مصر وهذا قنرها .

ترى هل يتردد اسمها بعمل بنيتها قوياً في النفوس راسخاً في الأعماق !!

صنعاء يوم الأربعاء ٢٣ من ربيع الأول سنة ١٣٩٣

٢٤ من أبريل سنة ١٩٧٣

ملحق ١

أزمان الفراعين

عصر بداية الأسرات (الأسرة الأولى والثانية) ٣٢٠٠ - ٢٧٧٨ ق.م.

الدولة القديمة :

٢٧٧٨ - ٢٧٢٣ ق.م.

٢٧٢٣ - ٢٥٦٣ ق.م.

٢٥٦٣ - ٢٤٢٣

٢٤٢٣ - ؟

الأسرة الثالثة

الأسرة الرابعة

الأسرة الخامسة

الأسرة السادسة

عصر الفترة الأولى

٢٢٤٢ - ٢٠٦٠

الأسرات ٧ - ١٠

الدولة الوسطى

٢١٦٠ - ٢٠٠٠

٢٠٠٠ - ١٧٨٥

الأمرة الحادية عشرة

الأسرة الثانية عشرة

عصر الفترة الثانية

١٧٨٥ - ١٦٨٠ ق.م.

١٧٣٠ - ١٥٨٠ ق.م. تقريباً

الأسرتان اثنا عشرة والرابعة عشرة

المكسوس

الدولة الحديثة

١٥٨٠ — ١٣٢٠

الأسرة الثامنة عشرة

١٣٢٠ — ١٢٠٠

الأسرة التاسعة عشرة

١٢٩٨ — ١٢٣٢

رئيس الثاني

١٢٣٢ — ١٢٢٢

مرنيتاح

١٢٢٢ — ١٢١٦

سبي الثاني

ملحق ٢ - الضمائر المصرية والسامية

عربي	عبري	أرامي	أكدي	سبي	حبشي
أنا	أنا	أنا	أنا	أنا (؟)	أنا
أنت	أنت	أنت	أنت	أنت (؟)	أنت
هو	هو	هو	هو	هو	و إنو
هي	هي	هي	هي	هي	ي إنو
نحن	نحن	نحن	نحن	نحن	نحنا
أنتم	أنتم	أنتم	أنتم	—	انن
هم	هم	هم	هم	همو	اموننو وإينومو
هن	هن	هن	هن	هن	أماننو وإيتنو

نم انظر : أحمد بدوي : اللغة المصرية القديمة ومكانتها بين اللغات .

Marcel Cohen, Langues Chemito-Semitiques, dans les Langues du Monde, 1924, Essai comparatif sur le Vocabulaire et la phonétique du chemito-semitique. Paris 1947.

Calice, Grundlagen der Ägyptisch-Semitischen Wörterverzeichnis.

(Herausgegeben von Heinrich Balcz.) Wien 1936.

أهم المراجع

١ - القرآن الكريم

٢ - تفاسير القرآن

(أ) تفسير النسفي

(ب) تفسير البيضاوي

(ج) تفسير أبي السعود

(د) تفسير القرطبي

٣ - الكتاب المقدس بترجماته العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية .

Baikie, The Amarna Age. (London 1926)

Barguet, La Stèle de la Famine a Séhel (Le Caire 1953).

Barsanti et Gauthier, Stèles Trouvées à Ouadi Es-Sebouâ (Nubie). Annales du Service des Antiquités de l'Egypte XI (1911). p. 84.

Breasted, Ancient Records of Egypt 5 Vols. (1962)

The Dawn of Conscience.

Development of Religion and Thought in Ancient Egypt. (London 1912).

The Ras Shamra Statue of Sesostri-III. Syria XVI, p. 318-320, Paris Tours, 1935.

Brugsch, Die Biblischen sieben Jahre der Hungersnoth (Leipzig 1891).

Camino, Late Egyptian Miscellanies. (London 1954).

Calice, Grundlagen der Ägyptisch-Semitischen Wörterverzeichnis (Wien 1936).

- Černý, Greek Etymology of the Name of Moses; *Annales du Service des Antiquités de l'Egypte*, T. XLI (1942), p. 349.
- Erman, Gespräch eines Lebensmüden mit seiner Seele (Berlin 1896).
- Erman, Die Märchen des Papyrus Westcar.
The Ancient Egyptians. A sourcebook of their writings. Translated by Aylward M. Blackman (New York 1966).
- A. Gardiner, Egyptian Grammar. (Oxford 1927).
Egypt of the Pharaohs (Oxford 1961).
Late Egyptian Stories (Bruxelles 1932).
Late Egyptian Miscellanies (Bruxelles 1937).
- Erman & Sethe, Egyptian Letters to the Dead (London 1928).
- Gauthier, La Grande inscription dedicatoire d'Abydos (Le Caire 1912).
- Glanville, Catalogue of Demotic Papyri in the British Museum, Vol. II. The Instructions of Onkhshashanky (London 1955).
The Legacy of Egypt (Oxford 1947)
- Hayes, A Papyrus of the Late Middle Kingdom in the Brooklyn Museum (Brooklyn Museum 1955).
- Hieratic Papyri in the British Museum 3rd series, Vol. I & II.
- Kees, Ancient Egypt, A Cultural Topography (London 1961).
- Kitchen, Ramesside Inscriptions (Oxford 1971).
- Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages (London 1914).

- Lefebvre, Romans et Contes Egyptiens de l'Epoque Pharaonique (Paris 1949).
- Möller, Hieratische Lesestücke II (Leipzig 1927).
- Montet, Le Drame d'Avaris.
Tanis.
L'Egypte et la Bible (Neuchatel 1959).
- Naville, Pithom.
- Ottley, A Short History of the Hebrews (Cambridge 1932).
- Pritchard, Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament (Princeton 1969).
- Petrie, A History of Egypt — Nebesheh and Defenneh.
- Ranke, Die Ägyptischen Personennamen, 2 Vols. Glückstadt 1935, 1952.
- Vandier, La Famine dans l'Egypte Ancienne (Le Caire 1936).
- Whiston, The life and work's of Flavius Josephus (Philadelphia 1957).
- Williams, (Ronald J.) Some Egyptianisms in the Old Testament in Studies in Honor of John A. Wilson (Chicago 1969) p. 93 ff.
- Youssef, Merenptah's Fourth year Text at Amada, in Annales du Service des Antiquités de l'Egypte, T. LVIII (1964), p. 273.

- إسرائيل وفنسون : تاريخ اللغات السامية (القاهرة ١٩٢٩)
- برستيد : فجر الضمير ترجمة سليم حسن .
- حسن ظاظا : الفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه .
- دريوتون وفاندييد : مصر ترجمة عباس بيومي .
- ديتلف نيلسن وفريتهز هومل ود . رودوكاناكس وأدولف جرومان :
- التاريخ العربي القديم ترجمة فؤاد حسنين علي (القاهرة ١٩٥٨) .
- سبتيانو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ترجمة د .
- السيد يعقوب بكر
- سليم حسن : مصر القديمة .
- عبد العزيز صالح التربية والتعليم في مصر القديمة .

الفهرس

صفحة

- ١ - مقصد الأنبياء ٩
- ٢ - إبراهيم : تخوم مصر ، حمايتها ، القلاع ، العلاقات بين مصر وجيرانها ، خوف إبراهيم على سارة من ملك مصر ، أخلاق المصريين ، حديث النبي في إبراهيم ، هل كذب إبراهيم ، اللغة المصرية تبرر قوله ، عدل المصريين وتقديس الحرمات ، كفاح المصريين في سبيل العدل ، تطور الفكر الذي شهده إبراهيم ١٥
- ٣ - يوسف : عصر يوسف ، الهكسوس وعاصمتهم في مصر دخول الكنعانيين مصر ، قصة يوسف ، مجتمع الدخلاء في مصر ، مجتمع المصريين من آدابهم ، انجذاعات في مصر ، بقية القصة ٣٩
- ٤ - موسى : بنو إسرائيل في مصر ، عدو بني إسرائيل ، لحظة من التاريخ ، رمسيس ، مرتبات ، فرعون وبني إسرائيل ، مولد موسى ، المراضع في مصر ، تربية موسى وتعليمه ، قتله المصري وفراره إلى مدين ، العودة ، بعث موسى ، لقاء فرعون ، الخروج ، ما بعد العبور ٧١
- موطن بني إسرائيل في مصر وفرعون من القرآن ، فرعون ، فأوقد لي يا هامان على الطين ، فرعون الخروج
- ٥ - موسى والخضر : مجمع البحرين ، اللقاء في مصر ١٤٩
- ٦ - عيسى : إيواؤه وأمه إلى مصر ١٥٤

صفحة

- ٧ - الأرض : مصر في القرآن : جنات : وعيون ، وزروع . ١٥٧
 وكنوز ، ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين .
 ٨ - حكماً وعلماء : مصر والشرق ، مزامير داود : أمثال سليمان ، عبارات مصرية في العهد القديم وعادات مصرية قبسها العبريون . ١٧٩
 ٩ - في سنة رسول الله : أحاديث الرسول في مصر ، القبط . ١٩٧
 المصري والعربي ، زعامة مصر ، الأعداء يقرون بذلك ، قوة الإيمان ، الصومود المصري .
 ١٠ - ختام . ٢١٥
 ١١ - أزمان الفراعين . ٢١٦
 ١٢ - الضمائر المصرية والسامية . ٢١٨
 ١٣ - المراجع . ٢١٩
 ١٤ - الفهرس . ٢٢٣

رقم الإيداع	١٩٨١/٢٦٩٧
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٧٣٤٦-١٣-٨

١/٨٠/٤٠٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)